مكتبة

سيمونه لابرت

القفزة

ترجمة: سمير جريس

روايـة





القفزة

سيمونه لابرت

القفزة

روايـة

مكتبة
t.me/soramnqraa

ترجمها عن الألمانية
سـمير جـريس





alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

العنوان الأصلي: *Der Sprung*
المؤلفة: Simone Lappert



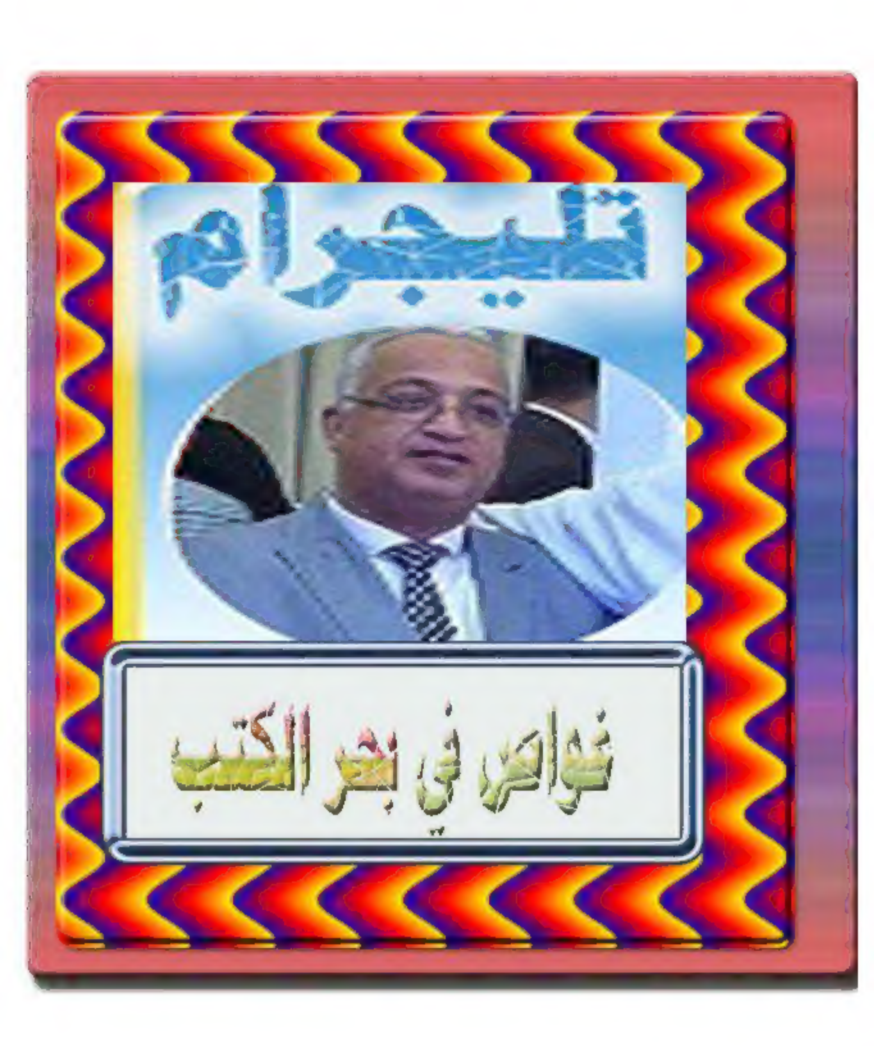
تُرجم هذا الكتاب بدعم للترجمة من المؤسسة الثقافية السويسرية بروهلفتسيا
With the support of the Swiss Arts Council Pro Helvetia

لابرت، سيمونه
القفزة: رواية / سيمونه لابرت؛ ترجمها عن الألمانية سمير جريس - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٤.
٣٢٨ ص؛ ٢٢ سم.
تدمك: 9789778678390
١- القصص الألمانية.
أ- جريس، سمير (مترجم).
ب- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٩٤١٠ / ٢٠٢٣

٢٤٦٨١٠٩٧٥٣١
تصميم الغلاف: أحمد فرج

إلى أختي وأخي




تليجرام
غواص في بحر الكتب

يبقى الجسم ساكنًا،
أو متحركًا في خط مستقيم
بسرعة منتظمة، ما لم تؤثر عليه قوة خارجية.

إسحاق نيوتن، قانون الجاذبية الأول،
مبدأ القصور الذاتي

ربما أنا مجنون
ربما أنت مجنون
ربما نحن مجانين
ربما

أغنية «مجنون» لفرقة نارلز باركلي

*

قبل أن تقفز، شعرت تحت قدميها ببرودة المعدن في حافة السطح. إنها لا تقفز في الحقيقة، إنها تأخذ خطوة في الفراغ، تضع قدمًا في الهواء، وتترك نفسها تهوي، بعينين مفتوحتين تترك نفسها تهوي، تريد أن ترى كل شيء في طريقها إلى أسفل، أن ترى وتسمع وتشم كل شيء، وتشعر بكل شيء، لأنها لن تسقط هكذا إلا مرة واحدة، وتريد أن يستحق الأمر؛ والآن تسقط، تسقط بسرعة، يفيض الأدرينالين بالحرارة في عروقها، كأن أعضاءها تحمر خجلًا، لكنها لا تخجل من نفسها، إنها تسقط، تسقط بوجهها إلى أسفل، ويدور كل شيء أثناء سقوطها، كل شيء يتسع داخلها، مسامها تتسع وخلاياها وشرايينها وأوعيتها الدموية، كل شيء يتفتح، يصرخ، ينفتح على مصراعيه، قبل أن يتقلص مرة أخرى، جسدها كله الآن ليس سوى قبضة تُلاكم تجاه الأسفل، نازعة معها ما يحيط بها، ليست الواجهات سوى خطوط في الحدقتين الجافتين، يقطع الهواء شبكيتي عينيها، يُشرِّح مجال البصر، شيء ما يبهر البصر، ويحرق العين والفم، المدينة تدور، تدور حول نفسها، الأرض تدور في اتجاهها، لا صوت الآن سوى الهواء الذي تدور فيه، الهواء الحاد الذي تسقط فيه والذي يصفع ملابسها فتضرب عظامها، الهواء يضغط على قفصها الصدري، كل شيء يدنو بشدة الآن، الأسفلت، النوافذ، الرؤوس، خضراء، زرقاء، بيضاء، ثم زرقاء ثانية، وكل الشعر في الفم الجاف، ينحشر قلبها الكبير في القصبة الهوائية، وهي تدور الآن خلال السقوط، تدور على ظهرها، شاءت أم أبت.

*

اليوم السابق

فيلكس

قضم فيلكس مكعب ثلج وتنهد، ما زالت أمامه تسع عشرة دقيقة حتى الجزء الثاني من نوبته. إنه أحد تلك الأيام الدافئة الأولى في العام من أيام شهر مايو التي تفوح فيها رائحة الصيف، وفيها يحاول الجميع أن يتملص من واجباته، ويضعون في المتاجر ثلاجات بها آيس كريم بجانب خزينة الدفع، وفي المساء تتكون برك صغيرة مليئة بالمياه بجانب النوافير في المدينة، لأن الأطفال قفزوا فيها كي يلعبوا في الماء. رجال ونساء ما زالت سيقانهم شاحبة شحوب الشتاء، يشترون ما يلزمهم، أو يقودون الدراجات، أو يتمشون، وإلى المنزل يحمل الأطفال في حقائب الظهر واجباتهم التي لن ينجزوها اليوم. فرغت كأس فيلكس منذ فترة. بين حين وآخر كان يرتشف ما انصهر من مياه وتجمع في قعر الكأس، أو يقضم أحد مكعبات الثلج التي لا تزال تحمل بعضًا من طعم عصير الطماطم. أحَب الإحساس بانصياع مكعبات الثلج القاسية تحت ضروسه الطاحنة، والدفء الذي تولده في الفم رشفات ضئيلة من المياه، الباردة بما يكفي لأن تتجمد على الفور أي فكرة. كانت روزفيتا قد وضعت كل الكراسي على الرصيف؛ سيظل الطقس اليوم مستقرًّا إذن، ففي هذه النقطة يمكن الاعتماد على روزفيتا. عبر شق في قماش التندة، كانت الشمس تلهب المفرش الورقي الأبيض في بقعة تبهر بصره. كان متعجلًا جدًّا أثناء خروجه من قسم الشرطة، فنسي نظارته الشمسية في خزانته. أخرج فيلكس أعواد المسواك الثلاثة من الكوب البلاستيكي ذي اللون الأزرق

الداكن، ثم قلبه فوق بقعة النور كأنه يغطي حشرة مزعجة. تنهد مرة أخرى. حان وقت طلب الحساب.

كانت روزفيتا تجلس مغمضة العينين على أحد الكراسي الخيزرانية، وقد ضمت ساقيها إلى جسدها، وأسندت رأسها على جدار الواجهة. في اليد اليسرى تمسك بسيجارة إلكترونية، تسحب منها أنفاسًا كل بضع ثوانٍ، ثم تختفي وراء غيمة كبيرة من الدخان تتحرك في اتجاهه وتفوح منها رائحة مزعومة من تبغ وجلد وعشب، نكهة «الغرب المتوحش». شبكت روزفيتا ذراعيها النحيلتين أمام صدرها، واختفت السلسلة التي ترتديها حول عنقها وتنتهي بحبة فراولة في فتحة «الديكولتيه» التي لوحتها الشمس بقوة.

تنحنح فيلكس، لكن روزفيتا لم تُصدر أي رد فعل. يعرف الجميع أنها لا تحب أن يزعجها أحد خلال التدخين، لكن منذ أن تخلت عن تدخين سجائر «جولواز» الزرقاء، وانتقلت إلى هذا الشيء الإلكتروني، لم تعد هناك استراحة بين السيجارة والأخرى.

قالت روزفيتا من دون أن تفتح عينيها:

– أعرف، أعرف. الحساب، أليس كذلك؟ أعطني دقيقتين. فلنفكر طوال دقيقتين في شيء جميل.

«شيء جميل». ما أسهل قول ذلك. وكأن شيئًا كهذا له وجود، شيء جميل فحسب. مثلًا هذا الهدوء اليوم. بمقدار ما استمتع به اليوم في شرفة المقهى، كان يعلم ما به من خداع. ليست هناك أيام هادئة. ولا حتى هنا، في تالباخ. «الأيام الهادئة» شيء اخترعته الدعاية، ولا يوجد إلا في مجلات الأثاث وإعلانات مصانع البيرة، ومنتجي القهوة ووكالات السفر. تحدث دائمًا مأساة ما. حتى الآن اقتصر الأمر على حادثة بدون جرحى عند مفترق الطرق الدائري قبل الخروج من المدينة، وسرقة متجر في ميدان السوق، وثلاثة تلاميذ لم يذهبوا إلى المدرسة كي يتعاطوا المخدرات خلف حمَّام السباحة. حتى الآن. راح فيلكس يتأمل روزفيتا وهي تميل برأسها قليلًا

إلى الوراء، وباستمتاع تنفخ دخان الأعشاب. تُرى، في أي شيء تفكر؟ في النخيل؟ في بحيرة جبلية، في غابة من أشجار البتيولا، أم في حيوان صغير ذي فراء كثيف ناعم؟ هذا الابتذال الموسمي الرخيص لا يؤثر فيه. الأهرام في رأيه جميلة نوعًا ما. ومكعبات الثلج. السطح الأملس غير المستخدم من الصابون. وبالطبع صديقته مونيك، عنقها الطويلة، وتلك الشعيرات القصيرة على صدغيها التي لا تنمو، وتتجعد عند هطول المطر. ولكن ما من أهرام هنا في المدينة القديمة، ومكعبات الثلج في كأسه أوشكت على الانصهار تمامًا، والصابونة في مرحاض المقهى الصغير مستخدمة من قبل بالتأكيد، أما مونيك فالغريب أنه أبقاها على مسافة منه في الفترة الأخيرة، من دون أن يستطيع تفسير السبب. كان يتخيل أحيانًا ما سيحدث لو فقدت الطفل، ببساطة هكذا. وفي بعض الأحيان يحلم بذلك. يحلم بأنها تقف أمامه بعينين متورمتين من البكاء، ممسكة في يدها بتابوت ضئيل لا يزيد حجمه على حجم العلبة التي تحوي أحجار الدومينو في درج مائدة المطبخ. وعندما تهم بفتح غطاء التابوت، يستيقظ، وهو يتنفس بصعوبة ويتفصد عرقًا. لاحظ فيلكس أن بقعة النور تتحرك ببطء في اتجاهه. بسرعة عدَّل من وضع الكوب، وراح يبحث حوله، ممتعضًا، عن شيء جميل. لكنه لم يرَ سوى بشر تعلو السخافة وجوههم في رأيه، يحاولون أن يظهروا بمظهر شخص معروف. اقتباسات كثيرة تمشي على قدمين. هناك، في مكان الدراجات، المغني الخجول «سنوب دوج» يحمل على كتفه كيسًا عائليًا به ورق تواليت كأنه يحمل جهاز تسجيل. على طرف منطقة انتظار السيارات مارلين مونرو، التي طيَّرت الريح شعرها، تهز خصلاتها الشقراء مرة بعد أخرى، ومنذ عشر دقائق تلتقط صور «السلفي» في الوضع نفسه، وقد تقوست قامتها وبرزت عجيزتها. ثم هؤلاء الذين يُكسبون وجوههم ملامح بطل «ذئب وول ستريت»، يسرعون في مشيتهم بعضلات متوترة في الفكين، كي يظهروا في مظهر من يتخذ قرارات استثمارية بالغة الأهمية،

مَن يتعاطى الكوكايين ويستأجر العاهرات الفاخرات، ويذهب في رحلات باليخت الشراعي وينظم الحفلات في شقق الأدوار العلوية الفخمة. وعندما يصلون إلى المنزل في المساء، يجلسون محبَطين على الأريكة المكسوة بالجلد الاصطناعي، مصدرين الأوامر لنسائهم، أو للكلب، أو أي شخص قادته الأقدار في طريقهم، قبل أن يغلقوا باب غرفة المكتب عليهم وهم يمسكون بكأس البيرة أو الكونياك أو النبيذ الأحمر، وبفضل مواقع البورنو يشعرون بأنفسهم طيلة خمس دقائق كأنهم ملوك العالم. كلَّا، لم يخطر على باله هنا شيء جميل. إن كل ما يجده الآخرون جميلًا، يقترن لديه بذكرى سيئة. مثلًا زهور الفاوانيا، في الحديقة هناك. طوال فترة استراحته كان ينظر إلى أناس يظلون واقفين أمام الشجيرات ذات الزهور البيضاء الباذخة وهم يشعرون بالغبطة، ثم يدسون أنوفهم في الزهور أو يلتقطون لها الصور. أما فيلكس فإن هذه الزهور تذكره بأمسية في صيف عام ١٩٨٧، وبأول ميت رآه في حياته.

تنهدت روزفيتا تنهيدة عميقة طويلة، وقالت:

- أليس هذا رائعًا؟ لا يريد المرء أن ينهض ثانية. الاستسلام للحرارة ببساطة، مثل شيء يمكن أن ينصهر، مكعب ثلج مثلًا.

فتحت عينًا ونظرت إليه، ثم أضافت:

- لا تتجهم هكذا. لن يجرؤ أحد على الاقتراب منا بوجهك هذا. مستحيل أن تفكر في شيء جميل. لا عجب إذن ألا يجيء أحد إلى المقهى. وسامتك لا تنفعني بأي شيء. معكم، يا رجال الشرطة، يشعر المرء بأنه مشبوه على كل حال. لستَ بحاجة مطلقًا إلى مزيد من الجدية.

استنشقت آخر نَفَس من دخان «الغرب المتوحش»، ثم نهضت. دفع فيلكس الكأس الفارغة على المائدة. في مكان الكأس كان القعر الزجاجي يُكبِّر البروزات في المفرش الورقي الأبيض. مونيك أيضًا قالت له إنه متجهم في نظرته، وإنه يخيف الناس. مع أن ذلك ليس قصده. أحيانًا يتساءل ما عساها

ستفكر إذا تعرفت على الصبي النحيل القصير الذي يختبئ في الجسد عريض المنكبين؛ جسد لا يكاد هو نفسه يصدق وجوده أحيانًا، نما له على نحو من الأنحاء عبر السنين، ولا يتذكره إلا عندما يُصدر أحد تلميحًا بشأنه، أو عندما تستدير النساء ناحيته، أو عندما يرى نفسه في المرآة لحظة فتح ستارة الدش. يُعِدونه إنسانًا لا يهاب شيئًا، قادرًا على مواجهة كل التحديات. الزيُّ الرسمي يتولى الباقي، فلم يعد أحد على ما يبدو يشك في كفاءته في أن يكون بطلًا.

وقفت روزفيتا بجانبه وابتسمت، واضعة يديها على خصرها:

- ثلاثة ونصف، يا حضرة الـ«sheriff».

دفع فيلكس، ثم نهض بصعوبة من كرسيه الخيزراني. بقعة النور ظهرت ثانية. مرة أخرى أزاح الكوب البلاستيكي الذي أضحى دافئًا. النظام نظام!

لم يأتِ من قبل إلى هذا المنزل. بدا السُّلم كأنه نُظف حديثًا، فاحت هناك رائحة الليمون والكلور، رائحة عملية تنظيف متقنة للغاية. لكن هذا لا يعني شيئًا. عبر أنظف الدهاليز ألقى القبض على أكثر الرجال شرًّا، وفي الشقق الأنيقة كانت الأبسطة تمتاز بالجودة الفائقة فحسب، لكنها تخفي تحتها الأوساخ أيضًا. الأعمال القذرة تظل قذرة، وهو يكره الدماء، سواء سُفِكت على أرضية يغطيها المشمع أو الرخام. يكره أيضًا السلالم، هذه الثواني القليلة التي لا يعرف فيها بعد مَن سيقابل. ليس أسوأ من ذلك سوى المصاعد، لم يفكر قَطُّ في استقلال مصعد، لا شيء يجعله يشعر بالعجز مثل أن يكون داخل صندوق يترجرج في أحشاء إحدى البنايات، من دون أن يستطيع التقدم بإرادة جسده هو. ساد السكون في السُّلم، كأن البيوت كلها تخلو من الناس. وحدها كارولا، المتدربة الشابة التي ترافقه اليوم، كانت تلهث قليلًا، وبين كل طابقين تحدق بلهفة في باب المصعد، لكنها لم تجرؤ على قول شيء. عندما وصلا إلى الطابق الخامس، سمع فيلكس طفلًا يبكي. قال وهو يصعد درجتين معًا:

- اللعنة!

تخلفت كارولا، وصاحت وقد تملكها الخوف:

- هل سمعت الصوت؟

كان يكره ذلك. يكره ألا يعرف ما ينتظره في الشقة التي صدرت منها الاستغاثة، وأكثر ما يكرهه وجود طفل.

قال فيلكس لكارولا، ملتفتًا إلى الوراء:

- التركيز، هذا هو أهم شيء الآن. ركزي من فضلك. ويجب أن يستغرق زفيرك ضعف مدة شهيقك.

كان يعلم ذلك. كان هذا الضحى الهادئ سينتقم، فترات الضحى الهادئة كانت دائمًا تنتقم. كانت المرأة التي فتحت لهما أخيرًا ترتعش، سال طلاء الرموش الأزرق وترك أثرًا على خديها، كانت ذراعاها تلتفان بقوة حول جسدها كأنها تريد أن تعقد كمي الجاكيت الصوفي خلف ظهرها. لم يريا الطفل في أي مكان، لكنهما سمعاه ينتحب.

أشارت المرأة إلى الباب في الخلف في زاوية الممر وقالت:

- في غرفة المعيشة. في غرفة المعيشة ومعه بندقية الصيد. الباب لا ينفتح، لقد جربت كل شيء، لكنه لا يريد أن ينفتح...

ألمح فيلكس لكارولا بأن تذهب إلى الطفل، ثم سار إلى باب غرفة المعيشة، وراح يضغط على مقبضه، ثم صاح:

- افتح الباب، شرطة!

قال الجملة مرتين، ثلاث مرات، ولم يسمع شيئًا، ثم رجع إلى الخلف قدر المستطاع، وبكل قوته ألقى بنفسه على الباب، الذي انفلق من إطاره المكسو بقشرة الخشب. متعثرًا دخل فيلكس غرفة منيرة على نحو غير متوقع، واحتاج بصره المنبهر إلى لحظة، قبل أن يستجمع فيلكس حواسه مرة أخرى ويقف على أرضية صلبة. عندئذ رأى الرجلَ عند النافذة يرفع السلاح إلى رأسه، فاندفع في اتجاهه وعيناه مثبتتان على ماسورة البندقية التي ينبغي

إبعادها عن هذا الرأس، بعيدًا عنه، أمسك بالماسورة من الجانب، بطرف يده فحسب، ثم سُمعت فرقعة، وشعر بالدوي في أذنيه، تأرجح، وبرهة لم يعد يعرف مَن منهما أُصيب. عندئذ انهار الرجل على الأرض، يده اليمنى ما زالت متشبثة بالسلاح الذي انتزعه فيلكس منه، ودفعه بقوة تحت الأريكة، ثم انحنى على الرجل الذي تمدد وهو يئن على الأرض، وقد ثنى ساقيه جانبًا. سال الدم دافئًا بين أصابع فيلكس، وسقط على الموكيت الرمادي. ما زالت الرصاصة تطن في أذنيه. سند فيلكس رأس الرجل، الذي راحت نظرته الغائمة تتنقل بلا هدف على السقف.

لم يعد فيلكس يعرف كم من الوقت مر عليه وهو يسند رأس الرجل. ربما لو لم يمسك فيلكس بماسورة البندقية، لمات الرجل على الفور. أما هكذا فأصاب الرجل أذنه فقط. الأذن فقط. صامتًا ردد فيلكس الكلمتين في رأسه. «الأذن فقط». «الأذن فقط». ضيق عينيه تمامًا إلى أن غام رأس الرجل بين يديه، ولم يعد يرى زرقة كم زيه الرسمي، ولا زميليه اللذين ظهرا فجأة، ولا القطة الصغيرة التي يشبه فروها الرمادي فرو نمر، والتي انزوت تحت الأريكة وانكمشت بجانب البندقية، ولا خزانة غرفة المعيشة المكسوة بالخشب المُقلد، ولا الطاولة الزجاجية أمام الأريكة. قال فيلكس لنفسه: التنفس بهدوء، هذه هي وظيفتي، ما يحدث هنا لا علاقة له بي، مطلقًا. الرجل هنا حاول أن يُطلق الرصاص على رأسه. هذا يحدث. الأذن فقط. الأذن فقط. ضيق فيلكس عينيه أكثر، ورمش، بأسرع وبأكثر ما يستطيع. هذه حيلة همس بها مدربه في أذنه قبل خمس سنوات خلال أول مهمة أداها في حادث سيارة جسيم. كان خائر القوى، وشعر بتنميل تدريجي في ذراعيه. الحرارة خانقة. ألهبت شمس الغروب الساطعة عبر الشباك المغلق ظهره وقفاه، انفصلت قطرة عرق عن جبينه، وسالت على خده، وسقطت من ذقنه في شعر الرجل الأشيب الذي كان يحرك شفتيه بلا صوت. فاحت من أنفاسه رائحة

القهوة والأسنان التي لم تنظَّف. في الشارع بالأسفل كانت سيارة الإسعاف تدوي، سيصلون قريبًا ويتولون الأمر، ربما بعد دقيقتين، ثلاث دقائق على أقصى تقدير. حتى وصولهم يجب على فيلكس أن يتحمل. تمنى لو كان باستطاعته أن يسد أذنيه وأنفه وأعصابه مثلما فعل مع عينيه. حتى لا يشم رائحة الدم والبارود، المختلطة بكولونيا ما بعد الحلاقة التي كانت تنساب من زي رئيس المفتشين بلازر، وأنفاس الرجل، وطعام القطة الموضوع في وعاء عند عتبة الباب المؤدي إلى الممر؛ وحتى لا يسمع وقع الخطوات القلقة في الغرفة إلا بصوت خافت، وأغنية فرقة «يو تو» التي صدحت من الآيفون على المكتب وتكررت بلا نهاية: «إنه يوم جميل، لا تدعه يفلت منك، إنه يوم جميل»؛ وحتى لا يعود يشعر بفارق الحرارة بين الدم الدافئ الذي ما زال يتدفق من رأس هذا الرجل الغريب، ويديه - هو - الباردتين؛ وخصوصًا، لكي لا يتذكر، فيما بعد إلا بأقل قدر ممكن. فكر فيلكس في مونيك، كان قد وعدها بأن يكون في البيت في السابعة والنصف. أراد أن يلقي نظرة على ساعة يده، ولكن كان عليه عندئذ أن يدير معصمه ويحرك رأس الرجل. شعر بألم حارق في عينيه، أرخى حاجبيه لحظة قصيرة، ونظر ناحية خزانة غرفة المعيشة حيث وقفت كؤوس مغبرة خلف بابين زجاجيين جرارين: بطولة ألمانيا للكاراتيه ١٩٩٣ و١٩٩٤ و١٩٩٧، شارة إنقاذ الغرقى، وميدالية برونزية كالتي يعرفها فيلكس من سباقات التزلج في إجازاته. في الأسفل التلفزيون، حيث لُصقت ورقة بشريط لاصق ومن غير عناية، مكتوب عليها بخط كبير، بقلم «فلوماستر» أزرق:

أنا آسف.

فرانتس

غمغم فيلكس:

- هذا ما آمله.

عبر باب غرفة المعيشة المفتوح سمع زوجة المصاب تنتحب:

- أغلق عليّ الباب بالمفتاح ببساطة، كأنني غريبة، ببساطة أغلق عليّ الباب بالمفتاح...

خلف المرأة وقف بلا حراك صبي صغير، عشر سنوات على أقصى تقدير، مسحت المرأة على رأسه بيدها اليسرى في آلية. وقفت كارولا عند الباب بوجه محمر، وقد كورت يديها على شكل قبضتين، وكأنها تتشبث بدرابزين يمينًا ويسارًا حتى لا تسقط في الهاوية التي فتحت فاها في هذه الغرفة. كان فيلكس يود أن يقول لها شيئًا مهدئًا، فقد كان يعلم بدقة كيف يشعر الخريج حديثًا من مدرسة الشرطة، بسنواته التي لم تتم العشرين، ورأسه حافل بالحالات التي درسها والتي ليس لها أي علاقة بالواقع. لكنه لا يستطيع أن يوفر عليها المرات الأولى الكثيرة التي ستواجهها. قال لها:

- هل تستطيعين أن تعتني بأمر الصغير من فضلك؟ خذيه إلى هناك، إلى المطبخ.

بدت سعيدة بهذه المهمة خارج الغرفة. تحركت ساقان في بنطلون برتقالي صارخ أمام شاشة التلفزيون المسطحة، وبذا ظهرتا في مجال بصر فيلكس، وأوقف أحدهم الموسيقى، أخيرًا، ولمس شخص ذراع فيلكس، وقال:

- يمكنك أن تتركه، سنتولى نحن.

ترك فيلكس رأس الرجل، ثم نهض قائلًا بالأحرى لنفسه، وليس لرجل الإسعاف الواقف أمامه:

- لن يكون سيئًا إنْ غسلت يدَي.

رد الآخَر مشيرًا إلى باب في الممر عُلقت عليه صورة قِط منتزعة من تقويم قديم:

- هناك في الحمّام.

تعمد فيلكس ألا ينظر في المرآة. مد يده إلى الصابونة التي كانت على

طبق فنجان لزج مستقر على حافة الحوض، ما زالت الصابونة مبتلة، وقد التصقت بها بعض الشعيرات، ربما من القطة. تساءل فيلكس، محاولًا ألا ينظر بدقة: هل غسل يديه قبل أن يفعل فعلته؟ بسرعة راح يقلب الصابونة في يديه المبللتين، وواصل غسلهما حتى بعد أن صفت المياه وراقت.

مارين

استدارت مارين أمام المرآة. تحت ذراعيها، في الجانبين، تنغرز حمالات «الكورسيه» في اللحم. أسندت ذراعيها في خصرها مثلما أوضحت لها البائعة في محل الملابس الداخلية. صغرت النتوءات تحت ذراعيها بعض الشيء. راضية فتحت مارين العلبة الصغيرة وبها مُلمّع الشفاه. ما زال سطح العجينة الحمراء البراقة جديدًا، لم يمسه أحد. ضغطت عليه بإصبعها، وبلمسات خفيفة وضعت شيئًا منه على شفتيها، شعرت به لزجًا وفيه مذاق ذلك الكرز الذي تقدمه روزفيتا أحيانًا في الكوكتيل. كان هانيس قد ذهب بعد الثامنة بقليل إلى فراشه لأنه أصبح في الآونة الأخيرة يستيقظ في الرابعة والنصف. يزعم أن ذلك يجلب مزيدًا من النجاح ويجعل صحته أفضل. ترى مارين أن عادة النوم الجديدة جعلت مزاجه أسوأ فحسب.

لا يدري هانيس شيئًا. منذ أيام تخطط لكل شيء. «الكورسيه». الحذاء الجميل، من جلد الشامواه الطبيعي الأسود، الذي لم تكن ترتديه قَطُّ لأنه يضغط على أصابع قدميها ويؤلمها. الجوارب الشبكية وفوقها المعطف الواقي من المطر، والمصنوع من الحرير الاصطناعي الأسود. في الثلاجة زجاجة «البروسيكو» «فيجن». هذا ما أصبحت تعرفه: الآن أيضًا هناك «بروسيكو» نباتي و«بروسيكو» غير نباتي. من أجل الحصول عليه ظلت ثلاث ساعات تبحث في طرقات المدينة. في المطبخ جهزت الفراولة و«البودينج» من حليب جوز الهند، بدون سكر، ومُحلى بشراب من نبات الصبار.

على أطراف أصابعها تسللت إلى الفراش. ما زال الضوء الليلي المنبعث من حجر الكوارتز متوهجًا. شيش النافذة مغلق. يتنفس هانيس بعمق وانتظام، اليدان متشابكتان على الصدر مفتول العضلات. هذا أيضًا مما تمرن عليه باجتهاد إلى جانب تمرين عضلات العضد: أن ينام على ظهره. يزعمون أن هذا أفضل لتدفق الطاقة. عدلت مارين من وضع «الديكولتيه»، وجثت بحذر إلى جانب هانيس، وأزاحت البطانية، ثم شرعت تقبله، قبلة بعد قبلة، بدأت بمنتصف الصدر، ثم هبطت في اتجاه الخصر. ندت عن هانيس زمجرة خافتة، وأبدى امتعاضه، ثم مسح على بطنه حيث قبلته لتوها. فتح عينيه وتطلع إليها مستاء، متسائلًا:

- يا إلهي، ماذا تفعلين؟

ردت مارين بالإنجليزية:

- سنقضي معًا وقتًا رائعًا، «quality time» كما يقولون.

وقبلته على سرته.

جلس هانيس بحركة فجائية وقال:

- لكن يا «أرنوبتي»، ليس بهذا المعطف على السرير، من فضلك! لقد خرجتِ أمس بهذا الشيء. عليه كميات لا تُحصى من حبوب اللقاح، وخاصة الآن، في هذا الفصل من العام، وبسببها سوف تنتفخ عيناي في سرعة البرق.

- مؤكد. طبعًا. حبوب اللقاح.

نهضت مارين، وشبك هانيس يديه ثانية فوق صدره. لم يُنعِم على «الكورسيه» بنظرة واحدة. أو على جواربها. «أرنوب» إذن. آكل الخس. حيوان يتغذى على الأطعمة الصحية التي تطيل العمر، ويستطيع المرء أن يداعب فروته. جلست مارين على طرف السرير، وخلعت الحذاء وأسقطته على الأرضية الخشبية. لا تستطيع أن تتذكر متى نامت مع هانيس آخر مرة. يسقط في المساء على السرير مثل حجر، بعد كل هذه التمرينات التي يؤديها.

بين الحين والآخر يطبع قبلة قصيرة بشفتين خشنتين على جبهتها أو خدها، تعطيها شعورًا بأنه بالأحرى يدفعها عنه، وليس أنه يُعبر عن حبه؛ دَفعة متنكرة في صورة قُبلة. أحيانًا، عندما تتأكد من نومه، تُشبع رغبتها بنفسها بجواره على السرير، أو في الحمَّام في الجانب الآخر، على البساط السميك أمام الحوض، بسرعة وخجل، مثلما كانت تفعل في الماضي في المراهقة، في حجرتها الصغيرة التي لا مفتاح لها. قبل شهرين فحسب كان هانيس يشَبهها بحلوى «البرالين»، والآن يبدو أن حتى اسم الدلع هذا يحتوي على سعرات حرارية أكثر من اللازم. من أجله فحسب تقف الآن هنا، وتشعر بنفسها غير متناسقة القوام ومترهلة، من أجله فحسب أصبحت هكذا، فهو الذي كان يغويها بهذه الحياة المفعمة بملذات الطعام. بمحاضراته عن أهمية الاستمتاع بلا ندم، عن نفوره من النساء اللاتي يتغذين على السلطة والحليب المخلوط بمسحوق البروتينات. وبأطعمة مثل الكانلوني والفطائر بالكراميل جعل منها ما هي عليه الآن: خياطة نسائية بدينة في نهاية الثلاثينيات، تحسد النساء اللاتي يترددن عليها على عظام الوركين البارزة. مرت اثنتا عشرة سنة على حياتهما معًا، ولم يعطها قَطُّ سببًا واحدًا للشك، دائمًا كان هناك ذلك الميثاق، ذلك العهد بأن يظلَّا يقتسمان العبوة العائلية من آيس كريم الشوكولاتة أمام التلفزيون، حتى عندما يتقدم بهما العمر، تمرد بأسلوبهما الخاص، مسلحَين بحلوى «المارشملو» وسجائر «مارلبورو لايتس» في مواجهة باقي العالم المُعادي للمتعة... إلى أن حلَّ عيد ميلاد هانيس الأربعون. أعلن الأمر كأنه يبشرها بخبر سار:

- أريد أن أغير حياتي.

فَقَدَ منذ ذلك اليوم ٢٥ كيلوجرامًا، وسيمًا بدا، لا شك، لكنه لم يعد يبدو مثل هانيس، بهذه العضلات في بطنه، وبذراعيه المفتولتين، وببشرته السمراء. شعرَت كأن المسافة بينهما تزداد بمقدار الكيلومترات التي يركضها على آلة التدريب المنزلية، وكأنه في رحلة بعيدًا جدًّا عنها، حتى إنْ جلس معها

على المائدة أمام صحنه الذي يضم الشوفان المطحون والمخلوط بحليب اللوز وبذور الشيا، وهو يلقي نظرات مؤنبة على خبز التوست الذي دهنته بالمربى. مع أنها تخلت عن دَهنه بالزبدة أولًا. أصبحا غريبين منذ اليوم الذي تلا عيد ميلاده الأربعين، بعد أن أزاح برطمان «النوتيلا» إلى الجانب الذي تجلس فيه على المائدة. ومع كل جرام من العضلات يتكون لديه، كان بالمقدار نفسه يخونها، ومع كل جرام من الدهن يفقده، كان ماضيهما المشترك ينصهر من على ضلوعه.

تنهد هانيس، وقال من دون أن يفتح عينيه:

- هل تطفئين الضوء من فضلك؟ الضوء من أقوى المخدرات. يفسد المرء ساعته الداخلية إذا لم يتنبه، ولا يحصل عندئذٍ على نوم صحي.

استدارت مارين ناحيته. شفطت خديها، وصنعت وجه أرنب مثلما يفعل المرء مع الأطفال، لكنه لم يكن وجهًا لطيفًا، لا، لقد أظهرت لهانيس وجهَ أرنبٍ شريرًا، ثم سارت إلى المطبخ. تركت باب الثلاجة مفتوحًا عندما تناولت، وهي واقفة، من «البودينج» الذي ما زال دافئًا. ليس سيئًا على الإطلاق، عصير الصبار هذا. في الدرج أسفل الفرن، خلف جهاز صنع فطائر «الوافل» الذي علاه الغبار، وجدت السكرية التي أخفتها هناك. غمس رؤوس الفراولة في السكر، رائع: صرير الأسنان هذا بطعمه الحلو الوز. نزعت السدادة الفلينية عن زجاجة «البروسيكو» بلا صوت تقريبًا. لم تتجشم مشقة إحضار كأس من الخزانة، ووضعت الزجاجة على شفتيها مباشرة، ثم تجشأت وسط شبه الظلمة السائدة في المطبخ عندما تصاعد غاز حمض الكربونيك في أنفها. شغَّلت شفاط البخار فوق الموقد، وأشعلت سيجارة. ما زالت عين الموقد التي أعدت فوقها «البودينج» دافئة. سمعت «طش» خافتة، عندما سالت دموعها على فكها ثم على سطح الموقد الكهربائي.

إيجون

يبدأ الآن أفضل وقت في اليوم. وضع إيجون المنظار جانبًا، ورشَّ على شطائر الخبز بالزبدة والثوم المعمر بعضَ الملح من الطاحونة الصغيرة، المصنوعة من «البلكسيجلاس»، التي وضعتها روزفيتا أمامه. لا أحد يُعد شطائر الزبدة بالثوم المعمر مثل روزفيتا. سُمك الزبدة كافٍ، وطبقة الثوم المعمر أكثر منها سمكًا بعض الشيء، والخبز أسود وبه مرارة، قُطع في المنتصف تمامًا، لا طماطم، ولا جزر على شكل وردة، ولا أي زينة زائفة. يعشق القضمة الأولى من الشطيرة السليمة. كان حتى ساعة مضت يقف أمام جهاز التعبئة والتغليف بتفريغ الهواء، ليغلف قطع الكرشة؛ ما زالت تفوح من يديه رائحة القفازات المطاطية، يشمها عندما يفرك عينيه المجهدتين. ولكن هنا، عند روزفيتا، يشعر بالراحة. لا عمل على خط التجميع، لا حيوانات تصرخ، لا صوت محركات لشاحنات، ليس سوى الأزيز البطيء الصادر عن مروحة السقف، وبين الحين والآخر صوت الباب الدوار الذي يتحرك عندما يدخل زبائن إلى المقهى أو عندما يغادرونه؛ أما موسيقى الريف الأمريكي، الصادرة من مكبر الصوت الصغير عند البار، فلا تكاد تُسمع. لا ترفع روزفيتا درجة الصوت إلا عندما تضع موسيقى كلاسيكية، برامز أو تشايكوفسكي. ثمة موسيقى للمشاركة، وموسيقى للاستماع المنفرد، هكذا كانت ترى الأمر، وهو أعطاها الحق. كان يجلس إلى المائدة الركنية بجانب النافذة

الكبيرة ذات الستائر المخملية الخضراء. من مكانه يرى كل ما يجب عليه أن يراه. البار على اليسار، ووراءه تقف روزفيتا؛ روزفيتا التي لا تتوقف عن الحركة مثل نحلة، بشعرها المرفوع والمثبت على نحو عفوي، يحلو النظر إليها دائمًا، سواء كانت ترتدي قفطانًا أو تنورة رقصة البولكا، يمكنه أن ينظر إليها ساعات وساعات، وهي تضع البيض الملون في السلة النحاسية، وتملأ زجاجات التوابل الصغيرة، وتضع أدوات المائدة في الماء الساخن، ثم تلمعها بالمنشفة، وتمد يدها - من دون أن تنظر - إلى الزجاجات والكؤوس، وتغلق أحد الأدراج بخصرها، وفي الوقت نفسه تقطع بيد الكعكة، وباليد الأخرى تضع منديلًا ورقيًا على الطبق؛ رقصات بلغت عبر السنين درجة الكمال. إلى اليمين، إذا أدار الرأس قليلًا، يرى المحل على الجانب الآخر من الميدان. نعم، هنا مكانه المفضل للجلوس، بالنصف الأيمن لوجهه في ضوء الشمس الشاحب الساقط على الساحة. في بعض الأحيان يجلس هنا عدة ساعات متواصلة، إلى أن يحل الظلام. حتى إنْ كان ظهره يؤلمه من جديد. بين حين وآخر يمتد الألم إلى عضلات الساقين. الوقوف طويلًا هو السبب، ورفع الكتفين عاليًا. النفور من عمله هو السبب، هكذا تقول روزفيتا. لا بد أن تكون هناك عدة أشياء قد تآمرت عليه. نصحه الطبيب بالتمارين الرياضية في الماء، وكتب له الأوقات التي تُقدم فيها مثل هذه الدورات. لكن مجرد تخيُّل الذهاب بالسيارة، ثلاث مرات في الأسبوع، من المسلخ مباشرة إلى صالة حمَّام السباحة، ثم تأدية التمرينات هناك باستخدام أشياء مصنوعة من بلاستيك البوليسترين، نصف عارٍ، محاطًا بأنصاف عراة، كان يجعله يشعر أن تناول حقنة تُغرز في عموده الفقري بين الحين والآخر، عند طبيبه الذي يهز رأسه ممتعضًا، هو أهون الشرين. على كل حال، هذا السيرك المائي سيكون بالتأكيد مضرًّا لصحته العقلية. أمسك بالمنظار.

في البداية تطلع إلى الجدار المقابل، حيث كانت تُعرض دائمًا في السابق قبعات جديدة. المجموعة الصيفية الأخيرة صنعها من أفخر أنواع الجوخ الفرنسي، بسيطة وذات حافة نحيلة، بلا شرائط أو ريش أو تطريز، بلا أي زينة زائفة. كانت أفخر مجموعة صنعها في حياته، وبعد شهر كان عليه أن يسلم المفتاح. ثمة سماعات معلقة الآن هناك باثني عشر لونًا مختلفًا، وأسلاك ملفوفة، وجهاز يشبه صندوقًا صغيرًا لا يعرف إيجون اسمه. وفوق كل شيء تبرق كلمات ضوئية باللون القرنفلي الساطع:

عيادة التلفون المحمول - من ٨ صباحًا إلى ١٢ ليلًا

نقل المنظار إلى الجانب الآخر من قاعة البيع؛ الجدار بأكمله مغطى بحافظات الهواتف الذكية، والمسامير، وأجزاء براقة، وآذان حيوانات، وقطيفة تقليد، وجلد اصطناعي. كأن جهاز لصق بالغراء ومحلًا للهوايات اليدوية انفجرا في وقت واحد. إن مجرد رؤية هذه النفايات النفطية تجعل رائحة البلاستيك تتصاعد إلى أنفه؛ رائحة لاذعة مثل الهواء الذي يخرج من كرة ماء بعد أسبوعين من نفخها. ظهرت امرأة في نطاق الصورة، ودخلت المحل وهي تنتحب، ثم مسحت بكم الكنزة القطنية الدموع عن وجهها، ووضعت تلفونها على طاولة البيع البيضاء، التي علتها لافتة مضيئة كُتب عليها:

قسم الطوارئ

البائع خلف الطاولة، بقميص أصفر وشعر مربوط على شكل كمكة، أظهر وجهًا متعاطفًا، وتناول التلفون الذي حدث له شيء سيئ كما هو واضح، وضغط عدة مرات عليه متفحصًا، ثم أداره، ووجه أسئلة، وعرض على المرأة منديلًا أخذته وتمخطت بجهد كبير. اختفى البائع مع التلفون عبر باب عليه لافتة مضاءة بالنيون مكتوب عليها: مكتبة سُر مَن قرأ

العناية المركزة

وبدأت المرأة تنقر على الطاولة بعصبية.

- تفضل!

وضعت روزفيتا ربع لتر من النبيذ الوردي أمام إيجون، وبيدها داعبت وجنته سريعًا. يحب أن تفعل ذلك، حتى إنْ كان يعرف أنها لا تخصه وحده بمثل هذه اللفتات. قالت له:

- لا بد أن تتعلم التخلص من الكراكيب القديمة. ولا أعني بكلامي المنظار.

وضع إيجون المنظار على المائدة، وأزاح بطرف إصبعه قطرة من الماء المتكثف على دورق النبيذ، لتسقط على المائدة، ثم قال:

- لقد لصقوا الآن شيئًا على الأرضية الأصلية المكسوة بكسر الرخام يا روزفيتا. جيل شاشات اللمس هذا لا يحترم شيئًا، مطلقًا.

ردت روزفيتا:

- إنك تبالغ. عندما تقتني أخيرًا جهازَ تلفون حديثًا، سأضيفك في الواتس آب إلى مجموعة «الإيفنت»، عندئذ ستعرف دائمًا متى يقام هنا حفل موسيقي، أو متى أنظم دورة لفن الطهي الفييناوي. وعندما أتسوق يمكنني أن أرسل لك صورًا لأحذية وقبعات وأطلب رأيك فيها.

تناول إيجون المنظار ثانية وهز رأسه قائلًا:

- تذكري ما أقوله لك: خلال عدة عقود لن يكون في الحضارة الغربية سوى مخلوقات محنية الظهر، متضخمة الإبهام والسبابة، وتعاني الكساح. وسيكون من دواعي السعادة إن ظلوا عندئذٍ يعرفون ما هو الحفل الموسيقي.

ضحكت روزفيتا ضحكتها الخشنة، وربتت على كتفه خلال سيرها، وقالت:

- البعض انحنى ظهره أيضًا من كثرة سبابه ولعناته.

ابتسم إيجون. لمعظم الناس تقول روزفيتا ما يودون سماعه. ولا تقول ما تفكر فيه إلا لمن تحبهم حقًا.

كانت الساحة غارقة في ظلمة الغروب عندما دخلت المقهى المرأة الشابة ذات التلفون المعطوب. على ما يبدو استطاعوا أن يساعدوها، إذ إنها كانت منهمكة في الكتابة والمسح على الشاشة، حتى إنها لم تتطلع إلى روزفيتا عندما وقفت أمام مائدتها.

قالت الشابة:

- قهوة بالحليب من فضلك.

شبكت روزفيتا ذراعيها أمام صدرها، وردت:

- يمكنك الحصول عليها. لكن ثمنها ٢٥ يورو.

مندهشة، رفعت الشابة بصرها من على هاتفها، وتساءلت:

- لماذا؟ هل تضع البقرة الحليب فوق القهوة هنا أمام المائدة، أم ماذا؟

- لا، هذه أجرة التاكسي من هنا إلى ستارباكس حيث يقدمون شيئًا كهذا. ثم أجرة العودة إلى هنا. وطبعًا ثمن المشروب في الحساب.

أدارت المرأة عينيها، ثم سألتها:

- وهل هنا على الأقل «واي فاي»؟

ردت روزفيتا:

- هذا ما ينقصنا.

ظلت واقفة أمام المرأة المسكينة، مثبتة بصرها عليها، إلى أن تناولت المرأة حقيبة يدها أخيرًا وانصرفت.

بعد أن اختفت في الباب الدوار، قال إيجون:

- ألم تتفاخري مؤخرًا بـ«واي فاي» الألياف الزجاجية عندك؟

قالت روزفيتا:

- «الواي فاي» عندي لا يقارَن مطلقًا بالقهوة بالحليب التي أعدها.

لكن لا بد من قول «مساء الخير»، ومن النظر في العينين أولًا، وإلا فإن المعروض عندي سينكمش على الفور.

عاد إيجون بظهره إلى الوراء، وتابع روزفيتا ببصره. يا لها من امرأة! يومًا ما سيسألها ما إذا كانت تود الخروج معه. يومًا ما، عندما تحدث معجزة، ويستجمع شجاعته ليسألها.

فِن

كان حضورها يقلقه. وإذا كان صادقًا مع نفسه، فقد كان هذا القلق هو أكثر ما يحبه فيها، أكثر من صوتها العميق، أو البقع التي تخلفها الحشائش على ركبتيها، أو ثدييها الشقراوين؛ وكان أحدهما، الثدي الأيمن، أكبر قليلًا من الأيسر. عندما يسير معها في الشارع، كان يُخيل إليه أن كل موقف، مهما بلغت تفاهته، له كواليس مثيرة لن يستطيع أحد أن يُدخله إليها سواها. بجوارها كان متأكدًا من أن شيئًا لن يفوته. كان يستمتع بالشعور الخادع بأن كل شيء سيتغير وسيصبح جيدًا، بأنه هو نفسه تغير بسبب مانو، وأصبح إنسانًا يتحمل ذاته على انفراد بشكل أفضل، أصبح صورة أفضل من نفسه. كانت مشاعره متقلبة، ومرتبطة بنظرات مانو. بلمساتها. بطول الفترة التي تضمه فيها إلى صدرها عند الوداع، وما إذا كانت تعطيه ظهرها أثناء النوم أم لا. راح فِن يراقب مانو وهي تتسلل إلى الشريط الأخضر الذابل أمام مبنى الحي، الطين القليل تحت المزراب، عند مدخل قسم الشرطة حيث تربع إصيص نباتات كبير. تتحرك بسرعة في الظلام، بلا صوت تقريبًا، ترتدي على سبيل التنكر طاقية سوداء على شعرها الأشقر، وفي إحدى اليدين مشط زراعي، وفي اليد الأخرى جاروف صغير. خلف نوافذ الدور الأرضي المضاءة إضاءة ساطعة رأى فِن شرطيين، وكل منهما يجلس خلف مكتبه، أحدهما يكتب نصًا على الكمبيوتر مقطبًا حاجبيه، أما الجالس أمامه فيكثر من التثاؤب على نحو غير معتاد في قبضة يده

المرفوعة، مختلسًا النظر إلى زميله؛ من المرجح أن شاشته تبرق بأشياء لا علاقة لها بالعمل.

لوحت مانو لِفِن بالمشط الزراعي:

- «بسسس»!

لم يستطع أن يصل إلى الشريط الأخضر في هدوء وسرعة مثلها، لكنه على كل حال نجح في الوصول إلى مدخل البناية من دون أن يشغل جهاز كاشف الحركة. بمهارة غرزت مانو الجاروف في الإصيص حول النبات الذي نما داخله، وهو نبات السنفية الذي يعلوه الزغب مثلما شرحت له من قبل. أمسكت بالنبات، وحتى تخرجه حركت الإصيص، ثم هزت النبات بحرص إلى أن خرج في يدها بجذوره. بالمشط أزالت عنه مانو الطين الزائد عن الحاجة.

- الآن!

همست بها مشيرة إلى الكيس البلاستيكي وبه المنديل المبلل في يد فِن.

أمسك فِن بالباب ليبقى مفتوحًا. متعجلةً وضعت مانو النبات داخله، ولفت المنديل الرطب حول الجذور. كان بإمكانه أن يشم رائحة كريم الشمس على خد مانو، إلى هذا الحد كانت قريبة، وكانت لديه رغبة في أن يلمس الزغب على صدغها، ويمر بأصابعه على أذنيها الكبيرتين.

همست مانو:

- ستكسر الشتلة. انتبه، هذه نبتة فاخرة فعلًا. بإمكان المرء أن يأكل حتى الجذور.

دار دبور مضطربًا فوق رأس مانو، وحاول عدة مرات أن يهبط على طرف الطاقية. أراد فِن أن يهشه. صوت «كليك»، وضوء باهر. تسببت تلويحة يده في تشغيل جهاز كاشف الحركة. انفزعت مانو. وفحّت قائلة:

- اجرِ!

ثم ركضت مع النبات قبل أن يدرك فِن ما حدث أساسًا. صاح أحد الشرطيين الذي خرج إلى الشارع:

- قفا! قفا فورًا!

لكن فِن ومانو لم يقفا، بل ركضا ضاحكين، وواصلا الركض في حواري المدينة القديمة الخالية، التي لا تزال تختزن هواء بدايات الصيف الساخن الثقيل بين أسوارها، ركضا تحت الغيم الكثيف الذي يعد بالمطر، وواصلا عدوهما حتى عندما لم يعد ضروريًا على الإطلاق، ركضا حتى ورشة البناء على المرج عند أطراف المدينة حيث تبدأ الغابة. حشرت مانو نفسها بين الألواح الخشبية التي تحيط بالورشة العالية، ثم عبرت الورشة المهجورة، وتسللت في الجانب الآخر مرة أخرى عبر ألواح السياج، ثم تركت نفسها تهوي بذراعين مفرودتين على أحد التلال الرملية على أطراف الغابة، وفوقها غطاء قماشي أخضر معلق. لاهثة مسحت العرق من جبينها بطاقيتها. رقد فِن بجوارها. قال:

- أنت سريعة.

ابتسمت مانو ووضعت النبات بجانبها فوق العشب قائلة:

- أنقذت نباتًا آخر من جديد.

سألها فِن:

- من أي شيء؟

جلست مانو، ثم قالت:

- طيب، تعالَ معي، أريد أن أريك شيئًا.

رفعت عاليًا نبات السنفية الذي يعلوه الزغب، وفكت المنديل الملفوف حول الجذور الذي كان قد انحل قليلًا. لفت ذراعيها حول النبات وكأنها تحمل طفلًا صغيرًا، ثم سارت إلى الغابة وقدماها تغوصان بعض الشيء في الأرضية.

أشعل فِن الكشاف الضوئي في تلفونه المحمول حتى يرى مسار قدميه على نحو أفضل. سألها:

- هل أنتِ متأكدة من أنها فكرة جيدة؟ سمعت أن المنطقة هنا بها خنازير برية، ألا تلد الآن؟

استدارت مانو إليه من دون أن تتوقف، ورجعت عدة خطوات إلى الوراء، وقالت:

- في أسوأ الحالات، علينا أن نقضي الليل على إحدى الأشجار.

ثم ضحكت.

قال فِن لنفسه: رائع. الآن، على أقصى تقدير، أصبحت تعرف أنها تتعامل مع شخص جبان. بثقة مَن يعرف هدفه سارت مانو عبر الدغل، وبساعديها كانت تزيح الغصون عن جسدها يمينًا ويسارًا. حاول أن يقلدها، لكن الفروع كانت دائمًا تنغزه في جنبه، أو تفاجئه في وجهه، وكل عدة خطوات يتعثر في أحد الجذور. بيده اليسرى أمسك سهوًا بحزمة من نبات القرّاص. هذا التصميم. كان يحسد مانو عليه. على الرغم من معرفته بأنه ربما لم يكن ليقابلها قَطُّ، لو كان لديه نصف شجاعتها. ولكان قد انطلق منذ فترة طويلة في مغامرته الكبيرة، يدفع دراجته على الأسفلت في نابولي أو نيويورك. قال فِن لنفسه: لكن في نهاية مايو سأستجمع شجاعتي، ومَن يعلم، ربما ترافقني مانو. وجد نفسه يفكر في المرة الأولى التي رآها فيها، في آخر الأيام الدافئة من الخريف الماضي، على جزيرة مرورية أمام محطة وقود على طريق الخروج من بلدة ما. كانت تقف بين النجمية والزينيا وشقائق النعمان، وهي كلها زهور لم يعرف اسمها إلا من مانو. كان الظلام قد هبط، وشعر فِن بثقل ساقيه بعد اليوم الطويل على الدراجة. كانت مانو تقفز بين الزهور يمنة ويسرة وهي تشيح بيديها.

- أنت، نعم أنت، تعال إليّ من فضلك!

قاد دراجته إليها، وتوقف، ولم تنتظر حتى أن يسأل عن الأمر، بل قالت له وهي تضع في يده كشافًا كبيرًا برتقالي اللون:

- هل يمكنك أن تمسك هذا من فضلك؟
ثم قالت وهي تشير إلى بقعة غير مزروعة في وسط الجزيرة:
- سلط الضوء هناك!
تناول فِن كشاف الجيب وسلط الضوء المخروطي على ما أشارت إليه. صامتة زرعت مانو نبات النجمية في الحفر التي أعدتها من قبل. لم تتطلع إليه مرة واحدة خلال ذلك. وعندما غرزت كل النباتات بعناية، وضعت يديها في خصرها، وأومأت راضية ثم ابتسمت له قائلة:
- والآن، لديَّ رغبة في أن أدعوك على آيس كريم من محطة الوقود.

كادت مانو تتعثر، كانت قد توقفت عن السير ومدت يدها اليمنى إلى غصون زيزفونة، وشبَّت على أطراف أصابعها حتى تصل إلى الزهور بشكل أفضل. قالت:
- يجب أن تجربها. طعمها حلو مثل الصيف.
تناول فِن إحدى الزهور وفركها بين أصابعه. أضافت مانو وهي تضع زهرتين في فمها:
- أزهرت الشجرة مبكرًا هذا العام. والزهور تصلح لعلاج أي شيء يسبب ألمًا.
بحذر قضم فِن قضمة صغيرة. حقًّا، طعمها حلو ووافر العصارة، يشبه العسل بعض الشيء.
أشارت مانو في الظلام قائلة:
- هناك، بالأمام. عدة خطوات فقط.
رفع فِن هاتفه أكثر، وأضاء بين الشجر. مانو أيضًا أشعلت كشاف الجيب الصغير المعلق في سلسلة مفاتيحها. وصلا إلى بقعة كبيرة خالية من الأشجار، وفي وسطها أزهرت حديقة لافتة للمنظر، تعرف فِن على زهور الخشخاش المنثور، والأذريون، والفوشيا، والفاوانيا، حتى

إن كانت بعض الزهور لم تتفتح بعد؛ النباتات الأخرى لم يعرفها. على الحافة نمت خمس أشجار صغيرة من أشجار الفاكهة، تفاح وبرقوق، كان متأكدًا من ذلك، وكمثرى وكرز ربما، ومن الممكن أيضًا مشمش وليمون، أو تلك الفاكهة المرة ذات القشرة التي تشبه برتقالات صغيرة جدًّا. قالت مانو:

- وصلنا، هنا ملجأي للنباتات المزروعة في الأصص.

أشارت إلى إحدى أشجار الفاكهة قائلة:

- كانت هذه هي الأولى، شجيرة نارنج سرقتها آنذاك من فناء مدرستي.

سارت إلى ما يشبه العشة المسقوفة بألواح خشبية، وفي الداخل كانت بعض أدوات البستنة مستندة على الجدار، عربة يد ورشاشة للزرع. أخرجت عشبة السنفية من المنديل، وتناولت جاروفًا. ثم قالت وهي تشير إلى عربة اليد:

- خذ هذه معك!

جرها فِن من الجدار، وتبع مانو إلى الحديقة. سألها:

- لماذا أحضرتِ كل هذه النباتات إلى هنا؟

بالقرب من زهور الفاوانيا غرزت مانو الجاروف في الأرض.

- تخيل أن يحبسوك في زنزانة حبسًا انفراديًا، بلا أي تواصل مع العالم الخارجي، بلا إمكانية للتحدث مع أي أحد. كيف ستجد ذلك؟

بنشاط راحت تجرف التربة وتلقي بها داخل عربة اليد. رد فِن:

- شيئًا فظيعًا. على الأرجح لن أعيش فترة طويلة بعدها.

قالت مانو وهي تضع السنفية في الحفرة التي حفرتها:

- وهذا بالضبط ما تشعر به النباتات التي يحبسها الإنسان في أصص. الإنسان يعزلها. النباتات كائنات حساسة، وهي تستطيع التواصل بعضها مع بعض عبر الجذور الممتدة تحت الأرض، فتكوِّن شبكة من الجذور تحصن بها نفسها ضد تقلبات الطقس. إنها تكوِّن مجتمعًا، هل تفهمني؟

أومأ فِن، وسار بعربة اليد بجانب مانو عائدَين إلى العشة. ثم قال:

- أحبها، حديقتك المسروقة. «روبن وود»(*)، المناضلة من أجل المقتلَعين من جذورهم، مُنقذة النارنج!

ضحكت مانو، ووضعت الجاروف جانبًا، ثم ثبتت كشاف الجيب على خطاف في السقف، وقعدت على كيس ممتلئ بنشارة الخشب. لصق العرق شعرها القصير على جبهتها. قالت:

- في يوم من الأيام سيكون لديَّ مَشتل خاص بي، يزدحم بأنواع النباتات النادرة. إذا ظللت أعمل باجتهاد حتى آخر العام، ربما يمكنني عندئذ أن أؤسس شيئًا. أن أصل أخيرًا إلى ما أريد، وأشتري خزانة وبعض الأطباق، وكل هذه الأشياء. سيكون هذا جميلًا.

أخرجت حبتين من الطماطم من جيب الكنزة القطنية، ثم خلعتها. جلست الآن أمامه بالفانلة الداخلية، وهي تلهث قليلًا. فوق ثديها الأيسر رأى خفقان قلبها. قالت:

- هل تعرف هذا الشعور، عندما يحس المرء بأنه قد أصبح ندًّا لمكان؟ عندما تظهر حُجرة الطفولة للمرء فجأة بأنها ليست كبيرة كما كان يتصور، أو أنه لم يعد بداخلها صغيرًا؟ أعني، لقد كنت دائمًا أريد الرحيل عن هنا، حتى وأنا فتاة صغيرة، الرحيل ببساطة عن هنا، المهم إلى أي مكان آخر. والآن، الآن لديَّ لأول مرة شعور بأنني أستطيع تحمل المكان هنا.

ابتسمت له، ثم واصلت:

- والجيد في الأمر، أن هذا لا علاقة له بك. لا علاقة له مطلقًا.

ازدرد فِن ريقه. ما الجيد في ذلك؟

(*) تلعب المؤلفة هنا على اسم البطل الأسطوري «روبن هود» الذي يسرق الأغنياء ليُطعم الفقراء. كلمة «وود» تعني الخشب والغابة، فتناسب اهتمام مانو بالنبات. (المترجم).

- عليك ألا تفهمني خطأ، حقًّا، هذا شيء جيد، صدقني.
مدت يدها له بحبة طماطم، ثم أضافت:
- هل تعرف أن ثلث جيناتنا يشبه جينات الطماطم؟
وواصلت، وهي تمسك بثمرة الطماطم بين الإبهام والسبابة:
- هذا يعني أن ثلث الإنسان من الفصيلة الباذنجانية.
نظرت إلى فِن، ثم إلى الطماطم، ثم إلى فِن مرة أخرى، وقالت مبتسمة:
- نعم، أستطيع التعرف على تشابه ما.

قضمت الثمرة، وسال بعض العصير بين ثدييها حتى وصل إلى قماش الفانلة الداخلية. لم تعبأ بذلك.

قعد فِن بجانبها، وأدار حبة الطماطم بين أصابعه، وراح يتشممها حتى يربح وقتًا. لم يكن يحب الطماطم كثيرًا، أو عندما تكون غير مطهية على كل حال. لكنه يحب مانو، لذا قضم الثمرة أخيرًا. انحنت مانو عليه وقبلته، قبلة بطعم الطماطم وكريم الشمس. جلست على حِجرِه، وأخذت يده ودفعت بها تحت البنطلون، بين ساقيها، ومن فوق رأسه سحبت التيشرت الذي كان يرتديه. البنطلون الرياضي الذي ترتديه كان واسعًا قليلًا، بسهولة أنزلته من على ردفيها. كان من السهل ممارسة الجنس مع مانو، تزيح يديه إلى المكان الذي تريده، ولم يكن لديه في يوم من الأيام شعور بأنه يهجم عليها على نحو غير ملائم، أو أنه يتحرك بطريقة لا تعجبها، كانت هي التي تحدد الإيقاع. لم يعلُ صوتها قَطُّ، ولا الآن أيضًا. عندما وصلت إلى الذروة، ارتجف أسفل بطنها وفخذاها عدة مرات. وصلت إلى ذروتها قبله بعدة ثوانٍ، لكنها واصلت حركتها، ضاغطة وجهها على وجهه، وبقيت فوقه هكذا برهة وهي تلف ذراعيها حوله بإحكام، إلى أن طبعت قبلة ثقيلة على صدغيه، ثم قامت من فوقه. في حين كان لا يزال مشغولًا بارتداء ملابسه، لفت لنفسها سيجارة صغيرة بهذا الورق الذي يكاد يكون شفافًا. على بطنها

العاري وضعت منفضة السجائر الصغيرة التي تحملها معها، والمصنوعة من المعدن الأخضر، وراحت تدخن، وتنفض الرماد عن سيجارتها، ثم تواصل التدخين، ومنفضة السجائر ترتفع وتنخفض مع أنفاسها التي هدأت تدريجيًا.

بعد برهة قال فِن:

- حقًّا، إنني لا أعرف أحدًا مثلك.

ضغطت مانو على السيجارة لتطفئها. وقالت له وهي ترتدي الكنزة القطنية:

- ألا ينطبق هذا على كل إنسان يقابله المرء؟

قال فِن:

- بجد، من أين تعرفين كل هذه الأشياء، عن الطماطم وزهور الزيزفون والنارنج؟

نهضت مانو ونفضت عن بنطلونها الرياضي بعضًا من نشارة الخشب، وقالت:

- عندما كنت صغيرة، كنت أقضي فترات طويلة وحدي. كان بيتنا يقع مباشرة على أطراف غابة، ليس بعيدًا عن هنا إطلاقًا. كنت أهاب النباتات، والظلام، وكل شيء ينمو هناك ويُصدر صوتًا. لذا بدأت أتعلم أسماء النباتات، وأبحث حتى أعرف كل شيء عنها. والآن، أصبحت أتفاهم معها جيدًا. من الأسهل أن تكون وحدك، إذا كنت على تفاهم مع الطبيعة.

قال فِن:

- لكنكِ لست وحدك.

هزت مانو كتفيها، وأعربت عن رغبتها في الانطلاق. سألها فِن:

- أين كان ذلك؟ أعني البيت. أين كبرتِ؟ ولماذا قضيت أوقاتًا كثيرة وحدك؟

- أنا الآن هنا، معك. لا أحب أن ينقلني شخص بأسئلته إلى زمن لم يعد له وجود. دعنا نمشي، ستمطر قريبًا.

أغلق فِن حزامه، ونهض. كان قلبه يخفق، ورأسه يتوهج. لا يتخيل أنه يقدر على الحياة يومًا بعد الآن من غير مانو.

هنري

من هنا، من أعلى المنحدر، بدت المدينة الصغيرة كأنها تخلو من بشر مثله. لا أحد بلا مأوى وبلا صندوق بريد، وبلا حديقة جميلة أمام بيته أو على الأقل حافة أمام النافذة يضع عليها زهور الجرانيوم وأعشاب الثوم المعمر. ضغط هنري على الصحيفة الملفوفة في يده اليمنى، وأسرع الخطى. في البحر الأسود، وبعد أمطار تشبه أمطار الطوفان، انجرفت مع التيار المالح ٢٥٠ طنًّا من البندق، في كابُل لقي خمسة وخمسون شخصًا مصرعهم في عملية انتحارية، وبالقرب من هنا، في فرايبورج، بدأ المعرض السنوي لمربي الأرانب. أما نهار هنري فقد ظل يخلو من الأحداث تقريبًا. راح يتحسس جيبَي بنطلونه بحثًا عن بذور عباد الشمس، ثم رفع يدًا ممتلئة بها. عندما رجها في قبضة يده المكورة أحدثت خشخشة خافتة. حتى طيور السمامة هدأت الآن، وكانت حتى الغسق تحوم حول سقف محطة السكك الحديدية. كانت إستر تقول دائمًا: «يا لها من طيور مرحة!». وكان هنري يجد صوت الطيور هستيريًّا. يشبه قليلًا ضجيج مرتادي الحفلات الذين يترنحون في نهاية الأسبوع في شوارع الطرف الغربي من المدينة، وهم يزأرون ويهللون، كأنهم يؤكدون لأنفسهم أنهم يستمتعون بوقتهم وأن هذه الليلة هي مغامرة حياتهم، وأنها ستحولهم إلى الأبد إلى بشر أحياء، خبراء بالتفاهة ومتفاخرين بذنوبهم المعلنة. وصل هنري إلى حظيرة الدجاج، وتأكد من أنه غير مراقَب. كان السكون سائدًا إلى حد سمح له بسماع صراصير الليل وتكات السياج

الكهربائي. تساءل عما تفعله صراصير الليل طيلة النهار، وما إذا كانت صرصرتها متعبة بالنسبة إليها. هل للصراصير مأوى؟ وهل منها صراصير لا تستطيع العودة إلى البيت؟ راقب الدجاجة البيضاء التي كانت أول مَن اقترب من السياج، وأومأ لها.

همس:

- أهلًا يا جميلتي.

برأس مائل تطلعت الدجاجة إليه ناظرة إلى أعلى، إلى القبضة التي تخشخش فيها الحبوب. عندما ترمش، يرتفع جفناها السفليان إلى أن تنغلق العينان، وليس العكس. وجد هنري ذلك أمرًا مرهقًا. حاول برهة أن يقلد الدجاجة، حاول أن يرفع الجفن السفلي ليغطي المقلة، لكنه فشل. فتح قبضة يده وترك بعض البذور تهبط في الحظيرة. التقطتها الدجاجة متلهفة، ثم نظرت إليه ثانية، متفحصة، وكأنها تقول له: «أليس لديك شيء أفضل من هذا لتفعله؟».

عندما كان لا يزال يعيش مع إستر على الأطراف الخضراء لفرايبورج، جاءت إليهما دجاجة أحد الجيران. كانت تبدو مثل هذه تمامًا، بيضاء الريش وذات نظرة مستريبة. عبر فتحة في السياج كانت تأتي إلى حديقتهما تتبختر بمجرد أن تسمع أصواتًا. في صباح الأحد عندما كان يتمدد مع إستر على فروة الخروف تحت شجرة الجوز ويقرأ لها من الصحيفة، كانت الدجاجة ترقد على العشب، مسترخية مثل قطة، ثم تغلق عينيها، من أسفل إلى أعلى. بمجرد توقف هنري عن القراءة، كانت تفتح عينيها، وتميل برأسها، ولا تخفضه في سلام إلا عندما يعاود القراءة. وضعت إستر تحت درج الحديقة عشًّا صغيرًا من القش وبيضة خشبية، وقالت:

- هكذا تعرف الدجاجة أين تضع بيضها.

وبالفعل، بعد أقل من أسبوع وجدا أول بيضة، بلون أخضر شاحب ودافئة مثل الكف. حتى ذلك اليوم لم يكن هنري يعرف أن هناك أيضًا بيضًا أخضر.

والآن، يسرق بين الحين والآخر بيضة من هنا، عندما يذهب لجمع أعشابه التي يستهلكها طوال الأسبوع، لم يكن يفعل ذلك كثيرًا، فقط مرة أو مرتين في الشهر، بيضة تعزية خضراء.

من خلفه علا صفير الإشارة التحذيرية عند معبر السكك الحديدية، ودخل قطار الضواحي محطة تالباخ. استدار هنري وثبت نظره على ميناء ساعة المحطة، وعلى عقرب الثواني الذي راح يقترب من الدقيقة الكاملة. كان هذا يمنحه شعورًا طيبًا، هذه اللحظة عندما تولد دقيقة جديدة، دقيقة أخرى اجتازها. في السابق كان يتمنى دائمًا أن يكون لديه مزيد من الوقت. عندما يمتص قماش القميص النظيف عرقه تحت إبطيه خلال صعوده الدرج. عندما يسقط منه تلفونه المحمول أثناء التحدث، في صلصة الطماطم أو في المرحاض. عندما يعود إلى البيت ويجد إستر راقدة في الفراش وظهرها له، بعيدة تمامًا في أحد أحلامها، بعد يوم لم يرَ فيه أحدهما الآخر. كتفا إستر النائمتان. كم يفتقد كتفيها العريضتين. نعم، كان يظن أن كل شيء سيتحسن لو كان لديه مزيد من الوقت، وقت لا يفعل فيه شيئًا، وقت يهدره. وقت من غير إستر، نعم، حتى هذا. في مكتب شؤون المواطنين الخاص بالحي راح يرسم على اللوح الزجاجي للمائدة دوائر صغيرة بأصابعه التي أكل بها فستقًا، دائرة بعد أخرى، دوائر صغيرة منبعجة بأصابعه الدهنية، من اليسار إلى اليمين، في صف، ثم صفين، لم يكفِ الوقت قَطُّ لأكثر من ذلك، قبل أن يرن التلفون مرة أخرى، وقبل أن ينهمك في تنظيف المائدة مستخدمًا سائل تنظيف الزجاج. كان يتمنى دائمًا أن يملأ اللوح الزجاجي كله بالدوائر، من أسفل إلى أعلى. كان يتشوق إلى الملل، هذا الشعور الذي لم يعد يعرفه سوى من ذكرياته عن المدرسة، أيام بلا تاريخ واسم. مر وقت طويل جدًّا على آخر مرة أكل فيها فستقًا. هل سيكون بيض الدجاجات أكثر اخضرارًا إذا أطعمها فستقًا؟ تناول هنري دفتر ملاحظاته الأخضر من جيب بنطلونه وعَقِب القلم الرصاص

الذي أخذه من فندق نزل فيه مرةً قبل سنوات خلال رحلة عمل. لم يتبقَّ سوى ثلاثة حروف على ظهر القلم، هي «فند». وجَّه الورق ناحية عمود الإنارة. كتب:

ما المكسرات المفضلة لديك؟ وهل هناك شخص يعرف ذلك؟ إذا كانت الإجابة بنعم: هل هذا الشخص معك؟ وإذا كانت الإجابة بلا: لماذا؟

قبعت الدجاجة ورمشت بعينيها، ثم أغلقتهما. قبع هنري كذلك على الحشائش.

قال:

ما رأيك، هل الأمر مؤلم جدًّا عندما يلقي المرء بنفسه أمام قطار الضواحي؟

فتحت الدجاجة عينيها، وأمالت رأسها جانبًا. «هل أنت جاد؟»، هذا ما قالته بنظرتها، ثم وقفت وسارت متأرجحة، عائدة إلى الحظيرة التي جاءت منها.

سمع «طش»، عندما ألقى ببراعم لسان الحَمَل السهمي في الزبدة الساخنة، وتصاعدت إلى أنفه رائحة الفطر المقلي الرائعة. في هذا الوقت كان الهدوء شاملًا في المتنزه، رجل الأمن كان قد أغلق أبواب الحديقة. هذه واحدة من القواعد الجديدة: بعد العاشرة والنصف لم يعد مسموحًا بدخول المتنزه. طُبقت هذه القاعدة بعد وضع مقاعد جديدة، صُممت حتى لا يستطيع أحد النوم عليها. لكنهم نسَوا أن الناس، وليس فقط المشردون، لا يشعرون بالراحة في الأماكن غير اللطيفة. يحب الناس عمومًا أن يجلسوا في ظل الأشجار على مقاعد مستوية، بعيدًا عن ضجيج الطريق. ومن يُفزِع المشردين، قال هنري لنفسه، يُفزِع شيئًا فشيئًا الآخرين أيضًا، بمقاعد من الحديد الصلب، وجزر من الخرسانة، يصممون المكان ليصبح قفرًا موحشًا. لكنه احتال على رجل الأمن. اختبأ

في مكان مجوف داخل شجيرات البندق الكثيفة، كأنه في فيلم سيئ.
ابتسم هنري، وقلل شعلة موقد التخييم بعض الشيء، ثم مد يده باحثًا في أكياسه البلاستيكية، وسحب كوب زبادي مغسولًا، وفيه خلط زهرة الهندباء البرية الطازجة بالحماض البستاني والزيت والخل من الأكياس البلاستيكية الصغيرة التي أخذها معه من محل المأكولات السريعة في ميدان السوق. ووضع فوقها شيئًا من رشاشتي الملح والفلفل اللتين أهدته إياهما روزفيتا. سيمر عليها غدًا، غدًا هو يوم كعكة الشوكولاتة، وهي في الغالب تعطيه قطعة، وأحيانًا أيضًا بعض الزبدة أو الجبن الفرنسي. كان يحصل دائمًا على قهوة، وكان بمقدوره أن يحصل عليها اليوم أيضًا، لكنه لم يرد أن يثقل عليها ويستغل كرمها. تعلَّم هنري أن يُظهر احتياجه أمام الآخرين بجرعات محسوبة جيدًا، حتى تبدو لهم مساعدتهم عملًا خيرًا من أجل أنفسهم، لأنها مجرد تنويع، وليست عادة. معظم الأشياء التي يفعلها الناس تعودًا - وهذا مما تعلمه هنري أيضًا في سنواته في الشارع - ينفرون منها بعد فترة ما. الخوف من التغيير يجعل العادات مع الوقت واجبًا. لكن معظم الناس يرحبون بالتنويعات، وهي الشقيقات الصغرى للتغيير. ولهذا كان هنري يدفع بين الحين والآخر قهوته عندما يذهب إلى روزفيتا، ومنذ فترة طويلة لم يعد يظهر هناك في كل يوم من أيام كعكة الشوكولاتة. قلَّب هنري الأكل مرة أخرى وأغلق عينيه. كان يحب الظلمة الطازجة وهي تسحب الألوان ببطء من الأشياء، الأصوات التي تتحرك عائدة من مركز المدينة إلى البيوت، المرور الذي يهدأ نبضه، لا عيون تشفق عليه، لا أيادي مرفوعة أمام الأفواه يتهامسون خلفها بشأنه، لا حملقة مباشرة أو تكهنات بشأن حكايته، ليس إلا الانطفاء الوديع ليوم آخر استطاع أن يجتازه بسلام. كان الظلام يساوي بينه وبين الآخرين في المدينة، ويمنحه الخصوصية التي يفتقدها أثناء النهار. سمع خشخشة من شجيرات الفُرسيتية، عالية ومستمرة، لا يمكن أن يكون هذا طائرًا، ربما

ثعلب، لكنه ليس مرنًا مرونة كبيرة. بحث هنري عن كشاف الجيب، ثم أنار ما بين الغصون. مد لوكاس النحيل رأسه من بين الشجيرات، وزحف خارجًا ومعه كيس النوم، ثم جلس وفرك وجهه. انتهى الهدوء الآن. لقد بذل جهدًا فائقًا حتى يجد مكانًا ينام فيه وحده، وكان ذلك صعبًا بما فيه الكفاية. حتى إن كان المرء يقتسم كل شيء في الشارع - آخر جرعة نبيذ، البطاقة اليومية للباص، آخر سيجارة - فإنه لا يقتسم سر مكان نومه مع أحد، فلا أحد يهتم بالأخلاق عندما يكون متعبًا، وأماكن النوم التي يمكن احتمالها نادرة. والخوف منتشر منذ أن صبوا بنزينًا وأشعلوه في مشرد نائم على أحد مقاعد الحدائق في فرايبورج. لا بد أن لوكاس النحيل قد راقبه وتتبعه، هذا هو التفسير الوحيد في نظر هنري. منذ أيام وهو يحوم حوله، فهو جديد في المدينة. لم يكن هنري ليسمح لشخص آخر بأن يفعل ذلك، لكن لوكاس النحيل يكاد يكون طفلًا، لا يتعدى التاسعة عشرة، وهو العمر الذي سيبلغه ابن هنري غدًا. لم تكد لحيته تنبت، ويداه دائمًا نظيفتان، شعره الأشقر مجدول في ضفيرة تتأرجح على كتفيه. لا يشرب الخمر، ويدخن سيجارة فحسب بين الحين والآخر، وأحيانًا على عدة مراحل حتى يطيل استمتاعه بها. مَن يعلم، هكذا قال هنري لنفسه، ربما يكون قد أعطى لوكاس لذلك الحق في أن يزعجه.

- أيها المعلم، ماذا تفعل إذا رأيت عينًا تنظر إليك في الصحراء؟

هكذا قال لوكاس النحيل بصوت ناعس وهو يفتح علبة من مشروب الطاقة، ثم أضاف:

- هيا، قل لي، عين في الصحراء، ماذا تفعل؟

أبعد هنري لسان الحَمَل السهمي عن النار، وردَّ:

- لا أعرف، لم يحدث لي أن سافرت بعيدًا هكذا.

- تذهب وتشرب منها بالطبع!

ضحك لوكاس النحيل بصبيانية قبل أن يضيف:

- تذهب وتشرب من العين! نكتة جيدة، أليس كذلك؟

بحث هنري عن الزجاجة البلاستيكية التي ملأها من النافورة، ثم وضع الماء ليغلي.

سأله لوكاس النحيل مشيرًا إلى مشروب الطاقة:

- أتريد واحدة أيضًا؟

هز هنري رأسه قائلًا:

- أعد شراب الزيزفون الساخن. المرء ينام بعده أفضل.

ضحك لوكاس النحيل ضحكته الصبيانية ثانية، وقال:

- هذا صحي جدًّا، هذا الشيء. بأمانة. هنا، بعشبة الجوارانا والزنجبيل. «Ginger». «Gingembre». أعرف الكلمة بكل اللغات، أنت مندهش، هه؟ «Zenzero»! «Ecco, Italiano»!

راح يتراقص حول كيس النوم، ثم استدار على قدم واحدة عدة مرات وهو يدندن:

- «Ginger, gingembre, zenzero-oh-ooooh»...

ضرب هنري نفسه بيده المفرودة على خده. هذا البعوض اللعين، لقد بدأ موسمه من جديد. وبجانبه لوكاس الذي يحوم حوله ويطن مثل بعوضة عملاقة مفرطة النشاط. «فلاب». هبط لوكاس بعينين مفتوحتين على اتساعهما وتكور أمامه على الحشائش، مادًّا سبابته في الهواء. قال:

- «إمبير». ويُسمى «إنجفير» بالروسية يا معلم. هذا شيء لا بد أن أعرفه، فصديقتي روسية، بأمانة، اسمها ميراندا، صديقتي، وعندما تعود من ماليبو، فلا بد أن تنزلق الكلمات الروسية بسلاسة من فمي.

رفع هنري يده، وأمام شفتيه أتى بحركة دوران المفتاح. فقال لوكاس النحيل:

- طيب، طيب يا معلم، فهمت. أذناك مليئتان، وعندما تمتلئ أذناك وأواصل أنا ثرثرتي، فإنك تشعر بالألم فيهما، فهمت. بأمانة.

هز العلبة الصفيحية الفارغة، ثم وضعها على شفتيه مرة أخرى، ولحس الفتحة، ثم ألقى بالعلبة على الحشائش. أشار إلى مقلاة قائلًا:

– هل تعطيني شيئًا من هذا المطبوخ؟ رائحته لذيذة يا معلم، أنت ذواقة حقيقي، أعرف ذلك.

قال هنري متذمرًا:

– بشرط.

قال لوكاس النحيل:

– أن أرمي العلبة في السلة، وأسد فمي. فهمت.

أومأ هنري. سحب ربطة مريمية مجففة من أحد أكياس البلاستيك، وقال:

– هنا، أشعل النار في بعض هذه الغصون، سيبعد ذلك البعوض عنا.

تناول لوكاس النحيل المريمية ومد غصنين إلى لهب موقد التخييم. ثم نهض، وحرك الغصنين حول موقد هنري بحركات تشبه حركات الكاراتيه. غمغم على إيقاع حركاته:

– «هاياااا، فواااا»...

لكنه حاول أن يجعل صوته منخفضًا.

أثناء الأكل أيضًا ظل لوكاس النحيل هادئًا، وبأصابعه دفع في فمه ببرعم وراء الآخر من براعم لسان الحمل السهمي، وفي كل مرة كان يومئ، على ما يبدو أعجبه مذاقها. لم يمس السلطة، يبدو أنها أثارت الريبة لديه. لكنه بعد الأكل سحب من حقيبة ظهره علبة من الصفيح، وفيها قطعتان من النوجة. قال:

– تفضل يا معلم. هذه هي حلواي المفضلة، لم أعد أحصل عليها كثيرًا، لذلك ادخرتها طويلًا. هدية من صديقتي، من ميراندا. ولكنها سوف تحضر لي بالتأكيد شيئًا من ماليبو، ربما شيئًا بالأناناس، شيئًا غرائبيًا.

وضع قطعة من النوجة في فمه، وابتلعها، تقريبًا من دون مضغ، وخلال

ذلك راح يؤرجح جذعه إلى الأمام وإلى الوراء. تناول هنري القطعة الثانية وفتح غلاف السيلوفان. قال لوكاس النحيل رافعًا سبابته:

- شرط واحد يا معلم، شرط واحد.

قال هنري:

- يجب أن أقرأ عليك شيئًا من الدفتر الأخضر. كما توقعت.

ضحك لوكاس النحيل بصبيانية وقال:

- تمامًا، يا معلم، أريد أن أسمع شيئًا من أسئلتك، لكن من الأسئلة الجديدة. وعليك، طبعًا، أن تجيب أيضًا.

باجتهاد راح لوكاس النحيل بعد الأكل يساعده في غسيل الأطباق في النافورة، وإعادة كل شيء بنظام إلى أكياس هنري البلاستيكية. بعد ذلك دخل في كيس نومه، وأسند رأسه وتطلع إلى هنري، مترقبًا ببهجة طفولية. تناول هنري دفتر ملاحظاته الأخضر، وراح يقلب فيه وصولًا إلى آخر الصفحات المكتوبة.

- ما لا أفهمه يا معلم، لماذا يشتري الناس أسئلتك؟ لقد رأيتهم بالأمس، إنهم يتخاطفون أسئلتك، بأمانة. لماذا؟

فرد هنري الثنية أعلى الصفحة.

- للسبب نفسه الذي من أجله تحب أنت الاستماع إليها. عندما يُسأل إنسان، فإنه يظهر دائمًا في الإجابة. ونحن البشر نحب ذلك. أن نظهر في مكان ما. وأن نجد أنفسنا في مكان ما.

قال لوكاس النحيل:

- لم أعد أظهر كثيرًا مثل السابق. يعني، لم تعد هناك أماكن كثيرة أظهر فيها. لكن هذا صحيح، يا معلم، عندك حق. والآن اسأل سؤالًا. من فضلك.

تنحنح هنري، وقال:

- متى بكيت آخر مرة؟ ولماذا؟

نفخ لوكاس النحيل الهواء من فمه:

- بأمانة، يا معلم. هل يمكن أن تسألني سؤالًا آخر؟

هز هنري رأسه نافيًا:

- أنت أردت واحدًا من الأسئلة الجديدة.

- طيب.

استدار لوكاس مستلقيًا على ظهره، وشبك ذراعيه أمام صدره، ثم قال:

- بأمانة، يا معلم، أووف، أنت فعلًا تريد معرفة كل شيء. كان ذلك من تسعة أسابيع؛ فترة ليست بعيدة. كنت أجلس في غرفة المعيشة وأتفرج عليهم وهم يلصقون شرائط لاصقة في كل مكان، على كل شيء، بأمانة، على أصيص الزرع الياباني، على وسادة الكنبة، على الأباجورة الطويلة التي ورثتها عن جدتي، ليس على قطتي، لكنهم أخذوها على الرغم من ذلك، وأخذوا أيضًا طعام القطط. والكلارينيت الذي أملكه أخذوه معهم، وأنا، دفعني ثلاثتهم من الشقة حتى الدرج وأنا جالس على كرسي مكتب. عندئذ بكيت. لأنهم لم يتركوا لي سوى الفواتير، هذه الفواتير اللعينة الخاصة بفكي اللعين المتقيح، فواتير كان على شركة تأمين ما أن تدفعها، بأمانة، لكن ذلك لم يحدث، لم يدفع أحد. «حالة خاصة لم يعمل حسابها أحد»، هكذا قالوا لي في المصلحة الحكومية، ببساطة حالة خاصة. والآن لديَّ فك ممتاز ورائع، مصنوع من أفضل الخامات، لكن المرء لا يستطيع أن يسكن في الفك، يا معلم، هذا هو الوضع.

سحب لوكاس النحيل الهواء عبر أنفه، ومسح عينيه بطرف كيس النوم.

- وأنت، أيها المعلم، ماذا عنك؟

أشعل هنري غصنين آخرين من المريمية ووضعهما على حافة النافورة. قال:

- عندما طردني ابني الصبي. حدث ذلك منذ خمس سنوات، في عيد ميلاده الرابع عشر. شتمني، وكان لديه حق في كل ما قاله. دفعني

بعيدًا عن الحديقة ثم أغلق الباب. باب الحديقة الصغير السخيف هذا، الذي كان بإمكاني ببساطة القفز فوقه، الذي يصل بالكاد إلى خصري والذي طليناه مرةً معًا عندما كان لا يزال في المدرسة الابتدائية. رأيت أنه خائف مني. رأيتُ ذلك في عينيه. تخيل، ابني خائف مني. عندئذ بكيت. لكن بعد أن أعطيته ظهري، عندئذ بكيت.

محرَجًا، وضع لوكاس العلبة الفارغة على شفتيه. قال:

- بأمانة يا معلم، لقد أنهكت أعصابي. والآن بسرعة السؤال التالي، فأنا لا أشعر بالراحة مطلقًا.

أومأ هنري وقال:

- موافق. ماذا يعزيك؟

رفع لوكاس النحيل العلبة مثل الناي على فمه وراح ينفخ فيها، فسُمعت صفارة خافتة. قال:

- صعب، فعلًا صعب. لا بد أن أفكر أولًا.

راح يفكر، نافخًا مرة بعد مرة في العلبة، ثم قال:

- بلى، أعرف، أعرف شيئًا: لا شيء يبقى على حاله. لا شيء يستمر إلى الأبد. بأمانة، في كل يوم قد يتغير فجأة شيء، ولا يعود شيء كالسابق، وربما يأتي ذلك لي بشيء جيد فعلًا. كفتة مقلية مع بطاطس مهروسة، أو شقة خاصة بي، أو شيء من هذا القبيل. امرأة جميلة، جميلة بحق، تقضي الليل عندي لأنها ترغب في ذلك. شيء كهذا. وأنت، يا معلم، ماذا عنك؟

أغلق هنري دفتر الملاحظات قائلًا:

- كفى اليوم، دعنا نسترح قليلًا في هدوء الليل. الغد سيكون يومًا طويلًا.

جلس لوكاس النحيل وقال:

- هذا ظلم، يا معلم، بأمانة. أنا أعري روحي هنا، وأنت تريد ببساطة أن تنام. لم نتفق على ذلك.

شرع هنري ينفخ المرتبة الهوائية بالمنفاخ الذي يشبه الدواسة. وقال:

- طيب. أنني أستطيع تحمل الوضع، هذا يعزيني. أنني قوي بما يكفي لتحمل كل شيء هنا.

وأشار على أكياسه والمرتبة.

لم يقل لوكاس النحيل شيئًا. كان يحدق فيه مصدومًا فحسب، ثم استدار في كيس النوم وأعطاه ظهره. على ما يبدو لم تكن هذه هي الإجابة التي ينتظرها.

فيلكس

كانت مونيك في المطبخ عندما عاد إلى المنزل. كانت تجلس إلى المائدة بملابسها الداخلية، وقد ربطت شعرها الأحمر كيفما اتفق، وأغلقت عينيها، ووضعت يدًا على بطنها المستدير، وباليد الأخرى كانت تدق على المائدة على إيقاع أغنية فرنسية مذاعة في الراديو الصغير الموضوع على «البوفيه». كانت مونيك قد فتحت النوافذ، ففاحت في المكان رائحة السمك المقلي والغسيل المعلق في الحديقة المجاورة. ضوء عمود الإنارة لوَّن بلاط الأرضية في بعض المواضع بالأصفر. في الخارج كان صوت السيارات المارة مسموعًا، والصوت نافد الصبر الصادر عن التروس عندما تتحرك السيارات بعد أن تصبح الإشارة خضراء. وضع فيلكس حقيبة العمل على الأرض. عندئذ لاحظت مونيك وجوده، ففتحت عينيها، وقالت بصوت خافت وهي تداعب بطنها:

- إنه يحب الموسيقى، ويتحرك عليها، لأول مرة يتحرك، هنا، المس!

مدت يدها نحوه. ابتلع فيلكس ريقه. شيء ما يضيق الخناق عليه. نظر إلى مونيك في جلستها، بوجهها المشرق، وهي تربت على بطنها المستدير الجميل، ولم يتحرك من مكانه. وأخيرًا قال وهو يتحرك إلى الحوض:

- يجب أن أغسل يدَي أولًا.

قالت مونيك:

- يوجد دم على قميصك. هل كنت في مهمة صعبة؟

أشاح فيلكس بيده:

- لا، ماشي الحال. الأمر يبدو أسوأ مما كان.

أشعل الضوء، صوت «كليك»، ثم أزيز، وأصدرت ماسورة مصباح النيون ضوءًا مرتعشًا، ثم أضاءت، سعادة صغيرة سهلة. سار إلى الثلاجة، وتناول علبة من مشروب البرتقال الغازي، ووضعها على قفاه، ثم أغلق عينيه. لم يكن يرغب في أي شيء خلال الساعات المقبلة، غير أن يقف هكذا بعينين مغلقتين، عند النافذة المفتوحة، وفي قفاه علبة مشروب غازي باردة.

- ألم تعد تريد حتى أن تنظر في وجهي؟

فتح فيلكس عينيه، لم تعد العلبة تُبرِّد، اعتاد جلده على درجة الحرارة. عضت مونيك شفتها السفلية مثلما تفعل دائمًا عندما يضطرب صدرها بشيء. أخذت تنتظر إجابة منه، لكنه لم يستطع أن يجيبها. قالت مونيك:

- هناك شيء يسبب لك الهم، هذا ما أستطيع رؤيته. منذ تلك الدورة التدريبية، دورة علم النفس هذه، وهناك شيء يسبب لك الهم.

فتح فيلكس العلبة فأحدثت صوتًا، وشرب عدة جرعات كبيرة، نظر إلى الحديقة متجاهلًا مونيك، وقال:

- كان ينبغي أن تزهر الفاوانيا منذ وقت طويل، لقد تأخرت كثيرًا هذا العام. إنها مزهرة في متنزه المدينة.

نهضت مونيك وسارت إليه، مسحت على مؤخر رأسه وحاولت أن تتصيد نظرته.

- أم أن الأمر يرجع إلى أنني حامل؟ هل غيرت رأيك؟

هز فيلكس رأسه:

- إنني متعب فحسب. هذا كل شيء.

أراد أن يحتضن مونيك، أن يشعر بها، ويشعر ببشرتها البيضاء اللينة، وشعرها الخشن الملتف. بدلًا من أن يفعل ذلك، انحنى وتناول علبة بها مناديل لتنظيف الغبار من الدرج تحت الثلاجة. ثم شرع يمسح الغبار عن

حافة النافذة، وطاولة المطبخ، والحواف العليا البارزة للأدراج، والمقابض المصنوعة من الصلب الذي لا يصدأ. قال:

- هل تعرفين أن غبار المنازل يتكون بنسبة ٩٠ في المائة من قشور البشرة لدى الناس؟

أحكمت مونيك الربطة حول شعرها، وقالت:

- الأمر غير مستعجل. يمكننا أن نتحدث أيضًا فيما بعد.

ظل عطرها عالقًا في هواء المطبخ، شبكة دقيقة أمسكت بأفكار فيلكس، شاء أم أبى. بطن مونيك، الطفل الذي يتحرك داخله. بيت قديم على أطراف الغابة، غبار يتراقص في الشمس، وسادة صفراء تطير في الهواء، ضحكة ذات صوت أجش، ثم سعال، هذا السعال عالي الصوت. أفرغ فيلكس في جوفه المشروب الغازي، ثم هرس العلبة بيده. أومضت ماسورة النيون فوق الحوض، فأطفأها فيلكس. فتح الثلاجة وتناول علبة جديدة من المشروب الغازي. لم يعد يعرف أين وضع العلبة التي هرسها بيده. ما زالت الطلقة تطن في أذنيه. أطفأ الراديو. كان متعبًا، لكن في الفراش لا تنتظره سوى الأفكار في رأسه، البيت، الغبار، السعال؛ ولم يكن متعبًا بما فيه الكفاية حتى يتجاهل كل هذا. سار إلى النافذة، وألقى نظرة على الشارع في الأسفل، ومسحت نظرته البيوت. كان عليه أن يدخل عديدًا منها في مهام رسمية، وكان يعرف كيف تبدو خلف الواجهة، والرائحة التي تفوح في السلم. رأى مدينة تالباخ ممتدة أمامه مثل صندوق عميق، لا يُسبَر غوره، خليط من الغضب والضغائن المتراكمة، العديد من البالغين العاجزين، وفي كنفهم ينمو الطفل الجريح الذي كانوه يومًا، والذي شق طريقه عندما أتاح له التعب أو الإنهاك ذلك. بضع دقائق غطى القمرُ الأسطحَ بوشاح فضي، وجعل المنظر لطيفًا، بل جعل المرء لا يكاد يتخيل أن في مكان ما يهم شخص الآن بالضرب أو بالسباب. تزايد عدد النوافذ التي انطفأ الضوء خلفها. ثبَّت فيلكس نظره على الباب الزجاجي الانزلاقي

للمحل الصغير الواقع أمامه، والذي يفتح لساعة متأخرة. عندما يضيّق من عينيه، كان بإمكانه رؤية التخفيضات بجانب الباب: فراولة، وعجينة تورتة جاهزة، وبجانبها كريمة مخفوقة في بخاخة من الصفيح، عشرين في المائة خصمًا على كل شيء. كان بمقدوره رؤية يدَي الصرَّاف، وبقية النقود التي يُخرجها من الخزينة. فتاة صغيرة تملأ عربة التسوق الصغيرة التي تدفعها بـ«بيض المفاجآت» المصنوع من الشوكولاتة، من دون أن يلاحظها أحد. هذا كان جميلًا في رأيه. أبواب شفافة، جدران شفافة، غرف يستطيع المرء النظر عبر جدرانها. قال فيلكس لنفسه: لو كان كل بيت شفافًا، كل جدار، كل باب، لو كان بمقدور كل شخص أن يراقب الجميع أثناء كل شيء؛ الرجال الذين يبكون في مرأب السيارات الخاص بهم، البنات اللائي يُدخلن أصابعهن المطلية حديثًا في أنوفهن، الفتيان المنهمكين في ألعاب الكمبيوتر، والذين يستعرضون عضلات العضد أمام مرآة الحمَّام، الناس الذين يتفرجون على التلفزيون ساعات، والذين يستمنون، وفي منتصف الليل يقرفصون أمام الثلاجة ويقضمون من الجبن من دون تقطيع، ويغتابون الأصدقاء، ويحكُّون طبقة الجلد الصلبة عند الكعب، أو يبحثون عن العيوب في أجسامهم، لو كان كل ذلك مرئيًا، هكذا فكر فيلكس، لربما شعر الجميع بأنهم أقل سوءًا مما يظنون بمقدار قليل، ولربما خفَّ قليلًا هجومهم على الآخرين انطلاقًا من ضعف ثقتهم في أنفسهم. انحنى فيلكس وأمسك بصندوق العدة تحت الحوض، ووضعه على مائدة المطبخ. خلع قميصه وألقاه على مسند الكرسي، شعر لحظةً ببرودة لطيفة. جال ببصره في المطبخ وهو يتنهد. العصَّارة لا تصلح. بسيطة أكثر من اللازم. ماكينة القهوة سيحتاج إليها فيما بعد، ولم تكن له رغبة في استخدام المكنسة الكهربائية، وفرشاة الأسنان الإلكترونية كان قد فكها مؤخرًا. أخذ يستعرض في ذهنه الأجهزة في الحمَّام جهازًا بعد آخر، ثم أومأ. كيف لم يفكر في ذلك من قبل؟ كان مجفف شعر

مونيك معلقًا على نحو لا يمكن تجاهله على حامل المناشف بجانب الحوض، والسلك ملفوف لفًّا معقدًا حول الحامل المعدني. صباحًا بعد صباح كانت ركبة فيلكس اليمنى تصطدم برأس المجفف الذي يسقط عندئذ على البلاط محدثًا ضجة، ولا يمكن تركيبه ثانية في المجفف إلا بصعوبة. وضع المجفف تحت ذراعه، وقبل أن يبلغ باب القبو بقليل سقط رأس المجفف وتدحرج تحت خزانة أدوات التنظيف. تركه فيلكس على الأرض. في القبو، بالأسفل، كانت البرودة لطيفة، حتى المائدة المصنوعة من الصاج كانت باردة عندما فرش عدته عليها. بحث في صندوق العدة ووضع المصباح الصغير على جبينه، ثم التقط المفك المناسب وشرع في فك مسامير المجفف، في الأسفل عند بداية السلك. بعض اللفات من المفك، وها هو الجوف الإلكتروني للمجفف يتمدد أمامه بقبح، لا حول له ولا قوة. أزال الجزء الحامي للكابل، ثم أدار اللوحة الإلكترونية التي لُحمَت فيها أسلاك الكابل، ثم تناول جهاز اللحام وبدأ في تسخين المعدن، لفصل الكابل. بحذر فصل السلك الأول من اللوح الدافئ. عليه أن يركز انتباهه حتى لا يثني سلك. أمر شائك. سلك بعد آخر، وضع جهاز اللحام، التليين، ثم الفصل، وضع كل شيء، بالترتيب، واحدًا تلو الآخر، لا يجوز أن يضيع شيء، كل شيء له منطقه، وإذا تصرف بشكل صحيح، ولم يُفسد شيئًا، لن يلاحظ أحد أدنى شيء على المجفف.

كان على وشك أن يلحم الأسلاك مرة أخرى عندما سمع مونيك تهبط على السلم. كانت ترتدي قميص النوم المزخرف بالأناناس الأزرق، بطنها الكبير جعل ثمرة الأناناس طويلة. سألها فيلكس:

– كم الساعة الآن؟

أجابت مونيك:

– بعد منتصف الليل بقليل.

أومأ فيلكس، ثم انصرف ثانية إلى مكان اللحام.

- أوشكت على الانتهاء.

كان معدن اللوح الإلكتروني قد برد في تلك الأثناء، عليه أن يستخدم جهاز اللحام مرة ثانية. قالت مونيك:

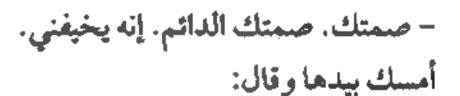
- أنت بعيد تمامًا.

لم يعرف فيلكس ماذا يقول، فتناول علبة المشروب الغازي الفارغة من المائدة، وأدارها في يده، ثم استدار إلى مونيك، فقالت له:

- هل يمكنك ربما أن تطفئ المصباح على جبهتك؟ الضوء يعمي البصر.

مرتبكًا، فك فيلكس الشريط اللاصق في مؤخر الرأس، ونزع المصباح. قالت مونيك:

- صمتك. صمتك الدائم. إنه يخيفني.



أمسك بيدها وقال:

- لا يجب أن تشعري بذلك.

أحكمت مونيك قبضتها على يده. قالت:

- أعرف أن عملك ليس سهلًا، ولا يمكن أن تخفيه ببساطة بين الخبز والجبن على المائدة. أعلم أنه من الصعب عليك أن تجري هذه النقلة عندما تعود إلى البيت. لكن دعني على الأقل أحاول أن أفهمك، دعني أحاول قليلًا، من أجلك...

لم يدعها فيلكس تكمل كلامها. لم تعد لديه قدرة على ضبط النفس. كان منهكًا. ويشعر بحرارة الطقس. ولم يكن يريد التحدث. وفجأة سحب يده، قائلًا:

- أتريدين أن تفهميني؟ يا مونيك، أنت تعيشين في عالم موازٍ يتكون من وسادات حبوب الدُّخن وزيت الخُزامى. لكن هناك مشكلات لا أستطيع أن أبتلعها ببساطة أو أزيلها بالمساج.

اهتز فك مونيك، وامتلأت عيناها بالدموع.

- أهكذا تراني؟

أدرك فيلكس أنه كان قاسيًا. أشعل مصباح الجبين بيده ثم أطفأه، ثم أشعله، وأطفأه ثانية، كأنه يستطيع عبر الزر الصغير تنظيم الحوادث التي تثقل عليه.

بكفيها فردت مونيك قميص النوم حول فخذيها، وقالت:

- إنه عالم واحد. لكنك على ما يبدو قررت أن تجلس هنا فحسب، في هذا المكان المعتم الذي يحتاج فيه المرء إلى مصباح على الجبين.

ثم ارتدَّت على عقبيها.

أمسك فيلكس بذراعها وسحبها إليه. هناك الكثير الذي يود أن يقوله لها، لكن الكلمات تتعثر في فمه لتصبح تحديدًا هذا الصمت العاجز، هذا «اللاتحدث» الذي يُبعد مونيك عنه.

حررت مونيك نفسها منه. قالت:

- أنت توجعني.

أيقظه ضجيج محرك سيارة مونيك عند انطلاقها. استغرق في النوم على مائدة القبو، وفي يده علبة المشروب الغازي الفارغة. أمامه تمددت أحشاء مجفف مونيك، وحيث وضع جهاز اللحام برهنت بقعة داكنة في سطح المائدة على ضعف انتباهه. تجاوزت الساعة التاسعة بقليل، لقد تأخر كثيرًا في النوم، كان يريد في الحقيقة أن يمارس الرياضة قبل أن يذهب إلى نوبته في الحادية عشرة. سيكون الوقت ضيقًا الآن. تمهل في الدُّش وفي الإفطار، أراد أن يتصل بمونيك برأس يقظ، وأن يقول لها إن ما حدث يؤسفه. كان يهم بإعداد فنجان آخر من القهوة عندما اتصل القسم الرئيسي به. دعك فيلكس عينيه، ومع كل كلمة يقولها رئيس العمليات كان يستيقظ أكثر، حتى وإن لم يحتفظ في ذهنه سوى بأهم الشذرات: خطر الانتحار، المتخصصة النفسية لدى الشرطة في دورة تدريبية على بحيرة

بودن، لا موظفين مؤهلين، الاتصالات الأولى عبر دورية الشرطة، الأمر مرشح للتصعيد، المجيء فورًا. أطفأ فيلكس ماكينة القهوة، وجمع الأشياء الضرورية، ثم انطلق. سيتصل بمونيك فيما بعد، في إحدى الاستراحات، عندما تهدأ الأمور. نعم، هكذا سيفعل.

•

في مكان ما بذاكرتها تبرق برهةً صورةُ سيارة خضراء، تُخرِج يدها من نافذتها خلال السير، لا تعرف من يقود السيارة وإلى أين، الهواء فحسب بين أصابعها يَعِدُها بالبعيد، ويوحي بالأرض البراح - هذا هو تقريبًا الشعور الآن عند السقوط، وهذا هو تقريبًا الهواء بين الأصابع والشَّعر، الهواء بلا رائحة وفي كل مكان: تحت الجفنين، تحت اللسان، حول القفص الصدري. ومتى يتوقف هذا الضغط على الضلوع؟ وماذا سيتلو ذلك؟ السماء مربع، قبل أن تغلق العينين، مربع، بعيد.

•

اليوم الأول

تيريز

كان الضوء - الذي ما زال يميل إلى الزرقة - قد بدأ ينتشر قبلها بقليل، وانطفأت مصابيح الإنارة في الشارع واحدًا بعد الآخر عندما خرجت تيريز من باب المحل إلى الرصيف. ما زالت المظلات الواقية من الشمس رطبة من هواء الليل البارد، على القماش الذي يغطي الخضر والفاكهة تكونت تجمعات صغيرة من المياه المتكثفة. فتحت تيريز كلتا المظلتين، ووضعت الغطاء في الفناء الخلفي كي يجف، وأحضرت من المحل طباشير لكتابة الأسعار على اللافتات، وخِرقة مبللة لتلميع الفواكه، ثم أوصلت اللافتة المضيئة الصغيرة فوق الباب بالكهرباء، وبأزيز خافت أضاءت الحروف:

Werner's Grocery

أومضت اللافتة عدة مرات، ثم انطفأ حرف الـ«o» في كلمة «Grocery». انتظرت تيريز، لكن شيئًا لم يحدث. فصلت اللافتة، ثم وصَّلتها، وفصلتها مرة أخرى، ووصَّلتها. تنهدت. لن يحسِّن هذا من مزاج فرنر. هذا إذا لاحظها أساسًا. هذا هو اليوم الثالث والعشرون بعد المائتين الذي لا ينهض فيه صباحًا، اليوم الثالث والعشرون بعد المائتين الذي لا ينزل فيه إلى المحل إلا قرب الظهيرة، سيئ المزاج، بآلام في الظهر من طول الرقدة، ورأس مشوش من برامج التلفزيون، ثم ينهمك في نشاط عصبي. بالأعلى، على مائدة المطبخ استقرت الجرة المصنوعة من المينا المزجج التي ينقصها غطاء، فكان طبق فنجان يحفظ حرارة المشروب الساخن بداخلها، المكوَّن

نصفه من البابونج والنصف الآخر من ثمار وردة المسك، مثلما يحب تمامًا. إذا لم ينزل حتى الظهيرة، فستصعد إليه، وتعد له «توست هاواي»، مثل كل يوم ثلاثاء، عليه جامبون، وجبنة منصهرة، وشريحة من الأناناس المُعلَّب، وقليل من المسطردة على شرائح التوست المضاف إليها زبدة. سيقول عندئذ: «هامبرجر للفقراء»، ويأكل ثلاث شرائح، في السرير إذا كان اليوم سيئًا، وعلى مائدة المطبخ إذا كان اليوم جيدًا. منذ مائتين وثلاثة وعشرين يومًا يزداد حزن فرنر سوءًا. منذ أن طبقا نظام الخدمة الذاتية في المحل، وقللا من المعروض، بضاعة طازجة أقل، وفي المقابل مزيد من الخمور، منذ أن افتُتح السوبرماركت في ميدان السوق، وبعده بشهور مركز التسوق عند المدخل الغربي للمتنزه، منذ أن فقدا تقريبًا زبائنهما المنتظمين، ولم يعد يأتي إليهما إلا الذين نسَوا شيئًا، أو انتهت سجائرهم أثناء الفرجة على التلفزيون، منذ أن بدأ مشروع حياة فرنر الانكماش على نفسه ببطء مثل ورق العنب المعروض خارج المحل. لم يكن فرنر يعرف الأرقام بالضبط. منذ البداية نهضت تيريز بالحسابات، لأنها أتقنتها واعتادت عليها. بعد وفاة أبيها المبكرة كانت تتفقد أمور المزرعة، وتعتني بأمها وأشقائها الستة الأصغر منها، وتتولى تعاقدات التوريد مع الزبائن. منذ شهور تؤجل مصارحة فرنر بإفلاسهما، وبأن إغلاق المحل مسألة وقت فحسب. نجحت على كل حال في بيع السيارة «الإم جي» ذات اللون الأزرق الفاتح من دون أن يلاحظ شيئًا. والآن تتكوم في المخزن صناديق الصابون السائل، والبسكويت المصنوع من الأرز المنفوش، وأدوات إزالة الوبر عن الملابس. بإيجار الجراج الذي ادخرته استطاعت أن تدفع على الأقل المصروفات الإضافية للمحل في نصف العام الفائت.

جلست تيريز على الدكة الخشبية بجانب الخضراوات المعروضة بالخارج، ورفعت نظرها إلى اللافتة الكهربائية. ما زالت تتذكر جيدًا جدًّا ما حدث عندما كلَّف فرنر شركةً بها في رحلة شهر العسل، قبل اثنين وأربعين

عامًا، في نيويورك، في عصر أحد أيام أبريل؛ شركة متخصصة في الأضواء، خلف متنزه «واشنطن سكوير». هبطا من سيارة أجرة وقد احترق أنف كل منهما من الشمس، وكل علة أمتار كانا يسألان عن الطريق بإنجليزية مكسرة. بعد ذلك أكلا السلطعون الطازج في مطعم خلف المتنزه، وشربا مشروبًا غازيًا بطعم الجريب فروت من أكواب بلاستيكية عملاقة. استولت الحماسة على فرنر، وعندما عاد إلى الوطن، ظل أسابيعَ ينتظر البريد كل صباح أمام المحل، ويترقب لحظة استلام اللافتة. وعندما ازدهر المحل، لم يكن يمل من التأكيد على أن ذلك لا بد أنه يعود إلى اللافتة الأمريكية الحديثة. طوال سنوات كانا يوصلان اللافتة بالكهرباء في كل صباح معًا، على نحو احتفالي، ويتذكران معًا للحظة قصيرة تلك الرحلة المثيرة في بلد الحداثة، والسراويل التي تزداد اتساعًا بعد الركبة، ومشاهدة الأفلام من السيارات، وأجهزة التكييف، والفيشار بالكراميل، والشعور بأنهما بعيدان تمامًا عن ضيق الأفق الريفي السائد في القرى الواقعة في عمق الغابة السوداء. ما زالت حتى اليوم تتذكر رائحة المقاعد الجلدية في السيارة المستأجرة، «شيفروليه بل إير بابلتوب»، وطبقة حبوب اللقاح التي كان يجب عليهما إزالتها من على اللوح الزجاجي الأمامي في كل صباح قبل الانطلاق بالسيارة، وغطاء الرأس كتاني اللون الذي اشتراه فرنر لها من متجر في شارع مالبري والذي شعرت بعد ارتدائه بأنها امرأة نيويوركية بحق.

نهضت تيريز ورجعت إلى المحل. بجانب ثلاجة المشروبات كرتونة صغيرة كانت قد طلبتها، وعندما رأتها رقص قلبها. سوف تؤجل فتحها إلى أن تنتهي. فتحت درج الخزينة، وأخرجت سكين قطع صغيرًا. لم يكن عليها أن تضع بضاعة كثيرة على الرفوف اليوم، إذ إنهما لم يبيعا شيئًا تقريبًا بالأمس، باستثناء عدد قليل من الآيس كريم المغلَّف، وبضع علب من السجائر، وعلبة من الواقي الذكري، وزجاجتين من عصير الطماطم. على الرغم من ذلك استلمت

خمس كراتين. لبانًا من ماركة «سترشوك»، وعبوة من الكرات المطاطية التي تبرق من الداخل، وزبادي بالفراولة وآخر بالشكولاتة، وبسكويتًا من الأرز المنفوش، ومناديل ورقية مضافًا إليها ألوفيرا، وأقراصًا معطرة للمرحاض، وجبنًا طازجًا بالأعشاب له صلاحية طويلة. كلها أشياء راكدة. أشياء طلبها فرنر. هذا طالما أحب فعله، في المساء، بعد انتهاء يوم مربح: يتحدث مع جميع الموردين ويترك لهم رسالة تلفونية على المسجل، ثم يشطب البضاعة التي طلبها من الدفتر وهو يتنهد بدلال. لم يطاوعها قلبُها على أن تقول له إن عليه أن يكف عن ذلك. كان يعشق كل ما هو مغلّف في البلاستيك، وما يبدو من الغلاف أنه يأتي من أماكن نائية. بصبر الملائكة كان يستطيع أن يفرز حساء المكرونة الآسيوي الجاهز، وذلك حسب اللون. على منضدة السرير كان هناك دائمًا كيس من ذلك البسكويت الأمريكي الأبيض والأسود الذي لم يكن بمقدورها أن تبتلع قطعة واحدة منه. بالنسبة إلى فرنر كانت كل تلك النكهات الاصطناعية والتغليف الفائض عن الحاجة وسيلة نقل، تُبعده عن ماضيه في المزرعة حيث لم يكن الحليب وحده «خامًا»، بل أيضًا أسلوب التعامل بين الناس.

لم يكن الأمر يحتاج إلى أكثر من نصف ساعة لترتيب البضاعة الجديدة على الأرفف، وكتابة لافتات الأسعار، وتلميع الفاكهة، حتى إن كانت تيريز تتعمد الحركة ببطء. نحو السابعة أخذت تقطف - مبكرًا - الأوراق الذابلة من الخس، وتُبعد ثمرات الفجل والبطاطس اللينة، أما الطماطم فكان عليها التخلص منها كلها، إذ إن العفن تمدد في أسفل الصندوق. ملأت في المحل بخَّاخة بالماء، ثم رشت بها الخس والفجل حتى يظلَّا طازجين على الأقل إلى الغد، إذا حالفها الحظ ولم يكن النهار الوليد حارًّا جدًّا. في السابعة وثلاث دقائق كانت تقف في المطبخ الصغير خلف طاولة البيع، تعد لنفسها قهوة سوداء وبها نفحة من القرفة، وقد وضعت في جيب المئزرة ميزان الطبخ الصغير، وقطعة من البلاستيك الرقيق الشفاف، وسكين القطع. بالخارج

على الذكة الخشبية، وضعت فنجان القهوة، وركزت ميزان الطبخ بجانبها، والكرتونة على ركبتيها، ثم أخرجت الشفرة من سكين القطع، فسمعت «كليك»، وقطعت بالسكين الشريط اللاصق البني العريض. فتحت في البداية غطاء الكرتونة، ثم أزالت طبقة البوليسترين الواقية. تلفتت حولها، لكنها لم تجد أحدًا يراقبها. ليس هناك سوى عدد من المتجولين بكلابهم، وبين الحين والآخر تمر سيارة أو يمر طفل يقود دراجته إلى المدرسة. من الكرتونة تناولت تيريز أول بيضة من بيض المفاجآت، وبأناملها جعلتها تدور حول نفسها. وزنتها في يدها، في اليمنى أولًا، ثم في اليسرى، ودحرجتها، كانت البيضة مطَمئنة الملمس، وثقيلة واعدة. وضعتها على الميزان: ٣٢ جرامًا. ممتاز. رفعت البيضة إلى مستوى أذنها، وهزتها، مرة، مرتين، ثم رفعتها إلى الأذن الأخرى، وهزتها عدة مرات، بدا صوتها خافتًا وواعدًا، ولم تُحدِث صوت اهتزاز تقريبًا. لكي تتأكد، دحرجتها قليلًا على الدكة الخشبية، كانت تتحرك على نحو واعد بسرعة في خط مستقيم. بحرص وضعت البيضة في جيب المئزرة، وضبطت وضع الميزان قبل أن تفحص البيضة التالية. كانت خفيفة للغاية، عدة أجزاء تتصادم داخلها، لا بد إذن من إعادتها إلى العلبة. وزنت تيريز البيضات الخمس والعشرين كلها، وهزتها، ولمستها، واحدة بعد أخرى، وهبطت أربع منها في جيب المئزرة، وعادت البقية، إحدى وعشرون بيضة، إلى الصندوق الكرتوني. وفي النهاية أخرجت البيضة الأولى من جيب المئزرة وشرعت في نزع الورق المفضض عنها، من أعلى إلى أسفل. أصبحت الآن تنجح في تحرير البيضة من الورق المفضض بلا جهد، ومن دون أن تمزقه. على عكس ما كان يحدث في السابق، كان الورق المفضض مقسومًا إلى جزأين، وببعض المران كانت تزيله سليمًا عن الشكولاتة. فردته بكفها ووضعته جانبًا، والآن انهمكت في تقسيم شطري الشكولاتة. استخدمت لذلك ظفر الإبهام الأيمن الذي كان عن عمد أطول من الأظفار الأخرى، وفي المقدمة مسطح الحافة، حتى

يكون لديها رافعة أفضل، وتفصل الشطرين فصلًا أملس بقدر الإمكان من دون أن تكسرهما. غمَّست كلا الشطرين في القهوة. حلوة حلاوة رائعة، الشكولاتة الذائبة، ما زالت تستمتع بكل قضمة. لم تفتح البيضة البلاستيكية الصفراء إلا في تلك اللحظة، بدون مقاومة تقريبًا انفتحت، قبل عدة سنوات كان على المرء أن يضغط على نصفي البيضة بمهارة حتى تنفتح، أما اليوم فلم يعد ذلك يمثل أي تحدٍّ. ولكن لم يصبح من الأسهل أن يلاحظ المرء من الخارج ما إذا كان البيض يحتوي على الأشكال المرغوبة في الاقتناء أو مجرد لعبة يمكن تركيب أجزائها. لم تكن تيريز تخطئ إلا نادرًا، نسبة التخمين الصائب لديها كانت تزيد على تسعين في المائة. عند فتح البيضة خفق قلبها. من الحافة الصفراء برزت عدة أجزاء منفردة. ليس شكلًا، بل مروحة من بلاستيك أزرق تعمل بقوة السَّحب. بعناية ركبتها تيريز، ما خرج من البيضة، فقد خرج من البيضة، وما خرج من البيضة ينضم إلى المجموعة، انتهينا! وكما يقتضي النظام، فردت الورقة المرفقة. لم تخطئ في البيضات الثلاث الأخرى، من كل بيضة أخرجت شكلًا من عائلة فرس النهر «هابو»، في البداية رائد الفضاء، ثم القرصان الذي كان ينقص مجموعتها منذ أسابيع، وفي النهاية راقصة الباليه، كان لديها أربع راقصات من قبل، لكن هذه الراقصة ترتدي فستانًا أخضر على غير العادة، وليس فستانًا ورديًا، وكانت جميلة جدًّا ولذلك لن ترميها. أكلت ثلاثة أنصاف أخرى من الشوكولاتة، والبقية غلفتها بالبلاستيك الرقيق الذي أحضرته معها، وعندئذٍ كان فنجان القهوة فارغًا، ودبت الحيوية في الشارع شيئًا فشيئًا. وضعت تيريز الأشكال والشوكولاتة والمروحة في جيب المئزرة، وأعادت السكين وفنجان القهوة والميزان إلى المحل، وبعد ذلك أخرجت بيضتين من الكرتونة وعرضتهما في الفجوة بجانب الخزينة. وأعادت البقية إلى المخزن. في الأسبوع المقبل ستُعد مرة أخرى ثلاث كعكات من الشوكولاتة المجمَّعة، واحدة لها ولفرنر، وكعكتين لروزفيتا، الناس في المقهى يتهافتون عليها، وتدفع روزفيتا لها دائمًا ١١ يورو

عن كل كعكة. سارت إلى الحمَّام الصغير خلف المحل وجيب المئزرة يخشخش، وأشعلت الضوء. من الأرضية حتى السقف كانت الجدران كلها مغطاة بالأرفف المقسمة إلى مربعات صغيرة، في كل رف تقريبًا شكلٌ أو لعبة، وأحيانًا شكلان أو لعبتان أيضًا، من يسار الباب كانت الأشكال أو اللعب الأقدم، مهرجان الفرسان في فرويدنبورج، وفي المقدمة زيجلنده ذات الرأس الأصفر، من عام ١٩٧٤، بقبعة مدببة وشمعدان ثلاثي الأذرع وفستان بنفسجي فاتح، وبعدها بقليل «الضفادع السعيدة»، وبوموكل، ومئات من السنافر، وأشكال فرس النهر السعيدة، والسلحفاة تابسي، والبنجوين بيبي، والفيل المرح، والإسفنجة بوبس، والخنزير الوردي، كل المجموعات كاملة، بلا ثغرات أو عيوب. وبينها تتناثر الشاحنات القلابة، والسيارات، و«البازل»، والطائرات، وأشياء غريبة كانت تيريز تحتاج إلى الورقة المرفقة لتعرف أسماءها. ابتسمت، وأخرجت الأشكال الجديدة من جيب المئزرة. وضعت شكلًا بعد آخر في المكان المحدد له في الرف الأيمن بجوار الباب، القطع المزدوجة وضعتها في صندوق كرتوني كبير بجانب الحوض، والأشكال ذات العيوب وضعتها في صندوق مكتوب عليه «نماذج معيبة». لصقت الأوراق المرفقة بالأشكال في دفتر ملاحظاتها المسطَّر الذي كانت تحتفظ به في دولاب صغير ذي مرآة، وكتبت تاريخ الأشكال التي أخرجتها من البيض وأسماءها. وهي جالسة على غطاء المرحاض انهمكت دقائق في تأمل مجموعتها الملونة، ثم أخرجت من أحد الأرفف دب الباندا بو ومسحت على بطنه المستدير، ثم أمسكت بـ«المرأة القطة»، ودقت على قبضتها المضمومة وأذنيها الصغيرتين البارزتين. قالت تيريز:

- اللافتة لا تضيء. تخيلي، لافتة فرنر لا تضيء، اللافتة الأمريكية. لا يمكن أن تسير الأمور هكذا بعد الآن. يجب أن تكون للمرء قدرات خارقة. سيكون هذا رائعًا.

فِني

كانت مصممة كل التصميم على أن تخلع كتفيها. أظهر تيمو لاإراديًا قبل أسبوعين في حصة الرياضة أن ذلك ممكن. انخلعت كتفاه وهو يستدير إلى الأمام، وعندما استدار إلى الخلف عادتا إلى مكانيهما. بعد ذلك سقط فاقد الوعي على البساط الرياضي اللين. رفعت المعلمة ساقيه إلى أن عاد إلى وعيه. في الأسبوع التالي أُعفي من حصة الرياضة. ما زال النجيل تحت قدمي فِني مبتلًا، إذ إن الحديقة تقع في الظل في الصباح الباكر. مدت فِني يديها إلى المقبضين الدائريين البرتقاليين المصنوعين من البلاستيك، وانقلبت مرةً بذراعين ممدودتين. بالضبط كما فعل تيمو. لم يحدث شيء. هبطت فِني بلا آلام على قدميها. مرة أخرى. بنشاط شرعت في الدوران، وبذراعين ممدودتين تأرجحت باندفاع، إلى الأمام وإلى الوراء، ثم انقلبت على رأسها. لا شيء. لا يمكن أن يكون الأمر صعبًا إلى هذا الحد. انهمكت طوال ربع ساعة في الدوران بالمقبضين، من دون أن تصل إلى النتيجة المرجوة. شعرت بدوخة فحسب. وبالغثيان بعض الشيء.

- هل جُننتِ؟

عبر باب الشرفة كانت أم فِني قد خرجت إلى الحديقة لتدخن سيجارة. تابعت قائلة:

- ما هذا الذي تفعلينه؟

رجعت فِني مرة أخرى إلى الوراء. من الأفضل أن تشاهدها الأم،

عندئذ سيكون من الأسهل الحصول على إذن بالغياب من المدرسة.
قالت فِني:
- أتدرب لعصر اليوم. لدينا اختبار في حصة الرياضة.
نفضت أم فِني غبار الصنفرة عن بدلة العمل وأخذت نفسًا من السيجارة، ثم قالت:
- آه. طيب، بالداخل علبة بلاستيكية بها ساندويتشات الاستراحة، كرياضية متفوقة لا بد من التغذية الجيدة.
قالت فِني لاهثة:
- لا وقت لديَّ.
وأدت دورة أخرى. «فِني، فِني، فِني، تُمزق أي بيكيني»، ما زالت هذه العبارة تملأ أذنيها من الأسبوع الماضي. لم يكن أحد يريد أن يقف خلفها في طابور التزحلق على المياه، لأن ردفيها قبيحان جدًّا حسبما قال تيمو، وإذا رآها المرء، فلن ينجو من الكوابيس. همست سالومي عندما لمست فِني عند حافة حمَّام السباحة:
- «ييع»، البقع الدهنية لن تطلع أبدًا من المايوه.
بوضوح رأتها فِني أمامها، سالومي بوجهها الجميل المليء بالنمش. عندما تقول شيئًا وضيعًا، كانت تواصل الابتسام ببساطة. لم تكن سالومي تأكل سوى رقائق الذرة، صباحًا، وظهرًا، ومساء، ومعها حليب قليل الدسم، وفي بعض الأحيان سلطة بدون صلصة. اقتدت بها بعض البنات في الفصل، لكن فِني فشلت في ذلك. حاولت عدة مرات وهي في دورة المياه أن تضع إصبعها في حلقها، لكنها على الأرجح ارتكبت خطأ ما، إذ لم تنجح قَطُّ في أن تتقيأ. سالومي كانت تسرق أيضًا، تقريبًا في كل استراحة، مشدات للصدر وحُليًّا وأدوات تجميل، ثم تتفاخر بها في فناء المدرسة. مرة وحيدة حاولت فِني أن تسرق شيئًا، سوارًا في متجر «H & M». لكنها ما كادت تتحرك خطوة خارج المتجر، حتى دق مخبر المحل على كتفها من الخلف. كان على أمها أن تأتي

وتوقع شيئًا ما، وكان على فِني أن تدفع مائة يورو من مصروفها الشخصي، عقابًا لها. تركت فِني المقبضين. استسلمت. لن تستطيع خلع كتفيها اليوم. أمها أيضًا كانت قد اختفت ثانية في الورشة، عليها حتى المساء أن تنتهي من صنع كومود. سارت فِني إلى المطبخ، وراحت تأكل بالملعقة من مربى التوت، مباشرة من البرطمان، بعد ذلك أعدت شريحة خبز بالعسل والكثير من الزبدة. جلست بالخارج على درج الحديقة، وراحت تفكر كيف تهرب من عصر اليوم في المسبح المكشوف. لا بد أن هناك طريقًا. حام دبوران حول رأسها، فهشتهما بيديها، لكنَّ الدبورين لم يتركاها في سلام. استقر كلاهما على شريحة الخبز بالعسل. غمغمت فِني:

- اللعنة على الطفيليين!

عندئذٍ واتتها فكرة. لم تتردد طويلًا. وضعت الخبز بالعسل على معصم يدها اليسرى. وضغطت، بقوة، إلى أن شعرت بلسعة، وسرى ألم حاد وصل حتى يدها. ظلت تضغط فترة طويلة كي تتأكد من أن كلا الدبورين قرصاها، عندئذ أزالت الخبز عن ذراعها. ما زالت قرون استشعار الدبورين تتحرك قليلًا، ثم رقدا ساكنين في العسل. أثناء غسيل اليدين كان بمقدور فِني رؤية القرصتين وهما تتورمان. سيكفي ذلك، على الأقل بالنسبة إلى عصر اليوم، لن يجبرها أحد على الذهاب إلى المسبح بهذا الورم في المعصم، النتيجة تستحق الألم كل الاستحقاق.

فِن

من الحمَّام لم يرَ سوى قدميها اللتين لوحتهما الشمس، ما زالت نائمة، أنفاسها طويلة ومنتظمة. كان يود لو رقد ثانية بجوارها، ودفن أنفه في الشعر الأشقر في عنقها، واستغرق في أحلامه. لكن يوم الثلاثاء هو يوم عيون الخنازير، أحد أفضل أيام الأسبوع أجرًا. حتى التاسعة والنصف عليه أن يُحضر العيون من المسلخ الكبير خلف المَحجَر، ثم يوصلها إلى مستشفى العيون في الطرف الشمالي للمدينة، وبعد ذلك ينقل أشياء في المنطقة طوال النهار بالدراجة، بَول ومستندات، دم وباقات زهور. يوم الثلاثاء لا يصلح لعضلات الساق الضعيفة. في أيام الثلاثاء تدور المدينة كلها على الدراجة. وضع فِن ماكينة الحلاقة تحت الماء، والنصل إلى أعلى، ثم فتح الصنبور حتى آخره. كان يأمل في أن تستيقظ مانو من الخرير. لم يُرد أن يذهب إليها ويوقظها، لا يريد أن يبدو أنانيًّا هكذا. انسابت المياه المحملة بالشعر، ومسح بظهر يده الشعيرات الداكنة على حافة الحوض، وأرهف السمع: لم تستيقظ مانو. رفع فِن الكوب البلاستيكي الأخضر المخصص لتنظيف الأسنان من الحامل المعدني الذي علته رواسب كلسية، ثم تركه يسقط؛ لم ينتج عن ذلك ضجيج عالٍ حقًّا، لم يكن سوى صليل بلاستيكي ضعيف. سمع مانو وهي تتقلب في فراشها، ثم ساد السكون ثانية. عندما تنام، فهي تنام حقًّا. هازًّا رأسه نظر فِن إلى كوب تنظيف الأسنان، الذي تدحرج على البلاط المتشقق ثم اصطدم بحقيبة

الظهر الخاصة بتوصيل الطرود وتوقف عن الدحرجة. لم يستطع أن يصدق أنه فعل ذلك لتوه، لحسن الحظ لم يكن بمقدور أحد أن يراه. لم يتوقع أن تفاجئه هذه المدينة - التي كان يريد في الأصل أن يهجرها - بامرأة تجعله يرمي في الثامنة صباحًا كوب تنظيف الأسنان البلاستيكي في أرجاء الشقة، حتى ينعم معها ببضع دقائق أكثر فحسب. ولم يعرف ما إذا كان عليه أن يسر لذلك أو أن يغضب أو أن يتعجب. ترك كوب تنظيف الأسنان راقدًا، وسار إلى باب غرفة النوم المفتوح. خلف كتف مانو لمع الهيكل الصلبي الرشيق لدراجة السباق، ماركة «بيناريلو»، لامعة لمعانًا فائقًا، وعليها كلمة «بانيستو»، العلامة التجارية للشركة المساهمة الإسبانية التي كانت تدعم ميجيل إندوراين عندما يمرق على الأسفلت بدراجته في التسعينيات كأنه كائن فضائي. «بيج ميج»، الذي كان فارع الطول مثل فِن، طويلًا أكثر من اللازم بالنسبة إلى هذه الرياضة؛ وبظهر مقوس، لكن بتألق لا يُبارى، فاز خمس مرات متتابعة بسباق فرنسا للدراجات. حتى بضعة شهور خلت، كانت هذه القطعة الفاخرة من المعدن الشيء الوحيد الذي يتسبب في شدة خفقان قلب فِن. لقد أحصى عيون الخنازير التي كانت تفصله عن دراجة سباق ماركة «كامبانيولو»، بسلاسلها ونظام تغيير السرعات فيها، دراجة كانت ستجعل الدموع تندفع إلى عينَي «بيج ميج» نفسه. كان يتخيل بالتفصيل رحلته إلى إسطنبول أو نابولي: لا شيء خلفه سوى الضجر الفائت، وحقيبة دراجة معلقة تحت المقعد تزن أربعة كيلوجرامات ونصف الكيلو، بها الأشياء الضرورية فحسب، وأمامه مستقبل غائم رائع من الطرق الساحلية المتشققة، والأسفلت الساخن، والدروب الجبلية الوحيدة. ثم بعد ذلك، في العام نفسه، السفر بالسفينة إلى نيويورك للمشاركة في السباق الشهير «أليكات» للعاملين في خدمة التوصيل السريع: هذه المدينة الحارة السريعة، وهو، «بيج فِن»، وسط صخب الانتصار. كل هذا تراءى له الآن بعيدًا جدًّا، عندما نظر إلى مانو

التي ترقد في سريره، قالبةً نبضه وخططه رأسًا على عقب. احمرت أذناها الكبيرتان من النوم أو من الحر، شعرها القصير على الوسادة لا يكاد يُرى، أشقر فاتح جدًّا، تقريبًا أبيض. لون شعرها ذكَّره بالصبغة الفلورية التي أعادوا طلاء طريق الدراجات بها في قلب المدينة. قال لنفسه: إنه يلمع. ضيَّقت ما بين حاجبيها، كأن ضوءًا بعيدًا من الداخل يبهر بصرها، كوَّرت قبضتيها، وبدا كأنها تكوِّر أيضًا قدميها، كانت تستند، تكبح نفسها، ربما تسقط. ارتسمت الخطوط الخارجية لنهديها الصغيرين تحت الملاءة، لكنه لم يجرؤ على لمس مانو وإيقاظها، حتى إن كان يلاحظ من جسدها المتوتر أنها لا تحلم حلمًا جميلًا. تتسم مانو بهذه الجدية المغناطيسية النادرة، بشيء معقد جذاب لا يعرفه إلا أناس اجتازوا مرضًا خطيرًا أو معاناة عظيمة؛ أناس واجهوا العبث مثلما يواجه المرء كلبًا مسعورًا، أناس يريد كل شخص سليم الانضمام إليهم رغمًا عنه - ليس فقط لأنهم خبروا الحياة أكثر من غيرهم، بل لأنهم أيضًا خبروا الموت، وهذا ما يُكسبهم تلك الخصوصية. كان ليو أيضًا واحدًا من هؤلاء. تذكر فِن نظرته الثاقبة، وأنه لم يكد يرمش بعينيه قَطُّ. وتذكر رأسه الأصلع، ثم فيما بعد الشعيرات الشقراء النابتة. وتذكر الحديقة العملاقة أمام المنزل الواقع على ضفاف بحيرة جريبنتس، حيث قضيا عصريات لا تنتهي، وتذكر الطوف الذي كانا يبحران به ولا يعودان في أغلب الأوقات إلا مع هبوط الظلام، وتذكر دراجات السباق ماركة «بيجو»، وجولاتهما بالدراجة في منطقة البحيرات. وتذكر الفترة التي فقد فيها ليو شعره للمرة الثانية. كان حضور ليو يبدو مثل عدسة مكبرة، كان كل شيء أقرب، وأكبر، وأوضح في حضوره. آنذاك تراءى لفِن أن كل يوم من غيره يوم ضائع. وفي الجنازة، قبل عيد ميلاد ليو بأربعة أيام، شعر بأنه، منذ ذلك اليوم فصاعدًا، سيضيع حياته كلها.

لم تكن مانو تتحدث عما مضى تقريبًا. لم يكن يعرف إلا أنها جعلت العالم رحبًا على نحو مشابه. كان يعرف: مهما اقترب منها، لن يكتسب أبدًا

جديتها، كان بمقدوره استعارتها فحسب، مثلما يستعير المرء معدات لا يملكها ويجب عليه إعادتها في وقت ما. كان يعرف أيضًا أن عليه أن يقول لها ما ينويه، نابولي، إسطنبول، نيويورك، عليه أن يقول لها، وأن يسألها ما إذا كانت تود أن ترافقه. وأن يسأل نفسه عما قد تعنيه كلمة «لا» منها.

تطلعت إليه مانو بعينين مفتوحتين على اتساعهما، كأنها لم تكن نائمة بعمق قبل ذلك:

- هل تركتَ الصنبور مفتوحًا؟

شعر فِن بأنها ضبطته متلبسًا، فمد يده إلى التيشيرت الذي كان تحت السرير، ثم ارتداه، وقال:

- ماذا جعلك تظنين ذلك؟

قالت مانو:

- إنني أسمعه.

استجمعت قواها ونهضت من الفراش وسارت إلى الحمَّام.

سار فِن خلفها ورفع خِفيةً كوب تنظيف الأسنان. ثم قال وهو يداعب شعرها:

- لقد كنتِ تحلمين مرة أخرى فحسب.

أمسكت مانو بمقبض الصنبور بكلتا يديها، ثم راحت تديره وهي تضغط على أسنانها إلى أن أحدث صريرًا. أدخل فِن كوب تنظيف الأسنان مرة أخرى في الحامل، ووجد نفسه يضحك. غمغمت مانو:

- ماذا؟

- أنتِ تبالغين.

فركت مانو كفيها الحمراوين. وبصوت لا يزال أجش وناعسًا قالت:

- ليس جيدًا أن يقطر الصنبور. بالمياه التي تنزل من الصنبور خلال ساعات يمكن للمرء أن يروي مساحة مزروعة في حجم غرفة نومك. لا ينبغي أن يقطر الماء، هذا هو كل شيء.

سقط بصرها على الطبق الموضوع بجانب زجاجة الصابون السائل على حافة الحوض، وعليه شريحة خبز مقضومة، مدهونة عسلًا. قالت:

- اليوم يوم عيون الخنازير. عليك أن تفطر، سيكون يومًا طويلًا.

قال فِن:

- أرى أنني كنت معقولًا جدًّا اليوم. أخذت قضمتين. وبعد ذلك وجدتني أفكر مرة أخرى في تلك المآقي اللزجة ذات الشرايين الحمراء. في حجم كرات البينج بونج. وبها أوتار طويلة صلبة، رمادية مثل الحبل السري، لكنها أرفع، وعلى المرء أن يُخرجها على نحو ما من محجر العين...

خلعت مانو تيشرت «سباق فرنسا للدراجات» لعام ١٩٩٢ الذي نامت به، ثم السروال الداخلي الرجالي. استندت إلى حافة الحوض، وجذبت فِن إليها ثم قبلته. فاحت من شعرها رائحة الملاءات النظيفة وقبعة القش التي تضعها فوق رأسها خلال العمل. عبر التيشيرت المصنوع من البوليستر استطاع أن يشعر بدفء بطنها. دفعت يدها تحت تيشيرته، ثم تحت سرواله. سألها:

- ماذا تنوين؟

همست مانو:

- أن أجعلك تفكر في شيء آخر. والآن كُل!

انفصلت عنه وسارت إلى غرفة النوم في الناحية الأخرى، أمسك فِن بالخبز المدهون بالعسل وأكل بسرعة ومن دون أن يستطعم شيئًا. قالت له:

- أنا أيضًا يجب أن أسرع. في البداية إلى هذا الشخص الغريب صاحب الأعشاب الصينية، ثم عليَّ قبل الظهيرة أن أنقل صبَّار السجوار في الجزيرة المرورية عند مركز التسوق إلى مكان آمن. يريدون أن يزرعوا هناك شيئًا ألطف، هكذا قالوا لي، أشجار كرز ياباني أو شيئًا من هذا القبيل. مع أن الصبار موجود من قبل أن أولد!

نفخت مانو باحتقار. راح فِن يمضغ وينظر إليها وهي تنزلق في البداية في سروالها الداخلي الأبيض ذي الثقب في أعلاه، ثم في سروال البستنة القصير الأخضر ذي الحمالتين. لون البشرة الشقراء في ثديي مانو وبين قدميها يحددان المناطق التي لا تصل إليها سوى يديه، أو هذا ما يأمله على كل حال. تجد صعوبة في الوقوف على قدم واحدة، ما زال النوم يداعبها. عندما حاولت أن تلبس الفردة الثانية من الحذاء المطاطي ذي الرقبة، تعثرت، فألقت بدلو المايونيز القديم الذي يحوي أدوات البستنة. شعر بالسرور لأنها ترتدي ملابسها، إذ عليه أن ينطلق بعد برهة، وفي هذا السروال المبطن الخاص بالدراجة ليس ثمة مكان للانتصاب.

سألته مانو وهي ترفع بعناية أدواتها:

- فيمَ تفكر؟

كان رد فِن:

- في أنكِ سمراء للغاية.

- لأنني أذهب للسباحة في أي طقس. لو هبطتَ مرة من مقعد الدراجة وأتيت معي، لما كنتَ أنت مخططًا هكذا مثل عشبة ذَنب الخيل. لكن في الصيف، ستأتي معي للسباحة.

أومأ فِن، فقالت مانو:

- الصيف قريب.

أومأ فِن مرة أخرى قائلًا:

- أعرف.

فركت مانو بعض الطين الجاف من طرف أسنان المشط اليدوي الزراعي.

- ماذا؟ لماذا تحدق فيَّ هكذا؟

- هل أُصبتِ مرة بمرض خطير؟

فِن نفسه فوجئ بسؤاله، كان في الحقيقة يفكر في ذلك فحسب.

وضعت مانو المشط بحرص في الدلو. وسألته من دون أن تتطلع إليه، بل راحت ترتب الأدوات وكأنها ترتب باقة زهور:

- وهل أبدو كذلك؟

بدا له من المستحيل أن يقول «نعم»، فقد تفهمه على نحو خاطئ، وسيجب عليه أن يطيل في شرحه. لذا قال:

- انسي الأمر. كانت مجرد فكرة.

قالت:

- لا أحب أن تحدق فيَّ هكذا. نظراتك تقتحمني. لماذا يجب على الناس دائمًا أن يحدقوا فيَّ هكذا؟ غريبة. كأن سيرتي عُلِّية يمكن للمرء أن ينقب فيها ويجد أشياء شيقة.

قال فِن:

- لكن السِّيَر تشبه العلالي. أريد أن أعرف فقط ما عايشتِه قبل أن نتعارف، ما حكايتك، ما الأشياء المتناثرة في عُليتك.

مرت مانو بجواره وأخذت قبعة الشمس من المشجب، ثم ردت غاضبة:

- تمامًا. عُليتي. ملكي. إذا أردت حكايات، فاذهب إلى المكتبة، أو إلى السينما. ماذا يريد كل الناس دائمًا من الحكايات والماضي وآنذاك؟ المرء يحب من أجل أن يتغير، هذا هو الجميل في الأمر كله، التغيير.

أراد فِن أن يوافقها، وأن يقول إنه أيضًا قد تغير، وأنه فكر كثيرًا وبعمق في هذا التغيير، وأنه يشعر الآن براحة أكثر عندما يتسكع مع سائقي الدراجات في المركز، أنه لم يعد يشعر بالضآلة أمام رجال مثل سيلاس أو توم، رجال يبدون كأنهم ضلوا طريقهم ولم يذهبوا إلى تصوير دعاية لعطر «دافيدوف كول ووتر»؛ رجال يتفاخرون بأنهم أمسكوا بنهود أكثر من أدوات تصليح دراجات. أراد أن يقول لها كم تترك فيه أثرًا مريحًا. لكن مانو كانت قد خرجت من الشقة وأصبحت على السلم، وهو لم يستطع أن يقول كلمة، بل ظل فمه مفتوحًا فحسب.

أمام نافذة الدهليز بين الطابقين توقفت مانو، فجأة، كأنها نسيت شيئًا. قالت:

- كأن أحدًا أخفى كل شيء. أين الغيوم؟

فتحت النافذة وانحنت فوق الإفريز.

- أصبح كل شيء بالخارج بُنيًّا تمامًا، ونحن في مايو، ثمة خطأ ما. ألم تمطر قبل قليل؟

التفتت إليه، كانت تسأل بجدية. قال فِن:

- أنتِ وأمطارك! لم تكن هناك غيوم، لقد توهمتِ ذلك، وستأتي بالتأكيد، أمطارك.

بدا صوته غاضبًا، ولم تستطع مانو أن تعرف أنه في الحقيقة غاضب من نفسه، ومن أن ميله إليها يجعله مضطربًا وعاجزًا. قال:

- سأرحل من هنا، بالدراجة، إلى نابولي أو إسطنبول، حسب الجو، ثم إلى نيويورك. نهاية مايو. على أقصى تقدير.

أغلقت مانو النافذة، بحرص، كأنها تخشى أن توقظ أحدًا. استدارت ونظرت إليه:

- أي بعد أقل من ثلاثة أسابيع.

قال فِن:

- تعالي معي. فكري فقط في كل النباتات المزروعة في الطريق إلى هناك.

قالت مانو:

- على المرء ألا ينقل نباتًا مزدهرًا إلى إصيص آخر، فاحتمالية أن يذوي كبيرة نسبيًّا.

علقت دلو المايونيز على ذراعها ونزلت السلم. غاضبًا ضرب فِن بقدمه إحدى دعامات الدرابزين. نقل النبات أصبح مستحيلًا الآن، لقد أطاح بالإصيص من حافة النافذة من دون أن يريد ذلك. كان قد دبَّر أموره وحده فترة طويلة جدًّا، من دون كل تلك الغراميات، والرقاد يقظًا، وزمجرة

المعدة، والتفكير في تسريحة شعره، والبحث عن وصفات للطهي في جوجل. حياته كلها كان لها مكان في حقيبة الدراجة. بين الحين والآخر كان سيلاس يرتب له موعدًا مع إحدى أولئك الفتيات اللاتي لم يعد يهتم بهن هو، سيلاس. لكن كل فتاة منهن كانت تريد أن تجعل من فِن شيئًا. كان بالنسبة إليها مثل إطار دراجة بلا معدات أو مقعد، هيكل متوسط القيمة على المرء أولًا أن يطليه من جديد، ويبحث بمشقة عن الأجزاء المناسبة له، قبل أن يستطيع الخروج به إلى الطريق. لأنهم يزعمون أن عمل ساعي البريد بالدراجة ليس مهنة، وأن القمصان بمربعات خرجت من الموضة تمامًا، وأن شعره المجعد لطيف جدًّا فقط لو غسله، وأن جدرانه تكاد تكون قد خُلقت لكي تُطلى بدرجة من درجات اللون الفيروزي ولكي تتزين بشريط خشبي على ارتفاع الخصر، وأن الرقص هو أن تحلم بقدميك، وأن رجلًا في التاسعة والعشرين لا بد أن يشتري أثاثًا جديدًا. لم يكن إذن يشعر بالضعف إلا عندما يقود دراجته على طريق صاعد على أقصى تقدير. بالتأكيد مر عليه في المدرسة بين الحين والآخر أسبوع قضاه في السرير بسبب إحدى الفتيات وهو يتعاطى المخدرات ويستمني، ويستمع إلى أغنية كريس آيزاك «لعبة شريرة» في تكرار لا ينتهي، لأن فتاة من الفتيات قالت له مرة أخرى إنه مثل أخ حنون. والمرأة لا تنام مع أخ حنون؛ هي تمارس الجنس مع الرجل الأناني، ذي الكتفين المريضتين، الذي يقف في المدخل الخلفي للصالة الرياضية وعلى وجهه نظرة براد بيت، ولا ينزع السيجارة من فمه في الشارع إلا ليتفاخر بالأحرف الأولى لآخر فتوحاته. لكن وقتًا طويلًا انقضى على ذلك، ووقتًا طويلًا انقضى قبل أن يتقبل عدم منح قلبه إلا لدراجات السباق ووعود الطرق الجبلية الملتوية. انقضى وقت طويل جدًّا على رغبته في أن يكون أكثر مما هو. ومانو أحبته مع أنه بلا مهنة ولا شعر مجعد ولا شريط خشبي للزينة باللون الفيروزي. كانت تحب الجدران البيضاء لأن المرء يستطيع أن يعلق عليها الصور في مخيلته،

مثلما قالت. تركته يحب الكاتشاب ويقلب في البطاطس المهروسة، أما أن قدميه عندما يرقصان فإنهما تعانيان من الكوابيس، فلم يثر ذلك لديها سوى ضحكة خافتة على أقصى تقدير. عليه أن يصلح أموره مع مانو، بأي طريقة، لا بد أن يهتدي إلى فكرة.

إدنا

تحسست إدنا يدها على منضدة السرير بحثًا عن جهاز التحكم عن بعد، وجدت أنملة سبابتها زر التشغيل، ومض ضوء الشاشة فوق جفنيها المغلقين، كان صوت نسائي لطيف يعطي معلومات عن سلوك التزاوج لإناث التماسيح الأقزام، واختلط ذلك بأغنية من الراديو المزود بمنبه: «يا حبيبتي، يا حبيبتي، إنه عالم متوحش، من الصعب العيش فيه، بمجرد...». بدقة لا تخطئ ضغطت بقبضتها على زر إسكات المنبه، وفتحت ببطء عينيها وقد شعرت برغبة في حكهما، كانت أشعة شمس الصباح تنفذ من بين خصاص الستارة وتسقط على جدار الحجرة. يوم جيد للسلحفاة، هكذا فكرت إدنا وسعلت، يوم قائظ بالنسبة إلى العجائز مثلي. واليوم الثلاثاء، الثلاثاء أيضًا. مدت يدها إلى علبة السجائر الممتلئة على إفريز النافذة، كانت قد نزعت السيلوفان ببهجة متشوقة قبل أن تذهب إلى النوم، تحب ذلك، هذه المقاومة التي لا بد أن يواجهها المرء لكي يُخرج السيجارة الأولى من بين السجائر الأخرى، والرعشة التي تمر عبر الفلتر. فتحت علبة الكبريت، وأخرجت أحد العيدان، وقضمت بأسنانها الرأس الأحمر، رائع، هذا الصرير الكبريتي بين الأسنان، ثم أخرجت عودًا ثانيًا، حكته بالشريط الخشن، النَّفَس الأول يدخل الرئة، الحرقان في الفم الذي لا يزال جافًّا من الليل، والآن، الآن كانت يقظة. أحدث غرابٌ فوق شجرة البيلسان في الخارج فوضى في الظلال على حائط الحجرة. أزاحت إدنا الغطاء ونفضت السيجارة. لم تكن تحب الضوء في الصباح، كان يُظهر

دوالي ساقيها أكثر سمكًا وزرقة عما هي عليه. وضعت السيجارة المشتعلة في التجويف على حافة المنفضة، ورفعت درجة الصوت في التلفزيون، حتى يمكن سماعه في الممر أيضًا. في الحمَّام أشعلت سيجارة جديدة، وشغلت الراديو وتركت الماء ينساب في البانيو: «يا حبيبتي، يا حبيبتي، إنه عالم متوحش...». أشعلت سيجارة أيضًا في كل من المطبخ وغرفة المعيشة، وشغَّلت هناك الراديو أيضًا، في كل حجرة المحطة نفسها، هكذا كان بإمكانها أن تسير في أرجاء الشقة، هنا تجهز التوست وسكين الزبدة، وهناك تسقي نباتات الغرفة، نبات الغار، والصبار، وشجيرة الموز، ومقابل كل تمرين تؤديه من تمارين القرفصاء أمام التلفزيون تكافئ نفسها بنيكوتين يملأ الفم، وكل هذا من دون أن يتسخ البساط في الممر بالرماد خلال سيرها.

خرجت إلى الحديقة ولا يزال شعرها مبلولًا، وفي يدها اليسرى طبق به توست وزبدة ومربى السفرجل، وفي اليد اليمنى باقة من لسان الحَمَل السهمي والحُماض البستاني والبرسيم، جمعتها من أطراف الغابة، ووضعتها في الماء طيلة الليل. هزت إدنا الباقة محدثة حفيفًا ثم سارت بضع خطوات إلى عمق الحديقة، لم تمشِ بعيدًا حتى لا تدهس الحشائش التي تصل إلى الركبة، هذه هي منطقة كوزيما. كانت إدنا تعرف أن كوزيما تستطيع شم الأعشاب الطازجة. ولم تمر برهة حتى مدت السلحفاة رأسها الصغير بين أعواد العشب ثم زحفت في اتجاهها. وضعت إدنا الأعشاب على الحصى بجانب طاولة الحديقة، ثم جلست وراحت تدهن التوست بالزبدة. قالت لكوزيما التي شرعت أولًا في التهام البرسيم:

- زرت أمس ماجالي، كانت مستأنسة تمامًا، الخنزيرة البرية العجوز، في سريرها المزين بالزهور، في حين تركت الممرض ينفض لها الوسادة. تحت الأريكة كانت ترقد البندقية، البندقية العتيقة ذات الماسورة المزدوجة. لم أكن سيئة على الإطلاق في إطلاق النار على العلب

الصفيحية. لكن إطلاق الرصاص على الحيوانات، لم يكن ذلك قَطُّ من الأشياء التي أتقنها. لم أفهم في يوم من الأيام ما الذي يجدونه في ذلك.

كانت كوزيما تلتهم الآن لسان الحَمَل السهمي. قالت إدنا:

- مهلًا، وإلا جاءتك الزغطة مرة أخرى.

ثنت إدنا شريحة التوست في المنتصف ثم قضمتها، وقالت بفم ممتلئ:

- لم تعد تتذكر شيئًا تقريبًا. المغامرات فقط هي التي تصعد بين الحين والآخر إلى سطح الذاكرة: الأيل الأول الذي قطعته، عشيقان أو ثلاثة، ومثل هذه الأشياء.

أعادت إدنا التوست إلى الطبق:

- يمكنني أن أصارحك أنتِ بذلك. أحيانًا أحسدها. لو كان بمقدوري أن أفعل هذا بأي طريقة: أن تنمحي كل الذكريات من رأسي بمرور الزمن. مثل قرص فوار، «تششش»، وكل ما يبقى هو الطعم الفاتر. كم سيكون ذلك جميلًا!

نهضت وبخرطوم الحديقة ملأت لكوزيما الوعاء بماء نظيف، وأخذت تشاهد فقاقيع الهواء على السطح وهي تتلاشى، فقاعة بعد أخرى. قالت:

- أتعرفين، عندما تحيين حياة صحية، ستبلغين بسهولة المائة والعشرين عامًا. عندئذ ستعايشين أشياء كثيرة. الأفضل أن يكون ذلك من نصيبك أنتِ، لا من نصيبي.

لا يزال ٨٧ يورو في علبة البن فوق الثلاجة، لا بد أن يكفي المبلغ حتى آخر الشهر، لم تكن تريد الذهاب مرة أخرى إلى مصلحة الشؤون الاجتماعية. الأبواب الجديدة هناك التي لم يعد لها مقبض، بل تصدر أزيزًا فحسب. على المرء عندئذ أن يسحب ورقة بها رقم، ثم يُنادى عليه إلى إحدى الحجرات الصغيرة، وعليه أن يبرر كل شيء كأنه مجرم. الأفضل إذن أن تأكل التوست بالعسل الأسود، أو الفطائر المصنوعة من البطاطس المبشورة، المهم أن

تكفي النقود للسجائر. أمسكت بورقة نقدية من فئة العشرة، ووضعتها في جيب التنورة، وتأكدت من أنها وضعت الولاعة، تريد أن تنطلق بما أن الطقس ما زال منعشًا. قهوة في متنزه المدينة، ثم ربما تزور ماجالي زيارة قصيرة، وتحصل على شيء من طعام غدائها، فهي لم تعد تلمس شيئًا من الطعام الجيد تقريبًا، تمشية في الغابة ربما عندما تزداد الحرارة، والعشاء في حديقة البيت مع كوزيما، بعد ذلك ستذهب إلى «يلو» حيث تسود أجواء عالية الصوت وصاخبة على نحو رائع، وبإمكانها وسط هدير آلات الباص أن تقف عند البار من دون أن يجب عليها التحدث مع أحد، إذ لا يوجد مكان آخر تكون فيه امرأة في عمرها غير مرئية مثل ملهى ليلي، وهناك ستبقى حتى بعد منتصف الليل بقليل، إلى أن تجتاز هذا الثلاثاء البائس، ستفعل ذلك بالضبط، مثلما تفعل كل ثلاثاء.

رأت إدنا المرأةَ حتى قبل أن تغلق الباب خلفها. توقفت، ويدها تحيط بمقبض الباب. هناك بالأعلى، على السطح، على الطرف الآخر من الميدان، فوق المنزل ذي الواجهة ذات اللون الأخضر الفاتح، كانت تقف امرأة على الجمالون بقدمين متباعدتين، وفي سكون تام. بعزم. لم تتحرك إدنا. شعرت بخفقان قلبها في عنقها، في لثة أسنانها، في صدغيها. لقد تحركت المرأة، وضعت ببطء قدمًا أمام الأخرى، إلى أسفل، في اتجاه حافة السطح. غمغمت إدنا:

- يا إلهي!

بدأت يدها المحيطة بمقبض الباب تؤلمها. خلا الميدان من الناس تقريبًا إلا من بضعة تلاميذ كانوا يعبرونه صاخبين وهم يحملون حقائب الرياضة، لم ينظر أحد منهم إلى أعلى. تركت إدنا مقبض الباب وسارت في اتجاه المنزل. على ما يبدو لمحتها المرأة، فسارت بسرعة أكبر إلى حافة السطح، وزلت قدماها على القرميد، انزلقت، ثم استعادت توازنها، ووقفت عند

الحافة، وبذراعيها راحت تجدف للحفاظ على التوازن. ضغطت إدنا بيدها على فمها ذعرًا. صاحت المرأة:

- يجب أن أنزل.

ومالت فوق الهاوية.

- يجب أن أنزل، الآن، فورًا!

غام كل شيء أمام عينَي إدنا: الملامح الخارجية للمرأة، والميدان، وواجهات المنازل؛ شعرت بالحرارة، حرارة فظيعة، كل شيء رأته ثانيةً، الشاحنة القلاب، الدم، الجسد المحطم، المؤشر الرقمي الوامض على سطح مصنع الصابون على حافة القضبان. لن ترى ذلك. لن تراه مرة أخرى. لن تراه أبدًا. صدر رد فعل من كل جسد إدنا، وبالرعشة أطلق تحذيرًا، رعشة شملت الجسم كله، رعشة لم تعد تعرفها منذ سنوات. استدارت، شيء ما أحدث صليلًا، تحطم فوق الأسفلت، لم تلتفت إدنا، وسدَّت أذنيها، لم ترد أن تسمع صيحات المرأة، لم ترد أن تسمع شيئًا، ولا أن ترى شيئًا، فتحت الباب، وأسرعت إلى المطبخ، ومدت يدها إلى التلفون المثبت على الحائط بجانب الثلاجة، ووضعت إصبعها في ثقب القرص الدوار، أسرع، لماذا لا يدور القرص أسرع، ١ - ١ - ٠، ارتعشت يداها، وصوتها أيضًا، عندما أجاب أخيرًا شخص على الطرف الآخر، وعندما استطاعت أن تقول أخيرًا أن هناك امرأة تقف بالأعلى، امرأة تريد أن ترمي نفسها، امرأة جادة فيما تفعل، وأن عليهم أن يأتوا بسرعة، بسرعة شديدة.

ثلاث دقائق ونصف. ثلاث دقائق ونصف، ثم سمعت إدنا صفارة الإنذار، ومر الضوء الأزرق على ستارة مطبخها. عدَّت ثواني ساعة الحائط، وظهرها إلى النافذة، وصدغها على سماعة التلفون الباردة. أخيرًا. مدت يدها إلى جيب التنورة، وأشعلت سيجارة. تفوح من يدها اليسرى رائحة معدن مقبض الباب. بأقصى سرعة ممكنة شدت إدنا ستائر غرفة المعيشة، وأنزلت الستارة المعدنية، وأغلقت شباك الحمَّام. في غرفة النوم أشعلت التلفزيون،

وحولت إلى قناة الأطفال حيث ضمنت أنها لن ترى نشرة أخبار. هدّأ الظلام من الرعشة في أطرافها، وقلل من ارتعاشات يديها اللتين تشبثتا بالعارضة الحديدية في سريرها. ذُعرت من أن المرأة سببت لها الذعر بهذا الشكل. لقد مرَّت سنوات على ذلك. لقد منحوها هذه الشقة التي تشعر فيها بالراحة. تركوها في سلام ولم يعد أحد يوجه إليها أسئلة. لم يعرف أحد شيئًا عن ماضيها إلا القلائل، بل إن شائعة انتشرت تقول إنها غنية، لأنها تسكن في هذا الموقع، وريثة سويسري يعمل في قطاع البنوك، أو حتى نبيلة من النبيلات. استمتعت إدنا بهذه السيرة التي ألفوها لها، والتي كانت تلجأ إليها عندما يسيطر عليها الواقع.

جذبت الغطاء حتى وصل إلى ذقنها، وزادت من درجة صوت التلفزيون. معظم الناس يفعلون ذلك يوم الاثنين أو الثلاثاء. الإحصائيات تؤكد ذلك. خدع الأرنب «باجز باني» أحد الصيادين، ودخل في مبارزة مع أحد رعاة البقر، واحتال على نسر. دخنت إدنا سيجارة وراء سيجارة، والمنفضة على بطنها، لم تكن هكذا بحاجة إلى أن تتحرك.

تيريز

كانت قد وضعت لتوها كل العلب الكرتونية المفتوحة بعضها فوق بعض وحملتها إلى المخزن في الخلف، عندما دخل فرنر المحل من الباب الجانبي، مبكرًا قليلًا عن الموعد الذي توقعت مجيئه فيه، بعينين ناعستين، مُندَّاتين، وقد أرجع شعره المصفف إلى الخلف، وعلى كتفه مئزرة المحل الخضراء. سألها:

- هل رتبتِ البضاعة؟ هل جاء كل شيء؟

أومأت تيريز:

- كيف كان نومك؟

هز فرنر كتفيه وقال:

- هذا القيظ اللعين. تقلبت في الفراش، كأنني بقرة حامل.

قالت تيريز:

- وجدت اليوم فرس النهر-القرصان في بيضة مفاجآت. لم يحدث قَطُّ أنني أكملت مجموعة بهذه السرعة. محظوظة بحق!

لكن فرنر لم يصغِ إليها، تناول قلمًا أحمر من درج الخزينة، وشرع في تسجيل البضائع بجانب الباب. داعبت تيريز شعره، وسألته:

- أتشعر بالجوع؟

- صلاحية هذا كله ستنتهي قريبًا. لا بد أن نخفض ثمنه ٥٠ في المائة.

توقف في منتصف الكتابة، وراح يحملق أمامه بجبين مقطب، كأنه يحاول أن يتذكر اسمًا.

فكرت تيريز في أن أفكاره متماسكة، مثل عروق الخشب في البيت الريفي العتيق الذي نشأ فيه. لم يكن هناك مكان فسيح في رأسه بين الأفكار الثقيلة، المكان ضيق، لذا كان عليه دائمًا أن يقطب حاجبيه عندما يمعن التفكير في شيء، عندما يريد أن ينظر خلف الأفكار المفردة، ويحركها من مكانها حتى يوسع مكانًا لابتسامة، ليس ثمة سبيل آخر. كان ينظر هكذا حتى وهو شاب، لكن فقط بين الحين والآخر، وليس عدة مرات في اليوم مثلما يفعل الآن. أحبت فيه أنه لا يطلق على الدوام عبارات نمطية مثلما يفعل الآخرون، أنه كان بين وقت وآخر ينسحب لينفرد بنفسه. كان دائمًا عنيدًا وجادًا. لم يكن ليخطر على بالها قَطٌّ أن تدلله باسم آخر، كانت ستشعر كأنها تروضه ترويضًا يائسًا. تنادي زوجها بـ«فرنر»، ليس بـ«فرني» أو «حبيبي» أو أي اسم آخر مستهلك. وهو يناديها بـ«تيريز»، وليس كأصدقائه من الزمن الماضي الذين يدللون زوجاتهم، ويطلقون عليهن «قطة» أو «ليزا الصغيرة» أو «الملاك الصغير»، كأنهم لا يريدون لوعيهم أن يدرك أنهم يتقاسمون حياتهم مع شخص حقيقي، شخص مختلف تمامًا. لكن سلوك فرنر الحداثي لم يواكب الزمن. لقد أصبح عتيقًا، مثل قطع أثاث من الزمن الماضي، أو الأشكال القديمة في بيض المفاجآت، أو اللافتة المضيئة المعطوبة أعلى الباب، وقد بدأ الغبار يتراكم عليه، «موضة قديمة» مثلما قد تقول روزفيتا. لم يعد أحد اليوم يريد أن يتناول طعامه من طبقة ملونة من الجيلاتين، ولم يعد أحد تقريبًا يحب لحم المعلبات، و«المارشملو»، والوجبات التي تكون جاهزة بعد دقيقة من التقليب. لم يعد فرنر يجيل بصره خارج المحل، حيث يشتري الناس أطعمة «أورجانيك» أو قهوة «to go». بعناد تمسك برؤيته ابنة السبعينيات، وخنق كل نقاش حول ذلك بصمت حاسم.

طوال ساعة انهمك كل منهما في عمله من دون أن يتحدثا، نظفت تيريز زجاج الثلاجة، وطاولة البيع ودرج الخزينة، ومسحت الغبار عن وعاء ورق اليانصيب ومصابيح النيون المستطيلة، بينما أخذ فرنر يفحص تاريخ انتهاء

الصلاحية، في البداية على منتجات الألبان، ثم على المشروبات. قال فرنر في وقت ما وسط السكون، ورأسه منحنٍ فوق ثلاجة تجميد:

- صفارات الإنذار اليوم... قد يظن المرء أن هذه هي نهاية العالم.

حقًّا، الآن فحسب لفت ذلك انتباه تيريز أيضًا، قبل عشر دقائق الشرطة، والآن سيارات الإسعاف والإطفاء. قالت:

- ربما حادث.

ثم راحت تنقل العملات المعدنية من درج إلى آخر كأنها تعددها.

لكنهما سرعان ما تجاهلا الأمر، إذ انفتح باب المحل الآن بوتيرة أسرع، ودخل جموع من الناس على نحو غير معتاد. حتى عندما اقتربت الظهيرة لم تكن الصفارات قد هدأت. قال فرنر:

- يبدو أنها عملية إنقاذ كبيرة فعلًا. لا عجب، بالنظر إلى كل تلك السيارات الضخمة التي أصبحت تتزاحم في الفترة الأخيرة في الحارات، إنها تدهس كل شيء بهياكلها المصفحة، لن أتعجب لو سقط طفل تحت العجلات أو سائق دراجة.

كان ذلك أحد موضوعات فرنر المفضلة. بالتأكيد كان سيظل يسب ويلعن لو لم يدخل المحل خمسة فتيان وفتاة. برزت أجساد الفتيان من تشيرتات وسراويل أكبر من اللازم، اثنان منهما كانا في مرحلة تغير الصوت، وواحد فحسب، وهو أكثرهم كلامًا، كان لديه شيء مثل الشارب على الشفة العليا التي رفعها محتقرًا عندما عرضت الفتاة فيديو في المجموعة.

قال مشيرًا إلى التلفون:

- «فظيييع»! تتلوى كالأفعى، هذه الشمطاء. سيتنشر بسرعة، يا جماعة، تراهنون؟ هذا مدمر!

لم تستطع تيريز رؤية الفيديو محور الكلام، بالتأكيد فيلم إباحي أو شيء داعر، لم تفهم ما قيل، لكنه بدا شيئًا خليعًا. تمهل الفتيان في سيرهم أمام الأرفف، وجمعوا أشياء مختلفة، خمس عبوات من مشروب الطاقة «رِد

بُل»، وثلاثًا من الشاي المثلج، وعبوتين من «الفشار»، وعبوة من مقرمشات الفول السوداني، وموزتين. الفتاة الجميلة جمالًا خارقًا كانت تعطي تعليمات فحسب، أرادت تفاحة وزجاجة «كولا لايت»، صاحب الشارب اهتم بالأمر. أمام طاولة البيع طلب من فرنر علبة سجائر «لاكي سترايك» وولاعة. بنظرة عبر كتفه تأكد من أن الفتاة لاحظت ذلك. تردد فرنر، لم يصل الفتى بأي حال من الأحوال إلى سن الرشد، هذا ما لاحظته تيريز على الفور. من ناحية أخرى، سوف يشتري السجائر ببساطة من مكان آخر، وخمسة يورو مبلغ معتبر. كان فرنر يهم بحساب المشتريات عندما تدخلت تيريز:

- ممكن أن أرى بطاقتك الشخصية أيها الشاب؟

باحتقار لوى الفتى شفته، وقال:

- على مهلك، على مهلك، طيب. المشروبات والأشياء الأخرى.

خبط يده على الطاولة ومعها ورقة بعشرين، ثم سحب الهواء عبر أنفه بصوت عالٍ. لم تقل تيريز شيئًا، راحت تدير فحسب القلم الأحمر الذي نسيه فرنر بين الخردوات المختلفة.

بعد أن انصرف الشباب من المحل، قالت:

- لا تجعل مثل هؤلاء العيال يخيفونك. هذا طريق مسدود.

صامتًا أعاد فرنر السجائر إلى الرف. ضغط أحدهم ثانية على مقبض الباب، ودخلت المحل امرأة شقراء، كانت تتصبب عرقًا غزيرًا، وبدا عليها الاضطراب والتعجل. توجهت إلى الرف الذي يضم أدوات الحمَّام، وأحضرت مزيلًا للعرق، وفرشاة ومعجونًا للأسنان، وجِل الاستحمام، وماكينات حلاقة لمرة واحدة، وعبوة من الواقي الذكري، وأيضًا موزتين وزجاجة مياه طبيعية كبيرة، ثم ذهبت لتحاسب. وضعت أدوات الحمَّام في حقيبة يدها، والبقية في كيس بلاستيك أعطاها إياه فرنر. لم يكن قال لها السعر بعد، حين انفتح الباب مرة أخرى، ودخلت المحل أُم مع رضيعها، وخلفها رجل متقدم في العمر ومعه كلب، وعبر اللوح الزجاجي رأت تيريز

شابتين تتوجهان إلى المحل. شيئًا فشيئًا بدأت تجد الأمر غير معتاد. بعد عشر دقائق كانت متأكدة من أنه غير معتاد.

قال فرنر مسرورًا وهو يربط المئزرة بشكل وثيق بعد أن انحل الرباط قليلًا:

- أترين يا تيريز؟ كنت دائمًا أقول: سيجيء اليوم الذي يتزاحمون فيه على المحل ثانية.

في تلك الأثناء تكوَّن طابور وصل إلى الشارع، عديد من الناس الذين يريدون شراء آيس كريم أو مياه، أو مخبوزات أو سجائر، أو فاكهة أو حلويات. ساعدت تيريز الآن كذلك في خدمة الزبائن ووضع البضاعة في أكياس، لم يتبقَّ تقريبًا كيس من الأكياس الشفافة التي تُستخدم مرة واحدة، و«الفكة» لن تكفي فترة طويلة كذلك.

غمغم فرنر لها عندما فتحت لفة من فئة الخمسين سنتًا، ثم وضعتها وهي تصلصل في الخزينة:

- مثل زمان!

هُيِئ لها أنه ابتسم خلال ذلك. لمعت جبهته. لم تستطع تيريز أن تتذكر متى رأت فرنر يتصبب عرقًا آخر مرة. أخذت من الخزينة بضع أوراق من فئة المائة وفئة الخمسين، ووضعتها في ظرف. أرادت أن تعرف أخيرًا من أين يأتي كل هؤلاء الناس. قالت له:

- سأذهب بسرعة إلى البنك لأغير النقود.

- بسرعة!

وفي هذه المرة ابتسم فعلًا.

عندما خرجت تيريز من الباب وسارت بضع خطوات حول ناصية الميدان، رأت جمعًا من الناس، في الناحية الأخرى، أمام المنزل ذي اللون الأخضر الفاتح. لا بد أنهم يزيدون على المائة، وإليهم ينضم كل عدة ثوانٍ شخص آخر، ويرجع برأسه إلى الوراء، ويُخرج التلفون من جيب السروال حتى يلتقط صورة أو فيديو. على السور الصغير أمام البيوت المحيطة جلست

أمهات مع أطفالهن، وأطعمنهم عصيرًا، وقطعن لهم الخبز، ونظفن أفواههم المتسخة بالآيس كريم بمناديل مبللة أحضرنها معهن. وقف متقاعدون هناك يهزون الرأس، صبية فرشت بشكيرًا على الأرض وحاولت أن تتشمس، في حين أخذ صديقها يرميها بشيء، حبات من الفشار أو مقرمشات الفول السوداني. فشار أو مقرمشات من محلها هي! تتبعت تيريز نظرات الحشد. هناك، بالأعلى، على السطح، وقف شخص نحيف، يشبك ذراعيه أمام صدره. اقتربت تيريز عدة خطوات، فأدركت أنها امرأة شابة ترتدي سروالًا قصيرًا أخضر بحمالتين. اقتربت أكثر، وأغمضت عينيها ثم فتحتهما.

- يا إلهي!

وضعت يدها أمام فمها وضغطت عليه. ثم أغمضت عينيها وفتحتهما مرة أخرى حتى تتأكد مما تراه. بلى. إنها هي. الأذنان الكبيرتان، الأنف الحاد، الوقفة المستقيمة. إنها ابنة لزلي كونه. صحيح أنها أصبحت شقراء وطويلة، لكن لا بد أنها هي. لم تستطع تذكر اسم الفتاة. منذ سنوات لم ترَ لزلي أو ابنتها. سمعت كلامًا فحسب، هنا وهناك. يقولون إن لزلي تعيش الآن في كارلسروه، وتبيع تحت اسم «Esmeralda_23» قطع حُلي صنعتها بنفسها عبر موقع «إيباي»، وتزوجت للمرة الرابعة. ثم الابنة الكبيرة بالطبع، أستريد، التي امتهنت السياسة، وترشحت لمنصب عمدة مدينة فرايبورج. عندما يدخل المرء بالسيارة إلى المدينة، يجد ملصقات معلقة في كل مكان. أخذت تيريز تضغط على الظرف بالأوراق النقدية بين أصابعها، باحثة في ذاكرتها عن اسم المرأة الواقفة على السطح. «نونو». لم تتذكر إلا «اسم الدلع»، شقيقة الفتاة أطلقت عليها «نونو». لم تكن ظروف الصغيرة سهلة. قبل نحو عشرين عامًا، عندما كانوا لا يزالون يعيشون في الحي السكني على أطراف الغابة، كانت تيريز ترعى أمور الصغيرة أحيانًا، إذا لم تستطع الأخت الكبيرة ذلك. آنذاك كانت لزلي تدمن شرب الشمبانيا، والأب يُحدث بحضوره على الأرجح أضرارًا أكثر من غيابه. ذات مرة طارد لزلي بالبيجاما،

حاملًا البندقية الهوائية، عبر الشارع حتى وصلت الغابة. لم تكن الصغيرة تتعدى الثانية عشرة آنذاك. بعد ذلك بثلاث سنوات انتشرت شائعة تقول إن أستريد، التي لم تبلغ العشرين بعد، تعيش وحدها في الشقة مع شقيقتها الصغيرة، إذ إن الأم اختفت وذهبت تبحث عن الزوج. تذكرت تيريز كوخًا جليديًّا صغيرًا مثل أكواخ الإسكيمو، شيدته طيلة ساعات الصغيرة نونو أمام المنزل، بوجنتين حمراوين وقفازين صغيرين أصفرين. أعلنت عندئذ:

- عندما أكبر، سيكون بمقدوري أن أزور طيور البطريق في القطب الشمالي، وأن أسكن معها.

وتذكرت تيريز أن أستريد قالت لها إن طيور البطريق لا تفترق أبدًا، وإنها تظل طيلة حياتها مع رفاقها.

حبست تيريز أنفاسها. تحركت نونو، واقتربت بخطوات بطيئة من حافة السطح، وظلت واقفة عند المزراب، ثم نظرت إلى أسفل. غمغمت تيريز:

- يا ساتر استر!

وسارت بسرعة في اتجاه المنزل. لا بد أن يفعل أحد شيئًا! لم تر أفراد الشرطة الواقفين في الأمام إلا الآن، ثم أفراد الإطفاء الذين كانوا على وشك وضع وسادة هوائية لتقفز عليها. وفي الأعلى، في أحد الشبابيك الصغيرة في السقف، استطاعت أن تميز شرطيًّا يحاول على ما يبدو إقناع نونو بعدم القفز. دوت صفارات الشرطة، وبرق الضوء الأزرق على الواجهة، وضعت نونو ذراعيها أمام وجهها. سمعت تيريز فتى يصيح من الحشد بصوت متهدج:

- اقفزي، يا خوافة! هيا، افعليها، يا جبانة!

أنزلت نونو ذراعيها عن وجهها، وعادت تتسلق السطح بمشقة في اتجاه الجمالون، إلى المدخنة، حيث وُضِع دلو أبيض، راحت تبحث فيه عن شيء، ثم أخرجت شيئًا، وركضت إلى حافة السطح، وألقت بالشيء إلى أسفل، في الشارع، مشط يدوي زراعي أو جاروف صغير، لم تستطع تيريز أن تتعرف عليه بدقة. دوت الصفارة عدة مرات، ركعت نونو وخلعت قالب قرميد ثم

قذفت به إلى الشارع، في الاتجاه الذي أتت منه صيحة الفتى. تراجع الحشد إلى الوراء قليلًا. بدأت شرطية شابة في إحاطة المكان بشريط لتمنع الدخول. صاحت نونو من أعلى السطح:

- اتركوني في سلام، امشوا من هنا واتركوني في سلام!

توقفت سيارة توريد صغيرة أمام شريط الإغلاق المؤقت، وعبر الباب السحّاب تدافع سبعة من أفراد الشرطة بخوذات ودروع، ثم أخذوا أماكنهم بجانب أفراد الإطفاء الذين شرعوا بإغلاق المكان بحواجز حديدية استلموها لتوهم. تراجعت نونو عندما رأت الشرطة، واختبأت خلف المدخنة، لم يعد يُرى منها سوى شعرها الأشقر والساق اليسرى للسروال الأخضر. استدارت تيريز في اتجاه المحل، ولاحظت أن الطابور يصل حتى الشارع العرضي التالي. تذكرت الأوراق النقدية في جيب المئزرة. عليها أن تعود لمساعدة فرنر، سواء راق لها ذلك أم لم يرق، ليس بإمكانها أن تفعل شيئًا هنا.

فِن

كان القيظ في الخارج يومض فوق الأسفلت. من اليسار، من ناحية الساحة الرياضية، فاحت رائحة الحشائش المقصوصة حديثًا، رائحة الصيف. صعد فِن برشاقة على الدراجة، فتحسن مزاجه قليلًا. امرأة عجوز سارت ببطء بالغ في اتجاهه مع جروها، مقبلةً من ورشة البناء الأبدية التي تُدعى «بيوت المسنين»، في الناحية الأخرى من الشارع. يبقى الأمل، هكذا فكر فِن، في أن تدرك أن الأرض التي فتحت فاها أمام نافذتها ستصبح متنزهًا، وأن غرفتها ستغدو دارًا للمسنين مثلما يعد الملصق المعلق على سور ورشة البناء منذ ما يزيد على عام. ضغط على البدال وانطلق. عندما مرت به المرأة، ظن أنه رأى على كتفها اليمنى بندقية معلقة. كان بالتأكيد على خطأ. انتوى ألا يرى مسلسلات بوليسية كثيرة هكذا، ثم أسلم وجهه للريح التي هبت على أنفه وأفكاره. بعد بضع دقائق فحسب بدأ يعرق تحت الخوذة، لكنه كان عرقًا رائعًا، عرقًا يستمتع به. كان سريعًا اليوم، يغلب عليه التوتر، ربما بسبب الشجار. مر بدار المسنين، والساحة الرياضية، ومركز إمداد المدمنين بالمخدرات تحت إشراف طبي، وواصل القيادة في اتجاه بداية الطريق السريع. كان ممنوعًا أن يقود دراجته على الطريق السريع، لكنه لا يكترث بذلك في «يوم عيون الخنازير»، كان ذلك هو أسرع طريق إلى المسلخ، وهم لم يضبطوه سوى مرة واحدة، في الخريف الماضي. في أيام كهذه تتحرك الشرطة بدورياتها في الأماكن الظليلة.

بعد أن هجر برلين قبل عام ونصف، وبعد أن بقي عالقًا هنا أثناء رحلته بالدراجة، كان قد مر بإطارات الدراجة على كل سنتيمتر يمكن المرور فوقه. كان يعرف كل شارع هنا، كل طريق مختصر، وكل نقطة تطل على منظر جميل، والحارات المسدودة، وأماكن بيع المخدرات، كان يعرف الناس ويعرف ضجرهم الذي سرعان ما أصبح ضجره الشخصي. معظم الناس كانوا مثله، لم يختاروا الحياة هنا من أجل الأجواء السائدة، بل بقَوا عالقين، منتظرين، أو عاجزين عن المضي قدمًا. هذه المدينة هي محطة يبدل المرء فيها قطارًا، محطة ترانزيت. صحيح أن بها كل ما يحتاج المرء إليه، حفنة من المقاهي تقدم قهوة جيدة وبيرة ذات سعر معقول، وبعض الميادين الصغيرة المشمسة، وأماكن يمكن السباحة فيها في الصيف، ومَزلج اصطناعي للشتاء، ومدينة عتيقة جميلة، وحديقتان صغيرتان أو ثلاث بها أشجار تعاني من تورمات، وبها نباتات موسمية، وملعب كرة قدم، وبعض الفن وبعض المترفين، وخباز ما زال يأخذ مهنته مأخذ الجد. في الحقيقة لا ينقص هذه المدينة شيء، إلا ما قد يفتقده الناس عندما يرحلون منها. سحب فِن طرف رقبة التيشيرت على أنفه، وواصل القيادة في الشارع المؤدي إلى الطريق السريع.

بمجرد أن فتح البواب البوابة الحديدية إلى الساحة المتربة أمام المسلخ، استطاع فِن أن يلمح موزباخ وهو يخرج عبر الباب الجانبي إلى الشمس: يد تمسك بصندوق التبريد وبه عيون الخنازير وبرطمان مربى فارغ، وباليد الأخرى اثنان من السيجارلو اللذان سيدخنانهما معًا على الفور. كان موزباخ هو أكثر من يستلطفه هنا. رجل قصير، شاحب البشرة، ذو صوت عميق على نحو غير مألوف. تعلم موزباخ مهنة صنع القبعات، وكان في الحقيقة نباتيًا. لكن بعد إفلاس محله، لم يكن أمامه، في عمره، شيء آخر غير قبول الوظيفة هنا. تدخين السيجارلو يوم الثلاثاء مع فِن كان

أحد الأشياء القليلة التي تصرف انتباهه عن العمل؛ عمل لم يكن يحب التحدث عنه. بكسل لوَّح لفِن، على عكس معظم الزبائن لم يبدُ عليه أنه مهتم بأن تسير الأمور بسرعة.

قال موزباخ باقتضاب عندما مر به فِن:

- العمل أولًا، ثم تأتي المتعة.

ببرطمان المربى الفارغ كان يغرف عيون الخنازير من قاع صندوق التبريد. وضع فِن دراجته «البيجو» القديمة بحرص على الحصى، وبقليل من اللعاب راح يمسح خدشًا لا وجود له على المقود. لم يَسمع سوى صوت صب العيون في البرطمان، ثم صرير الغطاء وهو ينغلق.

في أعقاب ذلك قال موزباخ:

- انتهينا. تم تغليف المُقَل. لن يصبح مقودك أنظف من هذا. عليك أن تكون مسرورًا لأنك جئت مبكرًا هكذا، قرب الظهيرة ستكون الرائحة هنا لا تطاق، عندما يصبح الجو حارًا.

سحب كيسًا بلاستيكيًا من جيب سرواله، وأعطاه لفِن، حتى يغلف به البرطمان. في الأسبوع الماضي نزل سائل من العيون وأغرق شهادة ميلاده.

بسطح يده خبط موزباخ على جبينه، وقال:

- كدت أنسى. سأعود فورًا، أمسك!

ووضع البرطمان في يده، ثم اختفى في المسلخ. عبر الباب استطاع فِن أن يرى في قاعة المسلخ جثث الخنازير وهي معلقة في سير دوَّار في السقف. حاول بقدر إمكانه أن يتنفس عبر فمه.

قال موزباخ عند عودته:

- من الأفضل ألا تبقى هذه الأشياء في الشمس.

لف فِن البرطمان، ثم أخفاه في عتمة حقيبة ظهره، ومسح يده في سروال الدراجة.

- تفضل!

قالها موزباخ ومد يده بقبعة، يغلب عليها اللون الرمادي، مصنوعة من الجوخ الرقيق، وعليها ختم الشركة القديمة:

قبعات موزباخ

قال موزباخ مبتسمًا:

- صنعتها بنفسي، بضاعة ممتازة، من قطعة واحدة. فكرت أنك ربما تحتاج إليها، في شقتي أسفل السطح ستغدو هذه الأشياء الجميلة طعامًا للعثة فحسب.

قال فِن:

- ألا تريد أن تحاول العمل في صناعة القبعات مرة أخرى؟ بالتأكيد لستُ الوحيد الذي يحتاج بين حين وآخر إلى قبعة. ربما عبر الإنترنت، هل جربت ذلك من قبل؟

رفع موزباخ رأسه ونظر إلى السماء نظرة متفحصة، كأن الإجابة تتوقف على الطقس. ثم قال:

- الزمن تغير. يفضل الناس الآن شراء أشياء لا يحتاجون إليها.

أعطى فِن سيجارلو وأشعله له. يحب موزباخ هذا السيجارلو المعطر ذا الفلتر الحلو، كان يستنشق الدخان، وبين وقت وآخر يلعق شفتيه. أضاف:

- يبيعون في محلي القديم الآن حافظات للهواتف، أشياء صغيرة من البلاستيك توضع في الأذن، ونماذج لقطارات السكك الحديدية. على ما يبدو يلقى المحل إقبالًا.

قال فِن:

- لكن، بصراحة، لا يمكن أن تظل تعمل في اللحم النيئ يومًا بعد يوم، وتقبل ببساطة أن يختفي كل شيء بنيته بنفسك.

ضحك موزباخ وقال:

- صدقني يا بني. لقد رأيت في حياتي أشياء كثيرة تختفي: رأيت أبي

يختفي عبر باب الحديقة، في عام ١٩٦٤، وأمي راحت تختفي داخل ذاتها بشكل متزايد، رأيت بنوكًا تختفي، وجيرانًا، رأيت أبراجًا تختفي، وأسوارًا، ومساحات خضراء، وعملات، وملكات، ومقاهي، وسلوكيات وأساليب جيدة. رأيت اللمعان في العيون يختفي، لدى كل من أعرفهم تقريبًا.

بكعب حذائه دهس عَقِب السيجارلو، ثم أضاف:

- الحياة تعني البقاء، وتحمُّل اختفاء كل شيء في لحظة ما. اسمع كلامي! إنك تأتي إلى العالم وتخسر منذ البداية: أسنانك، دهونك، قلبك، شعرك، وقتك، وظائفك، أحباءك، ثم يأتي الوقت الذي تفقد فيه حتى عقلك. الحياة تعني البقاء خلف الأشياء والتوقعات والبشر. من الأفضل أن تبدأ مبكرًا بشكل كافٍ في استحسان ذلك. إذا أردت أن تحيا حياة طيبة، عليك أن تكون خاسرًا بامتياز.

كان فِن عندها يدخن الفلتر الحلو تقريبًا. لم يسبق لموزباخ أن تحدث كثيرًا هكذا دفعة واحدة. بإصبعين طوح بالعقب بعيدًا فسقط في الحصى، وكان سعيدًا أن هاتفه رن. على الطرف الآخر كان هولجر الذي يوزع العمل تلفونيًا، وهو النقيض التام لموزباخ. كان يتحدث تقريبًا أسرع مما يسمح به لسانه، بصوت عالٍ أخنف: طلبية من فندق «بلازا»، يحتاج شخص إلى بلوزة بلون وردي فاتح، مقاس ٣٦، وجوارب كاكية، مقاس ٤٠، يبدو الأمر بالنسبة إليه مثل سلطة فواكه، ولكن ليكن، إنه يثق به في نقل الأشياء بسرعة، إلى قاعة المؤتمرات رقم ٢٢٣، امرأة تُدعى «جول»، عليه شراء الأشياء من محل «جروندرز»، هذه تعليمات الزبونة، وبعدها حمل عينات مهبلية من عيادة الولادة في شارع شيلر إلى المختبر. وسمع فِن هولجر يقول وهو يضحك، قبل أن يضع السماعة:

- بسرعة، بسرعة، يا ساحرة الغابة!

قال فِن لموزباخ:

- عليّ أن أنطلق، شكرًا على الجوخ الأنيق. آمل أن أستمتع به قليلًا قبل أن أفقده.

نظر موزباخ في الصندوق الفارغ ثم أومأ.

من دقيقة إلى أخرى كان القيظ يزداد. عندما وصل فِن إلى فندق «بلازا»، تمنى لو أن باستطاعته أن يقضي بقية اليوم في البهو المكيف. أربع حبات من العرق هبطت بالتتالي من ذقنه على طاولة الاستقبال الرخامية، بجانب الحاملين المصنوعين من «البلكسيجلاس»، والموضوع عليهما تزكية بطبق اليوم. لم تتجهم ملامح وجه السيدة في الاستقبال. إنها تتلقى راتبها كي تتجاهل مبتسمة مثل هذه الأشياء، وتعطي الشخص الواقف أمامها الإحساس بأن كل شيء ينبغي أن يكون هكذا تمامًا، كما هو، وليس على أي نحو آخر. بحركة مبالغ فيها مدت يدها إلى الهاتف وأبلغت قاعة المؤتمرات بوصول فِن. اتسمت عباراتها بالأدب المعقم نفسه الذي تُتلى به عبارات تأخُّر القطارات في المحطات.

قبل أن يقرع باب غرفة المؤتمرات رقم ٢٢٣، انفتح الباب من الداخل. وقفت أمامه امرأة شقراء طويلة ترتدي بلوزة وردية فاتحة، وسروال بدلة رماديًّا، تحمل في يدها تلفونًا ذكيًّا، وباليد الأخرى، دفعت إلى الزاوية بلوح ذي عجل، عليه أوراق. أعلى ثديها الأيمن برزت بقعة كبيرة من القهوة.

قالت المرأة بصوت خافت في تلفونها:

- هانيس، ليس مهمًّا على الإطلاق كيف تفعل ذلك، اذهب معه للعب «الميني جولف»، اكتشف ما يجعله سعيدًا، المهم من فضلك أن تجعله بأي طريقه يختارني في القائمة القصيرة، أنت تعرف ما الذي يتوقف على ذلك. لحظة.

قطعت كلامها وتناولت الطرد من فِن، وحشرت الهاتف بين الأذن والكتف. بيد واحدة قطعت ورق التغليف الرقيق. قالت لفِن دون أن تنظر إليه:

- صباح الخير.

لم ترفع بصرها وتنظر إلى فِن إلا عندما رأت محتوى الطرد:

- هل لديك عمى ألوان؟ لا، لست أنت يا هانيس.

التفتت مرة أخرى إلى فِن:

- لقد تهجيت الكلمة عمدًا: و-ر-د-ي-ف-ا-ت-ح.

أجاب فِن بهدوء:

- الوردي الفاتح لون الموسم الماضي. قالت البائعة في محل «جروندرز»: لا أحد يرتدي بلوزات وردية فاتحة اليوم، لذلك فهي ليست موجودة في المخزن. بالأخضر الفستقي ستكونين على ما يبدو متوافقة تمامًا مع الموضة. أنا آسف.

تنهدت المرأة مرة ثانية:

- يا إلهي، سأبدو مثل طبق آيس كريم.

أخرجت رزمة مالية من جيب السروال، وسحبت منها ورقتين من فئة المائة.

- «فستقي» يعني «أخضر»، والأخضر ليس جيدًا، الأخضر يعيث الفوضى في الأفكار، هذا ما برهنت عليه عدة دراسات. اللون الوردي الفاتح يهدئ، وعليَّ اليوم أن أهدئ عددًا غفيرًا من الناس، أتفهم؟ قل لتلك المرأة إن علم نفس الألوان لا تهمه الموضة.

دست النقود في يد فِن وقالت له:

- مع السلامة.

وأغلقت الباب أمام أنفه. نظر فِن إلى ورقتي المائة. ٣٠ يورو بقشيشًا، الأمر يعجبه جدًّا. التلفون المحمول المعلق حول ذراعه أصدر ذبذبة. قرأ على الشاشة:

إطعام الحيوانات المفترسة

سيتناول ساندويتشات سمك مع سيلاس عند نافورة السوق، وهذا جعله يصفِّر وهو يهبط السلم.

قاد الدراجة من عيادة التوليد إلى المختبر بسرعة وبدون عوائق، كل الإشارات الضوئية كانت خضراء، جلب القيظ هدوءًا للمدينة، وأصبح البشر متشابهين، كلهم أبطأ قليلًا، وأقل تفاخرًا، وأكثر تسامحًا، أصبحوا أكثر تهذيبًا في التعامل بعضهم مع بعض، ربما لأنهم أدركوا فجأة مدى ضعفهم، على الرغم من كل شيء، أمام تقلبات مزاج الطبيعة.

من بعيد استطاع أن يرى سيلاس واقفًا عند النافورة، طلب ساندويتش سمك وبطيخًا، وعندما هبط فِن من الدراجة كان سيلاس يغمز للبائعة ذات النمش على الوجه في عربة المأكولات السريعة. احمر وجه الشابة، وخفضت بصرها ناظرة إلى المقلاة. الرجال الذين لهم مظهر سيلاس لا يحتاجون إلى أثاث، ولا شرائط خشبية للزينة باللون الفيروزي، ولا دورات للرقص. مرتبة ومعجون أسنان وسراويل داخلية نظيفة تكفي تمامًا، بقية الأشياء تجمعها النساء في الحلم، إلى أن يجيء اليوم الذي لا يستطيع فيه المرء تجاهل الواقع. لم يستطع فِن أن يؤاخذهن على سلوكهن، سيلاس شاب رائع حقًّا، حتى إنْ كان يميل إلى المبالغة بأشكالها كافة، ودائمًا يقع في حب عدة نساء في وقت واحد، ولديه مشكلات مادية مزمنة. لا يستطيع فِن أن يتذكر أنه رآه مرةً عكر المزاج. لقد كان بمقدوره أن يجعل فِن يحب حتى هذه المدينة، وكان هو الذي أوجد له الوظيفة كساعٍ للبريد السريع على الدراجة، وعلى كل حال فقد تحمل فِن الوضع هنا فترة طويلة على نحو مدهش.

قال سيلاس:

– وجهك مشرق ونضر. قد يظن المرء أنك قضيت الليل مع امرأة.

خلع فِن الخوذة، وخطف أحد ساندويتشات السمك، كان قد شعر خلال الطريق بمعدته تزمجر احتجاجًا على الإفطار المتقشف. قال:

– عليك ألا تُسقِط حالتك على الآخرين.

يومًا ما سيحكي لسيلاس عن مانو، ربما في الغد أو بعد الغد، في اللحظة

الحالية أعجبه أن يحتفظ بمانو لنفسه فقط. إذا كان يستطيع قول ذلك أساسًا. شعر بنخزة عندما فكر في شجارهما.

قال سيلاس:

- كنت بالأمس في «وحيد القرن»، وذهبت لأعدل من منظري وأتأنق قليلًا، فقابلت في الطابور أمام دورة المياه امرأة بشعر أحمر، فرس من أروع ما يكون. وهي لم تنتظر طويلًا، أخذتني معها فورًا إلى كابينة المرحاض. هللويا، أقول لك: إنها تعلم ماذا تفعل. لم تكن حتى ترتدي سروالًا داخليًّا. من الخارج كان الناس يدقون الباب ويلعنوننا.

تناول فِن ساندويتشًا آخر. وقال بفم ممتلئ: مكتبة سُر مَن قرأ

- آه. ثم؟

ابتسم سيلاس وتناول آخر قطعة من البطيخ:

- بعد ذلك، لم أرها، لا أعرف كيف. إلى ذلك فقدت محفظتي. ولكن هذا ليس مهمًّا.

- فهمت، لا تتعب نفسك، سأدفع أنا الساندويتشات.

غمز سيلاس له مثلما فعل من قبل مع البائعة، ثم قال:

- شكرًا، سأردها لك.

رن هاتف فِن في اللحظة التي أراد فيها أن يحشو فمه بساندويتش آخر. كان هولجر على الخط، بدا صوته أكثر جدية من المعتاد. سأله:

- أين أنت الآن؟

أجاب فِن:

- ميدان السوق.

ووضع الخوذة على رأسه ودس في يد سيلاس نقود الساندويتشات. سأله هولجر:

- هل معك دراجة السباق؟

- نعم.

قالها فِن على الرغم من معرفته بأن هولجر لا يحب أن يقود دراجته بدون فرامل، إذ يمكن للشرطة في أي لحظة أن توقفه بسبب ذلك، أو أن تصادر الدراجة. لكنه يكون أسرع بهذه الدراجة تحديدًا. فضلًا عن ذلك فقد ركّب فرامل وهمية على المقود.

قال هولجر:

- اسمع، إنهم يجرون عملية جراحية لطفل في مستشفى الأطفال، ويجب إرسال عينة من أنسجة الطفل فورًا إلى المختبر، الموضوع شائك إلى حد كبير على الأرجح، ولم يبدوا مسرورين إطلاقًا على التلفون. الصبي في الرابعة، وكل ثانية لها ثمنها، أفضّل أن تفعل أنت ذلك، فأنت الأسرع.

قال فِن، وقد جلس بالفعل على مقعد الدراجة:

- أنا في الطريق. يمكنك الاعتماد عليَّ.

عندما صعد السلم راكضًا، رأى الباب المنزلق المؤدي إلى غرفة العمليات ينفتح، والطبيبة المساعدة تعدو ناحيته بالعينة. لم ينغلق الباب بسرعة، وهكذا استطاع فِن أن يلمح بالداخل الصبي الصغير يرقد على طاولة العمليات، ورأى قدميه الصغيرتين ويده اليسرى الصغيرة، لحسن الحظ كان الأطباء منحنين فوق رأسه. تناول فِن العينة ودسها في أثناء النزول في حقيبة الظهر، شعر بعطش لا يحتمل، لكنه لن يسمح لنفسه الآن بأي تأخير.

أسرع طريق إلى المختبر يعود به ثانية إلى ميدان السوق، مرورًا بمركز التسوق الجديد، ثم بالمدينة القديمة.

عندما انعطف بعد مركز التسوق إلى المدينة القديمة المبلطة بالحجارة، رأى في وجوه الناس الذين مروا به أن شيئًا غريبًا قد حدث، كانوا يتهامسون وينظرون إلى الخلف، ويضعون اليد أمام الفم. حادثة ربما، هكذا فكر فِن، بالتأكيد إحدى تلك السيارات الرياضية الملعونة التي تمر بسرعة ٨٠ في

الحارات الضيقة، وتزيح كل ما يقف في طريقها. بالدراجة يتمتع بالمرونة، وسيستطيع عبور مكان الحادث. عند نهاية المدينة القديمة لمح، على بعد عدة مئات من الأمتار، الحواجز، وأمامها وقف مئات من المتفرجين الفضوليين، وكان أفراد الإطفاء هناك، والإسعاف، والشرطة، سائقو السيارات يضغطون على آلة التنبيه، وعلى جدران المنازل انعكست الأضواء الوامضة الزرقاء والبرتقالية. واصل فِن القيادة، عليه أن يعبر، إذا عاد وقطع الطريق عبر وسط المدينة، فسيفقد وقتًا، أكثر من عشر دقائق.

سأل فِن أحدَ المارة الذين أتوا في اتجاهه، رجلًا مسنًّا كان يحاول إشعال سيجارة في أثناء المشي:

- ماذا حدث؟

قال الرجل هازًّا ولاعته التي لم تشتعل:

- محاولة انتحار. أحد المجانين فقدَ برجًا من دماغه، يقف هناك على السطح.

أشار الرجل إلى منزل سكني ذي واجهة بلون أخضر فاتح، هناك عند طرف المتنزه، في الناحية الأخرى من الشارع. هزَّ ولاعته مجددًا، وواصل السير لاعنًا. أخذ فِن يسب ويلعن هو أيضًا. غمغم وهو يواصل بكل قوته الضغط على البدال:

- حمار غبي! لماذا يجب عليه أن ينتحر هنا بالذات، اللعنة، لماذا الآن بالذات؟

واصل قيادة الدراجة بعزم وتصميم، إلى أن وصل قبل الحواجز بقليل، عندئذ تذكر أن الشرطة قد تصادر دراجته السريعة، وهي من الطراز الذي يخلو من المكابح. فكر في قدمَي الصبي الصغيرتين وقرر أن يخاطر، آملًا أن تكون لدى الشرطة هموم أخرى في الوقت الحالي. كان الشارع مغلقًا أمام المرور من كلا الجانبين، وعليه بأي طريقة أن يمر من أمام هذا المنزل، ليس أمامه خيار آخر غير النزول ومواصلة السير على القدمين. وقف الناس

متلاصقين، فاحت في المكان رائحة العرق والشاورمة ودخان السجائر. وسَّع الناس له مكانًا بقدر الإمكان، ربما بسبب تيشيرت السعاة الذي يرتديه، قبل أن يرفعوا هواتفهم فوق رؤوسهم ويواصلوا التقاط الصور أو تصوير أفلام فيديو. تقدم فِن أفضل مما توقع. لم يرفع رأسه لينظر لأول مرة حيثما ينظر الجميع إلا بعد أن سار نحو مائة متر، ورأى آخر حاجز وهو غارق في عرقه، وبعد أن لمح بين شجرتين ثغرة يستطيع النفاذ منها إلى المتنزه والعودة إلى الشارع. رجع برأسه إلى الوراء وظلَّل على عينيه بكفه. عندما حدق في الشخص الواقف بالأعلى، شعر بحرارة في أطرافه ثم برخاوة، انزلق قلبه إلى معدته، وهناك كان يدق ويشيع الفوضى في كل شيء. تشبث بمقبض المقود واستند عليه، على ما يبدو فإن كل الأدرينالين الذي غمر جسده أثناء قيادة الدراجة قد بدأ يحوله من حالة إلى أخرى، ثم يتخثر تخثرًا مؤلمًا في بطنه. هناك، بالأعلى، كانت تقف مانو، حافية على القرميد عند نهاية الجمالون الشرقي، تثني ركبتيها قليلًا ثم تفردهما، تشد شعرها، تهتز إلى الأمام وإلى الخلف. مانو. أراد أن يصيح باسمها، لكن شفتيه التصقتا، جافتين متعبتين، اللسان ثقيل في الفم، اهتز فكه، والتصق التيشيرت الغارق في العرق بإبطيه، والتصقت ذراعاه بجسده، وعندما سار عدة خطوات إلى الأمام، هُيئ له أن قدميه تلتصقان بالأسفلت. مانو الجميلة، الأبية. كان ذلك كل ما استطاع التفكير فيه في هذه اللحظة، عدا ذلك كان رأسه ساخنًا وخاويًا. لم يستطع أن يرى صورة كاملة لمانو، بل لقطات قريبة لا رابط بينها: الفجوة بين أسنانها، طبقة الجلد السميكة على أطراف أصابعها، الندبة الصغيرة تحت الحاجب الأيمن. لو توقفت الواجهة عن إبهار بصره! أراد أن يطفئ الضوء في رأسه، وهنا في الساحة، أن يوقف كل شيء، أن يطفئ كل شيء، ويذهب للسباحة مع مانو.

مارين

انزلق بصرها على ظهر المرأة النحيف، ومرَّ على كل شعيرة من شعيراتها الرقيقة على بشرتها الناعمة، وتوقف البصر عند الشامة تحت خصرها، هذا الخصر النحيف على نحو لا يصدق، ثم انزلق بصرها ثانية على مؤخرتها الصغيرة المستديرة، البروز الأسمر قليلًا بين ردفيها المثاليين، وهناك أيضًا تلك الشعيرات الشقراء الرقيقة، هذه وقاحة تدعو المرء إلى ضربها، وركلها، وخربشتها. استدارت المرأة، وواجهتها بثدييها، أمام أنفها مباشرة، وعليهما آثار الجزء العلوي من البيكيني، حلمتان صغيرتان ورديتان على البشرة الشقراء. كانت تقف كأنها تُخرج لسانها، هذه المرأة، تضحك عليها، تسخر منها وهي تضع يديها في خصرها، وبطنها المسطح الذي لا يتكور حتى عندما تأخذ شهيقًا. وكانت ذات رائحة زكية، طازجة ورقيقة، أهي رائحة نعناع؟ أم مليسة؟

سجلت مارين المقاسات بآلية، وضغطت بالقلم الرصاص على الورقة، ضغطت بشدة حتى انكسرت سن القلم. مدت يدها إلى القلم الجاف الموضوع على طاولة الكي، وسجلت الأرقام الوقحة، بسرعة، وبخط صغير، حاد الزوايا.

سألت المرأة:

- ومتى؟

كانت مارين قد نسيت اسمها، سيّان، ستبحث عنه فيما بعد في سجل الزبائن.

ردت مارين:

- الجمعة. أستطيع الانتهاء من البدلة حتى يوم الجمعة. إذا كنت تريدين المعطف القصير أيضًا، فسأحتاج إلى خمسة أيام أخرى. هل أنت متأكدة من أنك لا تريدين بلوزة معها؟

ارتدت المرأة قميصًا حريريًا رماديًا وبلا أكمام، لم تكن ترتدي حمالة صدر. قالت:

- ليس لديَّ كل هذا الوقت. لكنني أرى أنه ليس من السيئ ألا أرتدي شيئًا تحت السترة، ثدياي صغيران، لذلك فهذا ممكن. هذه على الأقل ميزة.

قالت مارين:

- بالتأكيد.

وانتزعت الورقة بالمقاسات من الدفتر:

- الجمعة إذن.

ببصرها تتبعت المرأة التي خرجت إلى الشمس وأشعلت سيجارة، ونفخت الدخان باستمتاع، ثم اختفت وهي تنعطف حول الناصية. تنهدت مارين. عداد الخطوات المثبت في حزام التنورة أظهر ١٠٢٤ خطوة، ليس كثيرًا بالنظر إلى أن النهار قد انتصف. سارت في المحل، وعدلت من وضع شماعات بعض الملابس المعلقة، وشغلت المكواة بالبخار: ١٠٩٧. تنهدت مارين، عدة مرات وبصوت عالٍ، ثم دخلت إلى كابينة تغيير الملابس وشدت الستارة. فتحت سحاب تنورتها، ثم سحبت التنورة حتى أسفل إبطيها. تأملت البشرة الشاحبة التي كانت تحبها فيما مضى. لها الآن بريق رمادي عبر جواربها الطويلة السوداء، فوق الطرف المطاطي تكوَّن بروز، أو اثنان إذا لم تشفط بطنها وإذا ضغط ثدياها الثقيلان من أعلى على أنسجة جسدها المترهلة. شفطت بطنها قدر استطاعتها، وأجبرت نفسها على الوقوف مقوسة الظهر، نحف خصرها، بعض الشيء على أي حال. كان جديدًا عليها أن تلاحظ نفسها هكذا. لم تكد تفكر طيلة سنوات في أن

تنظر إلى نفسها من الخلف عندما تشتري سروالًا. كانت فخورة بالنمش على وجهها وبثدييها الكبيرين. سحبت مارين التنورة إلى أسفل، وعدلت من وضع عداد الخطوات. ٢٠٠٣ خطوات عندما خرجت من الكابينة. لن تستطيع اليوم إنجاز العشرة آلاف خطوة التي ينصح بها هانيس في اليوم. سارت إلى المطبخ الصغير، وفتحت عبوة من الدببة الجيلاتينية «هاريبو»، وحشت فمها بحفنة منها، فشعرت بالحلاوة تملأ كل حلقها. قبل أن تبلع، توقفت عن المضغ، وانحنت فوق الحوض، ثم بصقت الكتلة الهلامية، وتناولت قطعة من منشفة ورقية، وجمعت الكتلة اللزجة ورمتها في دلو النفايات تحت الحوض، وفي إثرها عبوة الدببة الجيلاتينية.

- هل كل شيء على ما يرام؟

التفتت مارين، ومن فزعها خبطت كوعها في جهاز الميكروويف. في إطار الباب كان يقف باريس، أطول وأكثف لحيةً مما تتذكره. قال مبتسمًا:

- مفاجأة.

شعرت مارين بوجهها يحمر. قالت وهي تمسح أصابعها اللزجة في تنورتها:

- ماذا تفعل هنا؟ ظننت أنك تريد المجيء الأسبوع المقبل.

- والآن أنا هنا، وأريد دعوتك إلى الغداء.

وضع باريس صندوق آلته الموسيقية على الأرض وأضاف:

- دعيني أحضنك.

فاحت من باريس رائحة طيبة، كعادته، رائحة خشب الصندل، ومن السترة الجلدية التي يرتديها رائحة تبغ، التبغ الجيد من فرنسا الذي لم تستطع مارين أن تتذكر اسمه.

قال لها وهو يمسك بوجهها بين يديه:

- تبدين جميلة. يومًا ما سأعُد كل نقاط النمش على بشرتك. كلها. لكنك تركضين دائمًا بعيدًا عني.

انسلت من حضنه، وأبعدت عداد الخطوات من طرف التنورة من دون أن تلفت نظر باريس، ثم أزاحته خلف الميكروويف. قالت:

- أستطيع أن أطبخ شيئًا لنا. «ريزوتو» مثلًا، لديَّ كل ما يلزم في البيت.

باريس عازف متخصص في موسيقى الباروك، يعزف على آلة تشبه الناي تُدعى «كورنيت»؛ آلة خشبية غريبة، مثنية، صوتها يشبه صوت آلة الأبوا، لكنه أكثر عمقًا ودفئًا. وبهذه الآلة يسافر عبر العالم، روما، نيويورك، باريس، أوديسا، وبين الحين والآخر كانت السبل تفضي به إلى هنا حيث يعزف في حفل موسيقي يقيمه معهد الموسيقى القديمة، أو يلقي محاضرة في المعهد. قبل خمس سنوات وقف لأول مرة في محلها، وعلى ذراعه بدلة «فراك» تهرأ حشوها. لم يستطع أن يدفع لها شيئًا، لكنه أهداها غزل البنات، فيما بعد في ميدان السوق. لم تأخذ مارين عباراته الغزلية مأخذ الجد قَطُّ، من ناحية بسبب هانيس، ومن ناحية أخرى لأنها كانت دائمًا تشعر بأنها ليست ندًّا لباريس، وسيم أكثر من اللازم، وسافر أكثر منها بكثير، وغير مستقر أكثر من اللازم. كانت تستمتع بمجاملاته، لكن مثلما يرى المرء فيلمًا وهو يعلم جيدًا أنه ينغمس في وهم ما.

رفع باريس صندوق آلته وقال:

- وكيف أقاوم «الريزوتو» من يديك؟

جمعت مارين أشياءها، حقيبة اليد، المفاتيح، وأطفأت مكواة البخار، ثم الأضواء. استند باريس على باب المحل، ولف سيجارة لنفسه، بمهارة. ثم سيجارة أخرى حشرها خلف أذنه. من أجل هذا وحده كانت تحبه، فهي لا تعرف أحدًا غيره في نهاية الثلاثينيات، يحشر سجائره الاحتياطية خلف أذنه.

في الخارج صدمهما القيظ، بعد عدة خطوات خلع كل منهما السترة. أراد باريس أن يتمشى، إذ إنه قضى اليوم كله في قاعة المعهد المعتمة. باستياء فكرت مارين في عداد الخطوات الذي تركته في المحل خلف الميكروويف،

وحاولت أن تحصي الخطوات في رأسها لفترة، لكنها تخلت عن ذلك بعد عبور الشارع العرضي الثاني.

عندما انعطفا في الشارع الذي تسكنه مارين، تساءل ياريس:

- ماذا يحدث هناك في الأمام؟ أتقام أمام منزلك حفلة في الهواء الطلق لا أعرف عنها شيئًا؟

قالت مارين:

- يا إلهي!

وبالفعل، أمام منزلها مباشرة كان يقف نحو مائة شخص، بينما أخذ شرطيان يغلقان بشريط الطريق المؤدي إلى المتنزه، وخلفهما أخذت صفارات الإنذار تدوي، ومرت سيارتا شرطة في الحارة الضيقة ثم توقفتا أمام الجراج. أسرعت مارين خطواتها. قالت:

- أتعتقد أنه شيء له علاقة بهانيس؟

رد ياريس من دون أن يسرع الخطى:

- لا، بالتأكيد لا شيء غير أن قطة تقبع فوق شجرة. أنت تعرفين الناس، إنهم يتصلون بالشرطة لأتفه الأسباب.

قالت مارين:

- كلام فارغ. انظر، هناك، شخص على السطح، لا أصدق، على سطح منزلي. غير معقول!

حتى التلفزيون كان هناك، وعلى الواجهة ومض ضوء الشرطة الأزرق، وعكست كاميرات التلفونات المحمولة المنظر عشرات المرات، وفي كل صورة ستظهر لاحقًا ستارة غرفة نوم مارين المخططة بالأزرق والأبيض، وسيظهر كذلك نبات الصبار الصغير على حافة النافذة، الذي أزهر هذا العام للمرة الأولى. قالت لياريس:

- هذا كابوس. لقد أغلقوا كل الطرق. ماذا أفعل الآن؟

قال ياريس مبتسمًا:

- تأتين معي إلى باريس مثلًا. لا يمكنك الدخول هنا على أية حال. لديَّ ليومين غرفة مزدوجة تطل على القناة، وبعد ذلك فلورنسا. فكري في الأمر. قد تكون هذه إشارة.

كانت مارين قد اقتربت من المنزل اقترابًا يسمح لها برؤية المرأة التي تسرع الخطى فوق الطوب بالأعلى، مثل حيوان رشيق مفزوع. كانت تعدو هنا وهناك، تشد شعرها، تقرفص، وتسد أذنيها، تتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف، ثم تستقيم قامتها بسرعة مرة أخرى، وتجدف بذراعيها، ثم تمسك بطوبة وتلقي بها إلى أسفل، على الشارع. فكرت مارين: لو كنتُ رشيقة هكذا، لن أنتحر أبدًا.

قالت:

- لا بد أن تبتعد الفتاة عن هنا، لا بد أن تبتعد عن هنا فورًا. لا أستطيع الحياة تحت سطح قفز منه شخص لينتحر، هذه على الأرجح نكتة سمجة، على الأرجح سيستطيعون أن يلتقطوها.

شقت طريقها بصعوبة إلى الشرطة أمام الحاجز.

تتبعها باريس من قرب، هو أيضًا كان قد شغل كاميرا المحمول. لم يقل سوى:

- جنون. جنون خالص.

عندما استطاعت مارين أن تمسك شرطية من كم سترتها، قالت لها:

- معذرة، معذرة، أنا أسكن في المنزل، وأود أن أصعد إلى شقتي.

استدارت الشرطية، كان وجهها محمرًّا جدًّا، وجبينها ملتصقًا بـ«الكاب» ويتفصد عرقًا. «الاسم؟»، كان كل ما قالته.

ردت مارين:

- فريتشه. مارين فريتشه، الطابق الرابع، انظري، هناك بالأعلى، الستائر المخططة بالأزرق والأبيض، هذه غرفة نومي.

هزت الشرطية كتفيها:

في الوقت الحالي لا نستطيع أن نسمح لأحد بدخول المنزل. إنك

ترين ما يحدث في الأعلى. اتصلي بقسم الشرطة في وسط المدينة، إذا كنت بحاجة ماسة إلى شيء، أدوية مثلًا. هناك سيساعدونك.

استدارت الشرطية مرة أخرى وأعطتها ظهرها، انتهى الحوار على ما يبدو بالنسبة إليها. كورت مارين قبضتيها. يا لها من وقاحة! وعمومًا، ما الذي يجعل هذه المرأة الوقحة تظن أن مارين بحاجة إلى أدوية؟ الآن فحسب اكتشفت هناك في النافذة تحت السطح رأس رجل، على الأرجح شرطي. بدا أنه يحاول إقناع المرأة، لكنها لم تعره اهتمامًا، كانت تبحث عن شيء في دلو مليء بأدوات الحديقة، ثم أخرجت شيئًا ذا مقبض أحمر، مقصًا لتقليم الشجر مثلما اتضح عندما اصطدم هذا الشيء بالأسفلت.

هزت مارين رأسها، وقالت لياريس:

- لا يمكن أن يكون كل هذا حقيقيًّا! هذا هو شباك حمَّامنا، على الأرجح يقف الشرطي الآن على غطاء المرحاض، إنه يقف على غطاء المرحاض في حمَّامي الملعون! لا أفهم ما يحدث! طلقة مطاطية، شبكة للقفها، وينتهي الموضوع، لا بد أنهم يقدرون على التعامل مع شيء بسيط كهذا!

تحدثت عمدًا بصوت عالٍ، لكن الشرطية لم تعلِّق.

ضحك ياريس بصبيانية. استدارت مارين، لو استطاعت أن تصفعه! بدلًا من ذلك، راحت تبحث في حقيبة يدها عن هاتفها، وحاولت أن تتصل بهانيس. قال ياريس:

- على الأرجح سيستمر الأمر هنا وقتًا طويلًا. سأذهب إلى المقهى في الناحية الأخرى وآكل شيئًا. أكاد أموت جوعًا. ربما أراكِ مرة أخرى، سأسافر بعد نحو ساعة ونصف، أوكي؟

لم يكن سؤالًا، بل تملصًا منها. طبع ياريس قبلة على خدها وانصرف.

لم يرُد هانيس. ضغطت على زر إعادة الاتصال، وحاولت مرة ثانية، وثالثة، ورابعة، ثم كفت عن ذلك. شدت مرة أخرى كمَّ الشرطية، وقالت:

- معذرة، من فضلِك!

لا رد فعل. فاض بها الكيل الآن. في البداية تلك المرأة في محلها، جلدٌ على عظم، والآن هذه المجنونة النحيلة بالأعلى على سطح بيتها، وفي نهاية الميدان باريس الوسيم الذي يتهكم على كل شيء، لأنه لا يعنيه شيء، لأنه سيجلس غدًا في مقهى باريسي على قناة سان مارتان ويدخن سجائره التي لفها بنفسه. وهانيس؟ هذا الخائن اللعين؟ ربما يجلس الآن في مطعم البنك، ويأكل «الساشيمي» الياباني مع سلطة طحالب، أو قد يكون الأمر أسوأ، ربما يلتهم مساعِدةً قليلة الدسم على الأريكة النباتية المصنوعة من الجلد الاصطناعي في قاعة استقبال العملاء. وحتى لو عاود الاتصال بها، فسيجعلها تشعر بأنها تزعج مسار يومه المثالي، وأن كل هذا لا يعنيه أيضًا. فهي، مارين، لم تعد تعنيه في شيء منذ وقت طويل. فجأة شعرت بنفسها محشورة بين كل هؤلاء الناس الثرثارين، العرقانين، المصوِّرين، وشعرت بحاجة ماسة إلى ضرب مَن حولها، في سيقانهم وأقدامهم. شعرت بالضيق من هذه المدينة الخانقة العفنة، التي لا تستطيع أن تقدم سوى المستوى المتوسط. لقد سئمت زهد هانيس الجديد، وبرودة مشاعره الملعونة. سئمت إلى أقصى حد أن تكون المرأة المطيعة، المتحكمة في مشاعرها، المستقيمة، سئمت ذلك إلى حد أن قبضتيها تتكوران من تلقاء نفسيهما، وإلى حد أن شفتيها تحولتا إلى شريط نحيل قاس. كفى خنوعًا، وموافقة، وابتسامًا، كفى، فورًا. أول شيء: الجوارب الطويلة. فليرَ الجميع ساقيها الشاحبتين ذواتي النتوءات والعروق البارزة، نعم! انحنت مارين، وانتزعت النسيج المرن، وشعرت بأظافرها وهي تثقب الجورب، «راتش!»، يا له من إحساس رائع بارد حول الركبة، خلعت حذاءها، ودست الجوارب الرطبة في حقيبة يدها، وارتدت حذاءها مرة أخرى بدون جوارب. تفصد العرق منها، عدة قطرات من العرق انسالت من منبت شعرها على وجهها في الوقت نفسه. طز! ليست مشكلتها. انهمكت في البحث عن رقم باريس في هاتفها،

ثم اتصلت به. لم يُجب إلا بعد الرنة الخامسة. قالت له وهي تستمتع بكل كلمة كأنها من الكراميل المملح:

- أتعرف؟ لقد فكرت في الأمر. سآتي معك. عليك أن تطلعني على باريس الخاصة بك. أو، إذا أردت، يمكنك أن تعُد النمش على بشرتي. أين تقف سيارتك؟

رد باريس بكلام متقطع:

- آه، أوكي، إذن، واو، هذا ما أسميه: تلقائية.

كان يقف على الجانب الآخر في موقف السيارات بجانب مقهى روزفينا، كان بإمكانها أن تراه، مضطربًا راح يمر بيده في شعره. قالت مارين:

- دعنا نسافر!

سأل:

- فورًا؟

قالت مارين:

- متى، إن لم يكن الآن؟ أريد الرحيل عن هنا. بإمكاننا أن نتناول طعامنا في الطريق. إنني أراك. أمهلني خمس دقائق، سأشتري شيئًا فحسب.

قبل أن يستطيع باريس الرد، كانت قد أغلقت الهاتف. سارت إلى المحل الصغير في الزاوية الأخرى من الميدان، شاقةً طريقها بكوعين مرفوعين قليلًا، وتجاوزت بنشاط المنتظرين في الطابور، لم يقل أحد شيئًا، بدا عليها أن من الأفضل تجاهلها، دعوها تمر، وأوسَعوا لها المكان.

لم تتردد مارين طويلًا، بحسم مدت يدها إلى الأرفف، وتناولت الضروريات فحسب: مزيل رائحة العرق، ماكينة حلاقة، فرشاة أسنان، موزًا، مياهًا، وعبوة واقٍ ذكري.

فِن

- هيا، اقفزي أخيرًا يا قطة!

هكذا صاح أحد الواقفين خلف فِن مباشرة، أحد الذين يضغطون بكروشهم على حاجز الشرطة وينتظرون أن يحدث أخيرًا شيء يُستحق من أجله الوقوف في الشمس هكذا، مراهقٌ بشارب ضئيل فوق شفته العليا. أمام أقدام رجال الإطفاء ذوي الخوذات تهشم قالب من قرميد السطح. ارتعد فِن. ثم قالب ثانٍ، ثم ثالث. شاهد فِن الرجالَ يرفعون الدروع فوق الخوذات، ثم حذاء مانو المطاطي يطير في قيظ الظهيرة إلى أن استقر بفرقعة خافتة على أحد الدروع المرفوعة. قال فِن لنفسه: لا بد أن هؤلاء الرجال يعرقون عرقًا فظيعًا. وأيضًا: ستصاب مانو بضربة شمس.

صرخت مانو:

- أيها السذج. أيها السذج المساكين، انصرفوا من هنا، خذوا وساداتكم الهوائية اللعينة واذهبوا إلى بيوتكم، لن أنزل إلا بعد أن تنصرفوا.

أخذت تنزع قالبًا بعد قالب من مكانه المثبت في السطح، ثم رصت القوالب بجانب المدخنة، وباعتناء كانت تعدل من وضع الرصة بكفيها. كان فِن يعلم أن ملامح وجهها جادة خلال ذلك، حتى إن كان لا يرى الآن سوى مؤخر رأسها. هذه الجدية الأبية في كل حركة من حركاتها. رفع يده ونادى باسمها، ثم لوَّح، ونادى ثانية، لكن مانو لم تسمعه، كانت تعطيه ظهرها وتواصل نزع قوالب القرميد من السطح. وبين الحين

والآخر تستدير وتقذف بشيء في الشارع، قالب من القرميد أو أداة من أدوات البستنة.

نقر شخص على كتفه اليسرى وسأله:

- معذرة، هل تعرف المرأة؟

انتزع فِن بصره من مانو، ونظر إلى وجه الشرطي الذي ظهر أمامه وهو يمسك في يده بجهاز لاسلكي. بجانبه وقفت شرطية شابة ذات رأس أحمر. كررت السؤال:

- لقد ناديت المرأة باسمها، هل تعرفها؟

كان فم فِن جافًّا، بذل مجهودًا كي يتحدث:

- ماذا يحدث هنا؟ ماذا حدث لمانو، لماذا تقف هناك بالأعلى؟

خلع الشرطي «الكاب»، واستخدمه هَوَّايةً. قال:

- هذا ما نحاول معرفته. ولهذا من المهم أن تقول لنا كل شيء تعرفه عن المرأة. كارولا، تولّي الأمر!

وضع جهاز اللاسلكي في يد الشرطية الشابة، ثم أضاف:

- وأخبري فيلكس فوق بمجرد أن تعرفي المزيد.

قالت الشرطية:

- إذن، ماذا تستطيع أن تقول لنا بشأن المرأة؟

تطلع فِن إلى وجه الشرطية المتصبب عرقًا، ثم إلى دفتر الملاحظات في يدها، وإلى القلم الرصاص الذي أدارته بين أصابعها. كان يعرف رائحة مانو في الفجوة بين العنق والترقوة، ويعرف أنها تحب أن توجد بالقرب من المياه، وأنها تقلق دائمًا بشأن نباتات البلاد إذا مرت ثلاثة أيام لم يسقط فيها المطر، وأنها درست علم الأحياء، وبجانب دراستها عملت في الحديقة النباتية، وأنها أرادت إنهاء دراستها برسالة عن «النوكتيليوكا»، هذه الكائنات الدقيقة ذات الخلية الواحدة، مصدر الإنارة الزرقاء في البحر، وأن هذه الكائنات تُدعى «سوطيات دوارة»، وأن هذه العبارة تجعل عينَي مانو تبرقان، وأن شيئًا ما

في الجامعة لم يسر كما كانت تأمل، شيئًا لا تتحدث عنه مانو، وحتى عندما تصمت بشأنه، فإن لمعان عينيها ينطفئ. ولهذا فإنها تعمل «بستانية بالقطعة»، هكذا تطلق على الأمر، وشرحت له أن ذلك يعني أن يذهب الحرفي إلى الزبائن في بيوتهم عندما يتصلون به. تهتم بأمر جُزر المرور والمقابر، وبالحدائق الخلفية وأحواض الزرع في ضواحي المدينة؛ ولا تكاد توجد نبتة في هذه المدينة لا تعرفها باسمها. كل هذا كان يعرفه. لكن ماذا تريد هناك على السطح، فهذا ما لا يعرفه. هل لذلك أي علاقة بشجارهما في الصباح؟

قال فِن:

- هذه هي مانو، صديقة... صديقتي. لا بد أن كل هذا سوء تفاهم، لا أستطيع أن أتخيل أنها تريد أن تقفز من أعلى.

سجلت الموظفة ما قاله، وسألته:

- مانويلا إذن؟ الاسم العائلي؟

كان القلم الرصاص في يدها يرتعش، نافد الصبر.

ازدرد فِن ريقه، وقال:

- لا أعرف. لم تقله لي قَطُّ.

قالت الشرطية وهي تدون عبارة طويلة في دفترها:

- تبدو العلاقة بينكما وثيقة جدًا.

قال فِن:

- اسمعي، لا أسمح لك، ليس بمقدورك...

لم يكمل رده، إذ سمع رنين الهاتف المعلق بشريط لاصق على ذراعه. وَمَضَت كلمة «المكتب» على الشاشة.

- اللعنة!

قالها فِن إذ تذكر عينة النسيج في حقيبة الظهر، والصبي الصغير على طاولة العمليات.

صرخ هولجر عبر التلفون:

- أين أنت بحق الشيطان؟ ماذا حدث؟ هل تتنزه أم ماذا؟ لماذا لم تصل العينة الملعونة إلى المختبر حتى الآن؟

أبعد فِن الهاتف عن أذنه، كل شيء يدور في رأسه. أخذ عدة أنفاس عميقة، وشرع يشق طريقه في اتجاه المتنزه. وأخيرًا قال لهولجر:

- أردت أن أتصل بك في الحال. لقد استولت الشرطة على دراجتي، اصطدمت بحواجز عند المتنزه، لا يمكن فعل شيء، أنا آسف.

قال هولجر:

- أيها الغبي! قف أمام باب أحد المنازل وأعطني العنوان، لقد وصل سيلاس إلى المتنزه تقريبًا، سأرسله إليك. وسنتحدث لاحقًا.

فرك فِن عينيه، ولاحظ أنه يبكي، بلا صوت، انقبض حجابه الحاجز. غمغم:

- حظ زفت! زفت، زفت، زفت!

ألقى نظرة على المتنزه في الناحية الأخرى، فوجد مكانًا لحاويات الزجاج المستخدم. ركض هناك وخبأ دراجته خلف الحاويات. رأى خوذة سيلاس الفضية تبرق من بين الأشجار، لم يعد لديه وقت لقفل الدراجة. ركض فِن عبر الشارع، ووقف أمام المنزل رقم ١٥، ثم أعطى هولجر العنوان، على الرغم من أنه كان قد حدد مكان سيلاس.

قال سيلاس لاهثًا، وهو يهبط من الدراجة:

- ماذا تفعل يا أخي؟ لم أرَ هولجر غاضبًا هكذا قَطُّ، لقد صرخ في وجه نصف الذين يعملون في المكتب، حتى الحصالة على شكل خنزير قذف بها على الحائط.

منفعلًا رد فِن:

- وما ذنبي إذا كان نصف الشرطة متجمعًا هنا؟

تلفت سيلاس حوله، ثم قال:

- حظ ملعون. إنها نهاية العالم.

ربت على كتف فِن مهدئًا، ثم أضاف:

- سيتمالك هولجر نفسه مرة أخرى، سأتحدث معه. لكن خسارة الدراجة! لن تراها أبدًا. العينة معك؟

مد فِن يده في حقيبة الظهر؛ كانت يداه ترتعشان، وعمومًا جسده كله يرتعش، أمِل ألا يلاحظ سيلاس ذلك. قال له وهو يمد يده بالكيس البلاستيكي المفرغ من الهواء:

- تفضل.

دس سيلاس العينة وأشار في اتجاه مانو:

- كأني أعرفها. أليست هي التي كانت مؤخرًا تزرع النباتات وتعتني بها في الجزيرة المرورية أمام المكتب؟ لقد تجاهلتني تمامًا. «ليدي» صارمة فعلًا. على ما يبدو كنتُ محظوظًا. تخيل أن تبدأ شيئًا مع عروس مهووسة كهذه. لن تجلب إلا المشكلات، وفي النهاية...

صاح فِن:

- اخرس تمامًا أيها المتباهي الملعون!

ثم دفع سيلاس دفعة كانت قوية إلى حد أفزعه شخصيًا. تأرجح سيلاس على دراجته، وسقط بجانبه في الشارع، وضلوعه على الجزء الأوسط من المقود. حملق في فِن، غير مصدق أكثر منه غاضبًا. بسرعة نهض، ومسح فمه بظهر يده.

عدَّل من وضع خوذته، ثم قال:

- أوكي، من حسن حظك أن هذه العينة مستعجلة. أنتظر فعلًا تفسيرًا لما فعلتَ.

لم يكد فِن يستطيع أن يفتح فمه كي يعتذر، حتى كان سيلاس قد انطلق مبتعدًا. لم يدرِ، هل دفعه غضبًا من مانو، أم حبًا فيها؟ سمع في تلك اللحظة مرة أخرى الأصوات حوله، حديث الناس الفوضوي، صفارة إنذار الإطفاء، الصبي الذي صرخ بأن على مانو أن تقفز أخيرًا، صوت تحطُّم قالب القرميد

في الشارع. لاحظ أنه يتنفس بصعوبة، كأنه كان يعدو. وعندما رفع رأسه، رأى رجلين يلتقطان فيديو له بجهازي الهاتف. ولّد منظرهما في نفسه لامبالاة غريبة، أثقلت أطرافه من الداخل. استدار ببساطة، ورفع حقيبة الظهر. لا تزال مانو على السطح تنفس عن غضبها. ببطء طار دلو المايونيز الأبيض في الهواء، وهبط أمام قدمَي الشرطية الشابة. أزاحته بسن حذائها جانبًا، مثل شيء لا يعنيها. حمل فِن حقيبة الظهر، وشق طريقه من جديد وسط الحشد. سيصعد الآن إلى فوق، إلى مانو. سيقول لها: هيا، انسي الأغبياء الذين يقفون بالأسفل، فلننقذ نبات الصبّار، نباتك.

فيلكس

غمغم فيلكس في كوعه: لو كنت أعرف ذلك! مثل كشاف ضوء حارق كانت الشمس في السماء. شعر بأن الأضواء مسلطة عليه، بأنه مثل شيء معروض على الملأ، كأنه يقف على خشبة مسرح بلا ستارة. حاول مجددًا التقاط نظرة المرأة، على الأقل ذلك. إذا كان لا يستطيع حتى أن يناديها باسمها الكامل. كيف، بحق السماء، لا يستطيعون معرفة اسم عائلة المرأة حتى الآن! نصف المدينة الملعونة تنتظر بالأسفل منذ فترة طويلة، لكنهم لا يعرفون اسمها. «مانويلا». هذا كل شيء. ومن الواضح أنها لا تستجيب عند سماع الاسم. يُذكره جَلَدها، وكذلك حركاتها ذات الزوايا الحادة التي تشبه حركات الطائر، بالراقصات في العروض المعاصرة التي كانت مونيك تأخذه إليها طوال فترة. وبالاستياء نفسه الذي كان يشعر به وهو يجلس آنذاك على كرسي بلاستيكي في مخزن غلال ما، أو في محطة وقود تحولت إلى مسرح، هكذا يشعر الآن وهو يقف على غطاء المرحاض هذا. مثل ممثل مجبر على التمثيل في عرض من إخراج أحد المخرجين ذوي النظارات السميكة الذين كانت مونيك متيمة بهم، أحد هؤلاء الذين يفهمون العالم، والذين يرتدون حذاء يتوافق رباطه مع القميص، الذين يُصابون بانزلاق غضروفي في عمر الخامسة والثلاثين من كثرة الجلوس وشرب الكابوتشينو وفهم العالم. عرض مسرحي على كل حال، لم يفهم منه شيئًا وكان يود أن يغادره قبل انتهائه. قالها فيلكس لنفسه: مونيك، مونيك، مونيك، دعيني أؤدي عملي!

كانت المرأة تلهث، وكان يرى ارتعاش عضلات ساقيها النحيلتين، وبشرتها المجروحة في يديها اللتين انتزعت بهما قوالب القرميد من مكانها. حرقت الشمس كتفيها، وملأت الخدوش ركبتيها. لن تستطيع التحمل طويلًا. هو أيضًا أصبح خائر القوى، ولم يعد يتحرك إلا بالكاد، إنه ينطق فحسب باسم «مانويلا»، بصوت مبحوح مرة بعد أخرى. ها هي! ها هي مرة أخرى عيناها الحانقتان. ثبتت بصرها عليه، وركزته خصيصًا على صبره النافد.

بهدوء قال فيلكس:

- مانويلا، إذا نزلتِ الآن، أؤكد لك أنك لن تُجبَري على الحديث مع أحد. سأتكفل بذلك. سيتركونك في سلام، أعدك بهذا. هذا هو ما تريدينه، أليس كذلك؟ إنك تريدين أن يتركوك في سلام.

اقتربت منه. اقتربت إلى حد جعله يرى الغضب ينبض في عروق رقبتها. قرفصت من دون أن تحول بصرها عنه. تريثت. لقد سئمت. لديها وقته، ووقت كل الناس في الشارع، لديها كل وقت العالم.

قالت:

- ما حكايتك أيها الشرطي؟ ألا يجب عليك الذهاب إلى البيت لإطعام القطط؟ اذهب. امشِ. لا أحتاج إليك هنا. لا أحد يحتاج إليك هنا.

كان هذا كل شيء. مرة أخرى راحت تحاول انتزاع أحد القوالب الذي أرادت اقتلاعه من السطح منذ فترة، لكنه استعصى عليها إذ كان مثبتًا جيدًا. خلعت الفردة اليسرى من حذائها ذي الرقبة، وشرعت تخبط على القالب. نظر فيلكس إلى الساعة، لقد تجاوزت الواحدة ظهرًا بقليل. منذ ثلاث ساعات يقف هنا بالأعلى، لم يسبق قَطُّ أن استغرقت عملية إنقاذ شخص من الانتحار مثل هذه المدة الطويلة. كان فيلكس قد حاول كل شيء، لتوريط المرأة في حديث معه. كل ما تعلمه في الدورة. لم يسفر ذلك عن أي شيء. ودائمًا، عندما تستدير المرأة وتقل حدة الموقف بضع دقائق، يشعر فيلكس بحاجة ماسة إلى التبول. منذ ما يزيد على

ساعة. شيئًا فشيئًا أصبح الألم في مثانته لا يُطاق. وقوفه تحديدًا على غطاء مرحاض لم يخفف عنه. لا يمكن أن يتخفف في حضور زميلته، وأن يرسلها خارجًا كان أيضًا أمرًا مستبعدًا، فماذا إذا فعلت امرأة السطح شيئًا في أثناء تبوله؟ كان الخطر عظيمًا جدًّا إذا صعد إليها على السطح لتسريع الأمر، المخاطرة كبيرة جدًّا أن تُنفذ عندئذ ما تنوي عليه. رئيس المفتشين بلازر منعه من ذلك صراحةً. في البداية، عندما حل فيلكس محل بلازر، كانت لا تزال هادئة، كانت تقف فحسب على حافة السطح ناظرة إلى أسفل، أو تنسحب أحيانًا خلف المدخنة. كانت تدير رأسها عندما يناديها، وتبدو مذعورة أكثر منها غاضبة. لكن منذ أن استدعى بلازر كل هؤلاء، أفراد الإطفاء وعربات الإسعاف، وأربع سيارات من الشرطة دعمًا للفريق، والوسادة الهوائية، وفريق العمليات بمعداته الواقية، منذئذٍ هي متوترة وسريعة الانفعال، يكاد الهلع يسيطر عليها. لا عجب. بلازر، هذا الغبي. يقف بالأسفل مستمتعًا بتزاحم الناس، وتدافعهم حول الحواجز. لقد استدعى حتى الصحفيين، آكلي الجيفة الملاعين هؤلاء، لا لشيء إلا ليشعر بأهميته، وحتى يستطيع أن يقطع صورة وجهه الدهني فيما بعد من الصفحة الأولى للصحف المحلية المجانية. منذ ساعة وعده بأن يرسل إليه سُلمًا وشخصًا يحل محله، لكنه بدلًا من ذلك يدع المصورين يصورونه أمام عربات الإسعاف، ويأمر بتزيين الحي بالشريط البلاستيكي الرقيق الذي يمنع الدخول، كأنه يقف أمام قبو يُقام فيه احتفال. إخلاء الميدان: هذا إجراء جيد، بدلًا من جذب مزيد من الفضوليين عبر كل المؤثرات الخاصة. ألديهم جميعًا إجازة اليوم؟ ألا يجب على أي أحد منهم الذهاب إلى أي مكان؟ لفترة تجاهل الضجيج الصادر عن المتزاحمين بالأسفل، لكنه الآن يسمع مرة أخرى يصيحون: «اقفزي يا قطة»، و«فاااشلة!» أو: «اخلعي ملابسك، اخلعي، اخلعي»...

كزَّ فيلكس على أسنانه. من مكان ما تصاعدت رائحة شواء السجق. كان جائعًا. ولا بد أن يتبول. المثانة الممتلئة تضغط على أسفل بطنه. مرة أخرى نادى المرأة، ناداها باسمها. قال:

- من أي شيء أنت خائفة يا مانويلا؟ ما الذي يجعلك غاضبة هكذا؟

كان يعلم أنها ليست الأسئلة المناسبة. ينبغي في الحقيقة توريطها في حديث يجعلها تفكر في شيء جميل، في شيء تحبه. حتى لو كان هو شخصيًّا يفشل في ذلك، فإنه ينجح غالبًا في جعل الآخرين يفكرون في شيء يسبب لهم الراحة ويطلق طاقة إيجابية لديهم؛ صور، أو ذكريات، أو مشروعات. لكن الأسئلة نفدت من عنده بعد ثلاث ساعات. حاول أن يتذكر دروس الدورة التدريبية. لكن مانويلا لا تصغي إليه على كل حال، إنها تعيش في عالمها الخاص، وكأنها أغلقت على نفسها وتركت المفتاح في القفل من الداخل. كلما طالت المدة التي يراقبها فيها، ترسخ شعوره بأنها لا تريد الانتحار، بأنه لم يكن في نيتها قَطُّ. ربما أصبحت تفكر الآن في الانتحار، فقط لأن هؤلاء الأغبياء بالأسفل يجعلونها تفكر فيه.

غمغم فيلكس في جهاز اللاسلكي:

- بلازر، اللعنة، أين مَن سيحل محلي؟ وهل حصلت على اسم المرأة؟ هل نعرف أي شيء عنها؟ شيئًا فشيئًا لم يعد لديَّ شيء أقوله لها.

رد بلازر:

- من سيحل محلك في الطريق. ما زال برونو في عملية أخرى في الطريق السريع. لا أستطيع أن أرسل إليك شخصًا آخر. لا بد أن تتحمل الأمر فترة إضافية. لكن صديق المرأة لدينا هنا. سأرسله إليك، ربما يفيد ذلك، بإمكانه بالتأكيد أن يعطيك معلومات أكثر.

قال فيلكس:

- تمام، ومن فضلك، اعمل لي معروفًا، واصرف الناس أخيرًا، إنهم لا يزيدون الطين إلا بلة، إنهم يشوشون عليها تمامًا.

- أتريد أن تشرح لي عملي؟ لدينا في الوقت الحالي مشكلات أخرى تمامًا. أدِّ عملك هناك في الأعلى، وأنا أؤدّي عملي هنا في الأسفل.

غمغم فيلكس:

- حقير!

سمع نحنحة. استدار. كانت هيلين تقف عند الباب، لقد نسيها، طول الوقت وقفت هناك، بكامل عتادها، كانت تتصبب عرقًا، ويبدو عليها الإرهاق. أمل فيلكس في ألا يكون قد عبر عن أي من أفكاره بصوت عالٍ.

- أيمكنك أن تتولي هنا برهة؟

قالها، على الرغم من علمه بأن ذلك مخالف للتعليمات، لكنه كان يشعر بحاجة ماسة إلى التبول، إلى درجة أنه لم يعد يستطيع أن يفكر بوضوح. أضاف:

- أريد أن أبحث عن سُلَّم.

لم يكن ذلك باعثًا على الراحة لديها، لقد لاحظ ذلك، لكن عليها أن تتحمل. لم تكن تجرؤ على معارضته.

كانت الشقة تلمع من النظافة، طاولة المطبخ فارغة تمامًا، لا فتات، ولا كوب ماء، لا شيء. قال لنفسه: عاملة تنظيف. يأكلون في المطاعم. خمس غرف في هذا الموقع، الساكن هنا لا يترك أوساخًا. ليس لدى المرء وقت لذلك ببساطة. المرء لا يذهب إلى البيت إلا لينام أو ليتشاجر، هذا إذا تشاجر من الأساس. فتح فيلكس كل الأبواب، خلف بعضها لم يكن هناك سوى خِزانات عملاقة تملأ الجدار، مليئة بالصناديق البلاستيكية البيضاء نفسها. في كل غرفة أثاث عملاق حديث باللون الرمادي أو البيج، مزود بقوائم من الصلب الذي لا يصدأ، وعلى الجدران بعض الديكورات. أقوال مشهورة في إطارات مذهبة:

اختر السعادة

اغتنم اليوم

لم يجد فيلكس مرحاضًا في أي مكان، على ما يبدو فإن ذلك الذي وقف عليه هو الوحيد في الشقة كلها. فتح صنبور المياه في المطبخ، وبرشفات كبيرة أزال جفاف فمه. رفع رأسه وتأمل المياه التي جرت في البالوعة وهي تقرقر. بدأ يشعر بمثانته كأنها لسعة حشرة، لسعة تورمت تورمًا ضخمًا. أنصت. لا صوت. لا شيء سوى خطوات المرأة على السطح، وصيحات منفردة من حشود الفضوليين. فتح فيلكس الصنبور إلى آخره، وفتح سرواله. وقف على أطراف أصابعه. يا لها من راحة! اندفع كل الحرقان والضغط خارجًا منه. في هذه اللحظة لم يستطع أن يتذكر أنه كان يومًا يشعر بالامتنان لشيء مثل شعوره الآن تجاه هذا الحوض الفولاذي. أغلق الصنبور والسروال بسرعة. كل شيء على ما يرام. استند على حافة الحوض وتنفس الصعداء. الآن يشعر بأنه أفضل. عندما استدار، سدد نظرة في وجه كارولا الأحمر. كانت تقف في إطار الباب وتنظر إليه في ذهول. هل عرفت ما حدث؟ هل رأت حقًّا أنه خلال وقت العمل قد تبول على أطراف أصابعه في حوض المطبخ الفاخر في شقة غريبة؟

قالت كارولا:

- الصديق، أعني صديق المرأة. إنه الآن هنا. هذا ما أردت قوله.

وخلال ذهابها، من فوق كتفها، أضافت:

- آه، وبرونو عالق في الطريق. عليهم أن يوضحوا كيف حدثت الحادثة، على ما يبدو فإن فوضى كبيرة سائدة هناك. يُجري بلازر اتصالات تلفونية الآن حتى يجد زميلًا مؤهلًا يحل محلك. الأمر صعب، بسبب دورة التدريب.

في الحمَّام كانت هيلين تقف على سلم قابل للطي، لا بد أن كارولا أحضرته معها. متخشبة وبلا حراك وقفت هناك، مثل شخص يقف في البرد منتظرًا الباص. على حافة البانيو جلس شاب طويل، نحيف، يرتدي ملابس قيادة الدراجة. قفز على الفور بمجرد أن لمح فيلكس. اليد التي صافحه بها باردة ومرتعشة، عيناه محمرتان كأنه كان يبكي. قال:

- فِن. فِن هولتسر، أنا صديقها، أعني صديق مانو. هل أستطيع أن أذهب إليها، هل أستطيع التحدث معها؟ كل ما يحدث هو سوء تفاهم، أنا متأكد.

قرر فيلكس ألا يعذب الشاب بالشكليات. بعد ذلك لديهما ما يكفي من الوقت.

قال مشيرًا إلى السلم:

- اصعد عليه. لكن ستكون هذه مخاطرة هائلة. أفهمتني؟ لا تخرج بأي حال من الأحوال إلى السطح! حاول أن تتحدث معها عن موضوعات إيجابية، عن شيء تحبه.

أومأ فِن. وقف فيلكس خلفه على السلم، بحيث يرى ما يحدث على السطح. جلست المرأة في وضع القرفصاء أمام كومة من قوالب القرميد، واضعة رأسها بين يديها.

ناداها الشاب قائلًا:

- مانو، أنا هنا يا مانو.

رفعت رأسها، وبقيت في مكانها وهي تعض على شفتها السفلى بسرعة وبتركيز، كأنه عمل عليها أن تنجزه بأي ثمن، قبل أن تجيب.

واصل فِن كلامه:

- مانو، ماذا تفعلين هنا؟

بدا كأنه يضغط على كل حرف. من دون أن تنهض، دارت بحذائها حول محورها إلى أن أصبحت تجلس في مواجهتهما. ثم قالت أخيرًا:

- أنا عطشانة. هل يمكنك أن تُحضر لي شيئًا أشربه، من فضلك؟ هل تستطيع أن تفعل ذلك من أجلي؟ وسجائر. أحتاج إلى سجائر أيضًا.

قال فِن:

- بالتأكيد. طبعًا سأفعل ذلك. جوعانة؟ هل أحضر لك شيئًا تأكلينه؟ ربما طماطم، أنت تحبينها جدًّا.

لكن المرأة دارت لتعود إلى وضعها السابق، ورأسها بين يديها. لقد تحدثت على أيِ حال، وعبرت عن احتياج ما، لأول مرة.

صاح فِن مرة أخرى:

- مانو، انظري إليَّ يا مانو.

لا رد فعل. استدار فِن ليواجه فيلكس، كان يصارع دموعه. قال فِن:

- لم تعد تجيب.

حاول أن يبتسم، لكنه أخفق.

رد فيلكس:

- لا تقلق، ستتصرف. اذهب الآن لإحضار الأشياء. هذه فكرة جيدة، وبذلك ربما تقترب أكثر من الشباك. في الناحية الأخرى، في حارة شنايدر، محل صغير، ستجد هناك كل شيء. وعندئذ سنرى.

دعك فِن وجهه مثل شخص يريد أن يستيقظ:

- ألا تستطيع أن تنصرف ببساطة، أن يختفي الجميع، أنا متأكد من أنها ستنزل عندئذ. لو أنا مكانها، لن أنزل أيضًا هكذا. مطلقًا. ليس هكذا.

شعر فيلكس بالأسف تجاه فِن، فقال له:

- أفهم ما تعنيه. لكن إذا استدعانا أحد، فلا بد أن نبقى إلى أن تُحل المشكلة. لا نستطيع الانصراف في منتصف الطريق.

تراجع فيلكس كي ينزل الشاب من السلم، ثم ربت على كتفه، وقال في إثره:

- سيصبح كل شيء على ما يرام. سترى.

عبر الدهليز سمع فيلكس صوت بلازر، على ما يبدو فإنه في طريقه إلى هنا. وهذا أيضًا!

عندما وصل بلازر إلى باب الحمَّام قال:

- اقتربوا جميعًا! إلا أنتِ، يا هيلين، ستبقين في مكانك، اتفقنا؟

أومأت هيلين. وقف بلازر هناك وقد باعد بين قدميه، وأمسك بكلتا يديه

حزامه، كانت وقفته مصطنعة ومدروسة، تعلمها من المسلسلات البوليسية الأمريكية السيئة. قال:

- استطعنا أن نفتح الباب المؤدي إلى العُلِّية، هناك في الخلف، بفضل الزردية الكبيرة.

ما زالت يداه على الحزام، برأسه فحسب أشار في اتجاه مانو، وواصل قائلًا:

- يمكن الوصول الآن إلى الشباك، هناك، وبذلك يمكن بشكل أفضل بكثير يا فيلكس الوصول إليها، فالشباك أكثر قربًا من المنتصف، ويمكنك أن تخرج بنصفك العلوي مسافة أكبر.

قال فيلكس:

- تمام. ماذا ننتظر إذن؟

أي تغيير كان مصدر سرور له. في الطريق إلى العُلِّية، وخلف ظهر بلازر المتصبب عرقًا، كشر فيلكس عن أنيابه في اتجاهه، فشعر بالراحة، إذ انتابته رغبة لفعل ذلك طيلة الصباح.

فتح بلازر الباب الخشبي المؤدي إلى العُلِّية وقال:

- تفضل!

سار في المقدمة، وراح يعبث بقفل السلسلة المقطوعة أمام أنف فيلكس:

- اطلع!

شرع بلازر في زحزحة كومود تحت الشباك من مكانه، كان الكومود مغطى بمفرش أبيض. خطا فيلكس خطوة في العُلِّية المنخفضة المكدسة بالأثاث، ثم توقف فجأة. تراقص الغبار في الشمس التي سطعت عبر شباك السقف، مثل قماش رقيق كان معلقًا في الهواء، في كل مكان، لقد ملأ المكان كله. تراجع فيلكس، فدهس قدم كارولا التي كانت تقف خلفه. صرخت متألمة. لم يقل فيلكس شيئًا، ولم يتحرك، بقي يحدق في الغرفة المغبرة فحسب. وفجأة شعر بالاختناق. وجد نفسه يتنفس بسرعة أكبر.

سمع شخصًا يسعل، بصوت عالٍ، ويزداد علوًّا، تحتم عليه أن يسد أذنيه، وأن يغلق عينيه. لم يكن يريد أن يرى الغبار، والأثاث المغطى بالملاءات، والكراكيب المنسية. استند بيده على إطار الباب، وشعر خلال ذلك بذراعه ترتعش، وكذلك يده، وساقاه. أسدل جفنيه بقوة، بذراعه المثنية ضغط على عينيه المغلقتين حتى تظلم الأجواء أكثر. دارت به العُلِّية، أرادت أن تقذفه، إلى الغبار المنتشر في كل مكان، في كل مكان، أرادت أن تفتح فمه عن آخره، وأن تحشوه بالتراب، حتى يصل إلى الرئة، إلى أن يتعذر التنفس تمامًا. يجب عليه أن يستنشق الهواء، بعمق وبسرعة، يشعر بالاختناق.

سمع بلازر يقول باحتقار:

- يا إلهي، فيلكس، لا نريد أن نقضي هنا طيلة النهار. هل أُصبت بضربة شمس، أم ماذا؟ ماذا جرى لك؟

شعر بأحدهم يدق على كتفه. وسمع كارولا تنطق باسمه، وسمعها تقول:

- أظن أنه فعلًا ليس على ما يرام، أيها الرئيس. انظر فقط إلى شحوبه.

شبك فيلكس ذراعيه حول جذعه، كان يريد أن تتوقف الرعشة، يريد أن يتنفس، أن يكون بمفرده، في مكان آخر وبمفرده.

قال بلازر:

- يا ربي! عليك إذن بالنزول يا فيلكس. هيا، خذ استراحة. لا أستطيع أن أعتمد عليك هنا. لقد قلت على الفور إنك بالأحرى شرطي مرور. تدعي الأهمية هنا، وتريد أن تشرح لي شغلي، وبعد قليل من الاضطراب تنهار فورًا. هيا يا كارولا، أنزليه، وأحضري له شيئًا يرفع سكر الدم المنخفض.

سمع فيلكس بلازر وهو يواصل حديثه، لكنه لم يفهم ما قاله، ارتفع صوت السعال، وملأ رأسه كله. شعر بأحدهم يسحبه من كوعه، يبعده عن السطح، وعن الغبار، شعر كيف تصبح الأرض ملساء تحت قدميه، شعر بأنه يسير الآن فوق بلاط أملس، سمع باب مصعد ينفتح وينغلق

ثانية، شعر بنفَسه يهبط، وبأن الضوء يتغير على جفنيه المنسدلين ثم بالمصعد يتوقف.

سمع كارولا تقول:

- هيا، سنخرج الآن، سنكون في الهواء الطلق.

لم يستطع فيلكس أن يفتح عينيه.

قادته كارولا، مارةً بالحشود، والصائحين والفضوليين. خطوة خطوة. إلى أن هدأت الأصوات. إلى أن وقفا في برودة سلم منزل كان يعرف رائحته. بمعونة كارولا جلس على إحدى الدرجات. ووضع يديه على عينيه. حاول أن يتنفس بهدوء. المكان هنا جيد. هنا، في المدخل الخلفي لمقهى روزفيتا، شعر بالأمان.

قالت كارولا:

- سأحضر لك ليمونادة. أوكي؟

أومأ فيلكس من دون أن يُبعد يديه عن وجهه. لم يفتح عينيه إلا بعد انصرافها. عبر الفرجات بين أصابعه رأى الباب المؤدي إلى الفناء الخلفي وسروال كارولا التي اختفت في اتجاه الشرفة. ركبتاه ترتعشان. أسنانه تصطك بعضها ببعض. وحده السمال في رأسه خفت بعض الشيء.

إرنستو

حامت النوارس فوق نافيليو جرانده، وصياحها لا يكاد يُسمع من صخب السياح الذين يملأون المطاعم والمقاهي على القناة الكبيرة ويمرحون فيها. أغلق إرنستو النافذة. غمغم قائلًا:

- «Parassiti»، طفيليات بائسة.

كان يريد في الحقيقة أن يسافر منذ مطلع الأسبوع، أن يكون في بيته الصيفي على ضفاف بحيرة كومو حيث يسود الهدوء أمام كل نافذة؛ فهو لا يطيق ميلانو في شهر مايو. لكنه لم ينتهِ بعد من تصميم المجموعة الجديدة، منذ أربعة أيام لم يغادر الأتيليه. حتى الروب الصباحي كان دافئًا أكثر من اللازم، لذا خلعه وألقاه على الأريكة؛ مرَّ تيار هوائي على الرسومات المثبتة على الجدار، ١٢٨ رسمة، مثبتة بإتقان بدبابيس ذهبية على الجدار المكسو بقماش أخضر باهت. لا يحب إرنستو النظر إليها. ليس مرة أخرى. بإمكانه أن يعيد رسمها مغمض العينين، يحتفظ بكل تفصيلة في رأسه. ما زال شيء ما ناقصًا، يعلم ذلك، شيء يجعل المجموعة متميزة، شيء يجمعها معًا، لكنه لا يعرف ماذا. سار على الأرضية الرخامية الباردة، قاطعًا الغرفة إلى الناحية الأخرى من الأتيليه حيث كانت النافذة الكبيرة المطلة على الباحة مفتوحة. هنا أفضل. لدخول الباحة كان يحتاج إلى مفتاح. لكن المفتاح لا يحصل عليه إلا مَن يسكن هنا، ومَن يسكن هنا يُقدر السكون مثلما يُقدر سلعة تَرفيَّة. تناول إرنستو من حافة النافذة القارورة التي تضم خلاصة زهور الشجيرات

الأسترالية. يعد السائل بالابتكار، والإلهام. أخرج إرنستو لسانه، ونقَّط بالقطَّارة اثنتي عشرة قطرة في فمه، وابتلعها، ثم راح يمسح الباحة بعينيه بحثًا عن تفصيل يمنحه فكرة، ببطء، سنتيمترًا بعد سنتيمتر: النوافذ العالية المبنية وفق طراز «اليوجندستيل»، التي جعلها الضوء الساطع في ذلك الوقت تبدو كأنها معدنية. ثم زهور البِتونيا التي تدلت من الصناديق مثل الباروكات التي تُرتدى في الكرنفال. النحل الطنان الذي نشط حول شجرة الأكاسيا بكسوتها طيلة العام. آثار أقدام ودراجات في الحصى المنثور حديثًا. اللون الأزرق الذي تقشر بفعل الريح والمطر في إحدى الدكك في وسط الباحة. الشابة والشاب من الطابق الثالث اللذان يرتديان دائمًا ملابس مماثلة، اليوم يرتديان تيشيرتًا مستديرًا عند الرقبة، بلون أصفر بشع، يَسمع حرفيًا طقطقة قماشه البوليستر. الهوائيات على الأسطح. مناديل «سِنيورا» روزتي المصنوعة من الكتان، المثبتة بمشابك خشبية على حبل الغسيل الأزرق. آثار الماء المتكثف تحت جهاز تهوية المطعم. قطة تتلاعب في فتور بورق تغليف ساندويتش. رأى إرنستو كل ذلك، ولم يساعده أي شيء منه. وعمومًا، أين النادل الذي يجب أن يحضر إليه العصير؟ لقد مضى بالتأكيد نصف ساعة منذ أن اتصل بالمطعم في الأسفل. لن ينزل بأي حال من الأحوال. اتصل بمساعده توماسو: عليه أن يُحْضر له عصيرًا، و«سوربيه» الشوكولا المثلج من المصنع عند بوابة تيسينيزه، نصف لتر، كلَّا، لم يتقدم، ولا قيد أنملة، إنها مأساة، أسوأ من أي وقت مضى.

عاريًا جلس على جهاز التجديف المنزلي، وشرع يجدف. جدف بلا هوادة، إلى الأمام وإلى الخلف، حتى رن توماسو الجرس، فجفف إرنستو بسرعة وجهه بمنشفة الأطباق، واندس متجهمًا في الروب الصباحي مرة أخرى. بذل توماسو قصارى جهده لإدخال السرور إلى نفسه، قائلًا:

– حتى الآن كنت دائمًا تجد حلًّا يا «سِنيوره». ولن تبقى هذه المرة أيضًا بلا فكرة جديدة.

أفرغ إرنستو الكيس البلاستيكي من المشتريات، ثم كوَّره وألقى به تجاه الرسومات. توماسو الطيب. لا يسمح بأي مصيبة. بدا مرحًا بقميصه الأصفر وبشعره المجعد الداكن الذي بدأ يشيب تدريجيًا حول السوالف. كان يبدو، حتى إذا لم يضحك، كأن شيئًا يبعث السرور في نفسه. الزبائن يحبونه، لا يذهب إرنستو إلى أي موعد من دون أن يصطحب معه توماسو. كان مستبشرًا على نحو مُعْدٍ. لكن، ولا حتى هذا أتى بنتيجة اليوم.

قال إرنستو:

- اصرفهم جميعًا ليذهبوا إلى منازلهم. لا أريد أن أقابل أحدًا عندما أنزل بعد قليل، لن أطيق سؤالًا آخر اليوم، ولا سؤالًا واحدًا.

أومأ توماسو. ثم قال وهو عند الباب تقريبًا:

- بعد إذنك يا «سِنيوره»، الأشياء التي يشتهيها المرء بحرقة، لا يجدها حيثما يبحث عنها، أليس كذلك؟ ربما عليك أن تفعل شيئًا لا تفعله في المعتاد. ومن الممكن أن يكون شيئًا تبغضه.

فتح إرنستو غطاء علبة «السوربيه»، وقال:

- وما هذا الشيء؟

قال توماسو قبل أن يسحب الباب خلفه:

- بالتأكيد تعرفه أفضل مني، «سِنيوره».

ترك إرنستو الروب يسقط على الأرض مرة أخرى، وتناول ملعقة وراح يديرها في «السوربيه». استغرق في التفكير. شيء يبغضه. بالتأكيد، بإمكانه أن ينزل ويحشر نفسه بين السياح، ويأكل بيتزا سيئة، ويعلن عن هويته ويسمح لهم بتصويره، لكن ليس هذا شيئًا لم يحدث قَطُّ، أو لم يعايشه من قبل. غمغم قائلًا لنفسه:

- «Che miseria»(*).

(*) يا له من بؤس. (المترجم).

شعر بالقيظ وعدم الراحة، إنه بحاجة إلى شيء يُدخل السرور إلى نفسه. مد يده نحو الهاتف، واتصل بصفحة «إكسبرس الزهور»، وراح يستعرض الزهور المعروضة للبيع، واختار «قُبلة الربيع»؛ باقة من زهور الهدرانج، والقنطريون العنبري، والفاوانيا، وعشبًا ما، لا يعرف اسمه. ولماذا لا يطلب باقتين؟ «حظًّا سعيدًا» منظرها ليس سيئًا؛ طلبها أيضًا. طوال دقائق شعر بنفسه أفضل، لعلمه أن الزهور في الطريق إليه. أفرغ العصير في جوفه، وأكل نصف عبوة «السوربيه»، واختار قميصًا وبنطالًا، وارتدى ملابسه، وصفف شعره المبلل خلف أذنيه، ووضع قليلًا من زيت الوجه، وابتلع بضع قطرات أخرى من خلاصة زهور الشجيرات. تناول هاتفه المحمول ونزل السلم اللولبي المؤدي إلى قاعة الشغل. حقًّا، لقد صرفهم توماسو جميعًا. لم يسمع سوى التكات المحذرة الصادرة عن الساعة ذات الصندوق الطويل، وفي نهاية القاعة كانت مكواة تنفث كل عدة ثوانٍ بعض البخار، نسي أحدهم أن ينزع القابس. بلا رؤوس انتصبت التماثيل النصفية ساكنةً بين طاولات العمل، وعليها الأرواب والمعاطف، جيش سيفقد معركة نيل الاهتمام إذا لم يعثر إرنستو بسرعة على فكرة جديدة. عادت إليه كآبته بعد أن تسلم الزهور بقليل. مثل بقعة يعتقد المرء أنه غسلها، لكنها تظهر مجددًا بمجرد أن يجف القماش. ملأ إرنستو مزهريتين بالماء، ونزع السيلوفان عن الباقتين، ووضعهما في الماء، واختار للمزهريتين طاولتين مختلفتين، ثم نقل إحداهما إلى «البوفيه»، ووضع كلتيهما على حافة النافذة، ثم نقل مزهرية إلى «البوفيه» في المطبخ، وأخيرًا أعادهما معًا إلى حافة النافذة. صاح لاعنًا:

- «Che diavolo»(*).

وجلس على الأريكة. غاص بين الوسائد، ومدد كل أطرافه. قد يكون عليه أن يطلب باقة زهور أخرى. نعم، قد تكون هذه فكرة جيدة. وقع بصره

(*) لتذهبا إلى الجحيم! (المترجم).

على جهاز التحكم عن بعد على الطاولة الصغيرة المصنوعة من خشب الساج. كان المصباح الصغير أسفل الشاشة المسطحة يومض، يومض له. منذ أكثر من عشرين عامًا لم يشاهد التلفزيون، لقد اشترى الجهاز خصيصًا للعاملين لديه، لأولئك الذين يعملون حتى الليل المتأخر. التلفزيون، هذا شيء يبغضه. كل البغض. تردد. ثم قال:

- «Perché no»؟(*)

وتناول جهاز التحكم عن بعد، الأمر يستحق المحاولة، فهو يشعر بالبؤس على كل حال. احتاج إلى بعض الوقت حتى عرف كيف يتنقل بين القنوات.

(*) لمَ لا؟ (المترجم).

فِني

فسحة رائعة بين الحصص. لم تعد لدى فِني رغبة في رفع المحمول فوق رأسها. كان بإمكانها أن تكون في المنزل منذ فترة، بفضل الدبابير. بدلًا من ذلك فإنها تقف وتصور منذ ما يزيد على عشرين دقيقة وسط الحشود. بسبب الحر كانت تشعر بالخمول، ومن موضع لسعات الدبابير بجانب مفصل يدها اليسرى شعرت بألم نابض. آخر جرعة ماء تناولتها في حصة الكيمياء. استدارت، بقدر الإمكان، باحثة عن الآخرين. تكوَّن طابور أمام المحل الصغير، لكنها لم ترَ سالومي والصبيان، على ما يبدو فقد زاحموا الناس لكي يقفوا في مقدمة الطابور، وعلى الأرجح يتقدمهم تيمو. سيُحضر أكياس «شيبس» ومشروبات، وسجائر أيضًا، هكذا تفاخر، وكلف فِني بأن تصور أفلام فيديو بجهاز «الآي فون» الخاص به، وهو ما فعلته. وعدها بآيس كريم في مقابل ذلك، من نوع «فينيتو»، النوع الذي تفضله. لذا تماسكت فِني وواصلت التصوير. مع أن ذراعيها تؤلمانها، وشعرها ملتصق بجبهتها من العرق، وهي تشعر بالجوع. تقف في المقدمة تمامًا خلف الحواجز، مرة بعد أخرى يدهس أحدهم قدمها أو يخبطها، وهكذا تهتز الصورة. نظر إليها البعض نظرة استهجان، وآخرون كانوا يصورون بأنفسهم، لكن لم يصمد أحد فترة طويلة مثل فِني. ليس لأنها فخورة بذلك. لم تكن مرتاحة لما تفعله. لقد شعرت بالأسف تجاه المرأة على السطح، التي بدت يائسة وكانت تشد شعرها، وعدة مرات دفنت رأسها بين ركبتيها قبل أن تهيج مرة

أخرى وتلقي شيئًا من السطح، قالب قرميد، قطعة ملابس، أو أداة يدوية. كانت فِني تعلم معنى أن يحملق الجميع في أحد، أن يسخروا منه، أو يصيحوا في وجهه بكلمات سخيفة، مع أن كل ما يريده المرء هو أن يتركوه في سلام. تعرف فِني أيضًا معنى أن يقف أحد على السطح، في المقدمة تمامًا قرب الحافة، وينظر إلى أسفل، ويتخيل كيف سيطير، كيف سترفرف الملابس خلال سقوطه، وسيصفر الهواء في أذنيه، ثم سيرتطم بالأرض، وينتهي كل شيء. كل شيء. ولهذا تحديدًا، يجب عليها ألا تتوقف عن التصوير. آيس كريم «فينيتو». من تيمو. إذا أدت التكليف بضمير، فقد يتغير كل شيء. قد لا تريد عندئذٍ أن تصعد مرة أخرى على أحد الأسطح، ولا تحبس نفسها في دورة المياه خلال الفسحة الكبيرة. أتشعر المرأة أيضًا بالخوف من أحد؟ هل تشعر بأنها مستبعَدة؟ تبدو في الحقيقة جميلة جدًّا، وليس كشخص يسخر منه الآخرون أو يتشاجرون معه.

- هل فاتنا شيء؟

لكمها تيمو من الجانب في عضدها، فانزلق الهاتف من يدها. استطاع نيلس، الذي كان يقف خلف تيمو، أن يلتقطه قبل أن يسقط.

قالت فِني:

- عدة قوالب من القرميد طارت في الهواء، ومقص شجر. أين الآخرون؟

قال تيمو:

- الجو هنا في الأمام حار جدًّا بالنسبة إلى سالومي. أكلنا شيئًا في الخلف، في المتنزه.

يداه فارغتان. لا كيس، ولا أي شيء.

سألت فِني:

- وماذا عن الآيس كريم «فينيتو» لي؟

خطف تيمو الهاتف، ووضع يده أمام فمه، وأصدر أصوات الهنود الحمر، ثم قال وهو يبتسم ابتسامة صفراء:

- بيع كله.

قالت فِني:

- لقد وعدتني به.

قلب تيمو عينيه:

- «بوهو». عليكِ أن تكوني فرحانة لأنني فعلت فيك معروفًا كبيرًا، لقد بدأ موسم البيكيني. واليوم هناك حصة الرياضة في المسبح المكشوف. «بااااام».

قال ذلك ورفع كفه ليضرب كف نيلس الذي مد يده مترددًا، وناظرًا خلال ذلك إلى الأرض.

قالت فِني:

- كان لدينا اتفاق.

دندن تيمو وهو ينصرف عنها:

- فِني، فِني، فِني، تُمزق أي بيكيني.

خبطه نيلس وقال:

- أخي، فعلًا! هيا شغِّل الكاميرا مرة أخرى.

سحب تيمو الهواء بصوت مسموع عبر أنفه ثم رفع هاتفه فوق رأسه. وقف مُباعدًا بين ساقيه ومُظهرًا تفوقه، كأن أحدًا اختاره ليكون الصحفي الوحيد لهذه الواقعة. أحست فِني بالدموع تتفجر في عينيها. كيف كانت بهذا الغباء!

قال تيمو من فوق كتفه من دون أن ينظر إليها:

- هيا أيتها السمينة، اهتفي شيئًا. اهتفي بأن عليها أن تقفز أو شيئًا كهذا، وإلا لن ينتشر هذا الفيديو سريعًا أبدًا.

زمّت فِني شفتيها. أسنانها. الأصابع في قبضتيها.

قال تيمو:

- على المرء أن يفعل كل شيء بنفسه.

ثم صاح تجاه المرأة الواقفة على السطح:

- اقفزي أخيرًا يا قطة! هيا، اقفزي!

«تساك». بحركة محكمة ضربت فِني هاتف تيمو وأسقطته من يده. مذعورة مما فعلته تراجعت في اللحظة نفسها وهي تفعل ذلك. لكن الأوان قد فات. ارتطم الهاتف بالأسفلت. صوت تحطم. انكسر جزء من الغطاء البلاستيكي. رفعه تيمو، الشاشة مشروخة. ولم تعد تتفاعل مع اللمس؛ حاول تيمو عدة مرات، لكن من دون جدوى.

فحَّ من بين أسنانه:

- أيتها العاهرة الغبية، هل أنت مجنونة؟

باحتقار مالت زاوية فمه إلى أسفل، على الأرجح كان سيصفعها لو لم يقف حولها كل هذا العدد من الناس. تراجعت فِني عدة خطوات، ثم استدارت. لم تكن تريد أن يراها الصبيان وهي تبكي.

صاح تيمو في إثرها:

- ستندمين أيتها الجرذة السمينة. أقسم أنك ستشعرين بالأسف! سأغرقك بيدَي يا مَن تشبهين كيسًا منفوخًا! وعندئذ لن يساعدك في شيء التيشيرت السخيف الذي ترتدينه وعليه صورة سوبرمان!

كان قلب فِني يخفق كأنها ركضت لتصعد تلًّا. لقد قاومت تيمو. تيمو! وقفت في الطابور أمام المحل الصغير، وكبرت سعادتها بخصوص إعفائها من حصة الرياضة اليوم. لا يتقدم الطابور إلا ببطء، كل الناس يريدون تناول شيء. البعض وفر لنفسه مكانًا مريحًا في الميدان، وحُملت كراسي البحر من الشرفات، وفُرشت البشاكير والأغطية المخصصة للنزهات. اقشعر بدن فِني عندما فكرت في أن أحدًا يلعق الآيس كريم باستمتاع، في حين تُلقي المرأة نفسها من السطح. أو على الأقل تفكر في ذلك. فكرت فِني في أنهم كلهم تلاميذ محبوبون في المدرسة، أو كانوا يومًا محبوبين. أشخاص لم يكونوا وحدهم قَطُّ. أو أولئك الذين يشعرون، عبر الفرجة، بالتفوق

ويستمدون قوتهم من ضعف الآخرين، مثل تيمو. أخيرًا جاء دور فِني. لم يفاجئها أن كرتونة شبه كاملة من آيس كريم «فينيتو» ما زالت في ثلاجة التجميد. عندما أخذت باقي النقود، رأت عبر اللوح الزجاجي للمحل تيمو ونيلس والآخرين يعبرون المتنزه في اتجاه المسبح المكشوف. أملت سرًّا في أن يحدث شيء يفوت الآخرين، أن تهبط المرأة من على السطح أو أن يبدأ هطول المطر، فينفض الجمع، على كل حال شيء تكون خلاله هي الشاهدة الوحيدة في الفصل. فكرة أن تُخفي عن تيمو تفصيلة شيقة أو مرعبة زادت من نبضاتها.

تحت إحدى أشجار الدلب جلست على مقعد في المتنزه وفتحت الآيس كريم. قبل أن تقضمه، وضعته على مكان لسعة الدبابير، فشعرت بالراحة، وخف نبض الألم. ما زالت المرأة تسير على السطح جيئة وذهابًا، هذا ما استطاعت فِني أن تراه عبر الغصون، سمعت أبواق السيارات، ونباح الكلاب، وبين الحين والآخر كانت صفارات الإنذار تدوي من سيارات الشرطة. مسحت فِني أصابعها الدبقة في سروالها، وتلفتت باحثة عن سلة قمامة. عندئذ اكتشفت، خلف ظلال شجيرة غار، سالومي التي جلست على بشكير بلون أصفر فاتح، دافنة رأسها بين ذراعيها. بدأت سالومي في الآونة الأخيرة كتابة اسمها على الطريقة الفرنسية، بوضع شرطة على حرف الـ«e»، شرطة طويلة مائلة كأنها تثبت هوائيًّا فوق اسمها لتستقبل اهتمامًا أكبر. على الأرجح تشاجرت ثانية مع تيمو. كل عدة أيام ينفصل الاثنان بجلبة وضوضاء، وبعد عدة ساعات يعود كل منهما إلى الآخر بجلبة وضوضاء. فكرت فِني: ليست مشكلتي، فلتنتحب كما تريد. أخرجت دفتر الرسم من حقيبة الظهر، وشرعت تواصل رسم أحدث قصصها المصورة، وفيها توجه «الليدي إكسس» و«الكابتن برولو» على «فِني المعجزة» هاشتاجات مسممة من جهازي الهاتف الخاصين بهما، أما فِني فقد جمعت تقريبًا كل أرقام كود الصفحة البيضاء الشهيرة

لكي تعطل الإنترنت نهائيًا. استغرقت فِني في رسمها حتى إنها لم تكد تلاحظ مرور الوقت.

في تلك الأثناء ألهبت الشمس وجهها وأعمتها، فوضعت فِني دفتر الرسم جانبًا، ونظرت إلى أعلى. واستطاعت أن ترى المرأة تجلس بجانب المدخنة. تزايد عدد الواقفين أمام الحواجز، وفي شرفة مقهى روزفيتا كانت كل المقاعد موجهة ناحية هذا المشهد المثير. نظرت فِني إلى ساعة يدها. منذ عدة أيام ترتديها من جديد، بعد أن وضعت هاتفها المحمول في درج المكتب؛ لم تعد تريد أن تعرف ما يكتبه الآخرون عنها في الفيسبوك وإنستجرام، ولا تريد رؤية الصور المركبة السخيفة التي يتناقلونها. طوال أكثر من ساعة ظلت تعمل على القصة المصورة، حتى كادت تنهيها. تزحزحت قليلًا لتصل إلى طرف المقعد وجلست بالعكس حتى تكون الشمس خلفها فحسب. هذا أفضل. بحثت في حقيبة الظهر عن اللون البني لتلون النمش الصيفي على وجه «الليدي إكسس». عندما وضعت القلم على الورقة، لمحت سالومي وهي لا تزال مقرفصة على بشكيرها. رأت على الأقل قدميها على الطرف الأصفر من البشكير. انحنت فِني قليلًا إلى الجانب حتى تراها على نحو أفضل. تقلص وجه فِني، وبدت كأنها تتألم. ترددت فِني، وراحت تدير قلم النمش الصيفي في يدها. وإذا كانت تعاني حقًّا؟ إنها في نهاية المطاف أفضل البنات في الرياضة، وبالتأكيد لن تترك المسبح المكشوف يفوتها طواعية. انحنت فِني مرة أخرى جانبًا. هل تتنفس سالومي على نحو غريب، أم أنها تتوهم ذلك فحسب؟ وضعت فِني دفتر الرسم على المقعد ونهضت. ببطء سارت إلى الناحية الأخرى، واقتربت بحذر من سالومي مثلما يقترب المرء من حيوان جريح، ولا يعرف ما إذا كان سيقفز فجأة ويغرز أنيابه فيه.

– هل كل شيء على ما يرام؟

مذعورة رفعت سالومي بصرها إليها، لم تسمعها تقترب. كان كحل

رموشها قد سال، ثم جف كخيوط سوداء على خديها. بظهر يدها مسحت أنفها، وقالت:

- اهتمي بحالك وبلاويك.

هزت فِني كتفيها واستدارت. كان بإمكانها أن تعرف السبب. لوعة الحب.

قالت سالومي:

- انتظري! ألديك ربما قرص مسكن؟ أسبرين أو ما شابه؟

ظلت فِني واقفة:

- ومنذ متى يعالج الأسبرين لوعة الحب؟

- ما هذا الهذيان؟ من يقول إنني أعاني لوعة الحب؟ تيمو، النذل؟

قالت فِني:

- إذن صحيح.

- كلام فارغ.

حاولت سالومي أن تمسح الخيوط السوداء من خديها. لكنها لم تنجح نجاحًا كبيرًا.

- بسبب ذلك لن أجلس هنا ساعات وأنتحب.

أدارت فِني عينيها، وقالت:

- بالطبع لا.

- إذن: معك، أم ليس معك؟

- ماذا؟

- قرص مسكن!

سارت فِني عدة خطوات في اتجاه سالومي، وقالت:

- لن يكون معي، إذا لم تقولي لي السبب.

شدت سالومي البشكير بسرعة تحتها، والتحفت به، كأنها تخفي تحته شيئًا.

تكورت فِني بجانبها على العشب:

– ماذا بكِ؟
أحكمت سالومي البشكير أكثر حول جسدها.
– هذا ليس من شأنك.
– هل هاجمك أحد، هل جرحك أحد؟
على الفور مرت كل الصور الممكنة في رأس فِني. بنت، وحدها، في المتنزه.
قالت سالومي:
– هراء. ليس في عز النهار.
– ماذا بك إذن؟
بدأت فِني تشد بشكير سالومي، ثم أضافت:
– اتركيه، لا أريد سوى مساعدتك، اللعنة!
تراخت قبضة سالومي، وتركت البشكير لفِني. بقعة دم كبيرة، مفلطحة، تمددت على البشكير تحت ردفي سالومي.
قالت سالومي منتحبة:
– كل سراويلي القصيرة مليئة بالبقع. في كل مكان هذا الدم الملعون، وجدته فجأة، ببساطة هكذا. ثم جاءت تلك التقلصات. ما هذا؟ لا أستطيع أن أمشي من هنا بهذا الشكل.
تراجعت فِني إلى الخلف وتركت نفسها تهوي على النجيلة، ثم قالت:
– لقد جاءتك الدورة. برافو، لماذا لم تقولي ذلك على الفور؟
تطلعت سالومي إليها غير مصدقة:
– وفي كل مرة ستكون هناك هذه القذارة؟ وهذه التقلصات، هل هذا طبيعي أن تعاني المرأة مثل هذه التقلصات؟
انحنت فِني عليها غير مصدقة:
– هل تريدين أن تقولي لي إنها المرة الأولى التي تأتيك فيها الدورة؟
أومأت سالومي. كان واضحًا أن الأمر يسبب لها الضيق. كل الفتيات

في الفصل جاءتهن الدورة الشهرية منذ فترة طويلة، وسالومي كانت صديقة تيمو، الوحيدة التي لم تعد عذراء مثلما يُشاع.

- لن تقولي للآخرين، أليس كذلك؟ أعني أن الآن فحسب...

قالت فِني:

- لدينا بدايةً مشكلات أخرى. بدايةً، تحتاجين إلى سدادة قطنية وقرص مسكن، ولذلك ينبغي أن تقومي.

هزت سالومي رأسها:

- مستحيل. لا أريد أن يراني أحد هكذا.

- سأعطيك منشفتي، يمكنك أن تلفيها حولك.

- أبقى هنا أفضل من أن يراني أحد ببشكير مخجل عليه سوبرمان.

نهضت فِني قائلة:

- هذا قرارك. الجو يصبح باردًا بحق في الليل هنا، والبعوض أيضًا عدواني جدًّا.

- طيب، طيب، سآخذ منشفتك الغبية.

رجعت فِني إلى المقعد، وأخفت دفتر الرسم في حقيبة الظهر بين كراسات المدرسة، وأخرجت البشكير، وأعادت قلم النمش الصيفي إلى مكانه في كيس الأقلام. ما زالت امرأة السطح تجلس بجانب المدخنة. بدا كأنها تهز رأسها متعجبة من إقدام فِني بلا تفكير على تقديم المساعدة.

تيريز

لم ترَ فرنر منذ شهور هكذا. صوته عالٍ ومسرور عندما يتحدث مع الزبائن، يقف فخورًا خلف الخزينة، من دون أن تتهدل كتفاه كعادته. والآن، في نهاية المحل، في المخزن، عندما رفعا معًا من الرف صندوقًا من الشاي المثلج، طبع قبلة على وجنتها، هكذا ببساطة، بدون مقدمات. قال:

- أترين، يا تيريز؟ كنت أعرف، سيأتي الوقت الذي يتعقل فيه الناس، هذه هي فرصتنا، إذا أجدنا عملنا اليوم يا تيريز، فسيأتون في الغد أيضًا، وبعد غد.

أومأت تيريز فحسب. لم تكن تريد أن تُفسد بهجته. صحيح أنها حكت له عن نونو المسكينة فوق السطح، وعن حشود الناس، وأن الناس يمكثون في الشارع كأنهم في دار سينما، وأن التلفزيون موجود هنا، وكذلك مراسلو الصحف. لكن فرنر أشاح بيده:

- سيتناقل الناس أن الخدمة لدينا جيدة. سترين.

عندما عادا إلى قاعة البيع، كان مراسل تلفزيوني يقف وسط الناس، ويتجول بميكروفون في يده، ويطرح أسئلة، ووراءه مباشرة مصور تلفزيوني. كان المحل ممتلئًا عن آخره، في عربة أطفال يصرخ رضيع، ترن تلفونات، ويصطدم الزبائن بعضهم ببعض. تزايدت الفراغات في الأرفف، زجاجات المياه الغازية أوشكت على النفاد، ومنصة عرض الفاكهة فرغت كلها لحسن الحظ، ولم يعد يتبقى آيس كريم في ثلاجة

التجميد تقريبًا. شاب يرتدي زي سائقي الدراجات وقف أمام الخزينة وبدا شاحبًا، كانت يداه ترتعشان عندما وضع على طاولة البيع عبوة من الطماطم الشبيهة بالبلح، وزجاجة من المياه. ربما لم يتحمل الحرارة، وقد يكون قطع مسافة طويلة بالدراجة.

سألته تيريز:

- كل شيء على ما يرام؟

بحث الشاب بعينيه في الخزانة وراءها، ثم قال:

- تبغ سائب، أي نوع، وفلتر، من فضلك. وهل لديك ورق سجائر رقيق للغاية؟ أحتاج إليه أيضًا، ورق رقيق إلى حد أن المرء يكاد يستطيع أن يرى عبره.

استدارت تيريز لتحضر البضائع المطلوبة، ولمحت من زاوية عينها المراسل التلفزيوني يسأل إدنا المتجهمة، التي كانت تقف بجانب الباب وهي تقلب بيدها في سلة أدوات التجميل المخفضة، مع أنها لم تأتِ بالتأكيد إلا لشراء سجائر. وللشجار. قالت إدنا ساخطة في الميكروفون:

- مع شخص كهذا ينبغي التصرف بسرعة. لحسن الحظ اتصلت صباح اليوم بالشرطة. إنها ترمي قوالب القرميد من السطح، هل رأيتم ذلك؟ هذا أمر في غاية الخطورة. المرء لا يورط نصف المدينة في مأزق كهذا، إذا كان لا بد من ذلك، فعلى المرء أن يفعله بهدوء وسرية في البيت. شخص كهذا ينبغي قتله بالرصاص، نعم، فهي لم تعد تريد مواصلة الحياة على أي حال. الواحد منا كان سيخجل في استعراض نفسه هكذا، أؤكد لك. عندما كنتُ شابة، لم يكن لديَّ وقت لهذا العبث. كنت مشغولة بالبقاء على قيد الحياة إلى حد يجعل التفكير في الموت مستحيلًا، أتفهم؟

كانت تتحدث بصوت عالٍ حتى يسمع كل مَن في المحل، ثم تلفتت باحثة في الوجوه عن تأييد لرأيها. إدنا العجوز. في كل مرة تأتي إلى المحل،

تسب وتلعن «الناس الذين بالأعلى»، أو الجيران، حتى الطقس تشعر بأنه يعاملها معاملة ظالمة.

في تلك الأثناء كانت تيريز قد عثرت على الورق الرقيق، ووضعته أمام الشاب. توجه المراسل الآن إلى الخزينة، ووضع الميكروفون أمام أنف فرنر أيضًا، وقال:

- يبدو أن محلكم يبيع جيدًا.

وضع فرنر يديه في جنبيه:

- يقولون إن هناك امرأة - ماذا ينبغي أن أقول؟ - مجنونة، تقف على السطح، وهذا شيء مأساوي طبعًا. لكن ماذا علينا أن نفعل؟ أحاول أن أرى الأمر بطريقة إيجابية، حركة البيع والشراء هذه لم أرها طيلة حياتي، ولا حتى خلال بطولة أوروبا لكرة القدم.

ثم ضحك، مثلما يضحك المرء على مزحة عابرة لا تؤلم أحدًا.

تريث الرجل بزي سائقي الدراجات عندما كان فرنر يتحدث، والآن أيضًا كان يتحرك ببطء بالغ. نافدة الصبر صلصلت المرأة خلفه بالنقود المعدنية في يدها. فتح الشاب حقيبة العمل، وأخرج قبعة من الجوخ، ووضعها على طاولة البيع، ثم وضع الطماطم والتبغ وورق السجائر والماء في حقيبته، شيئًا بعد شيء، كأنه في فيلم بالحركة البطيئة. ثم استند بكلتا يديه على طاولة البيع، يد كان يمسك بورقة نقدية من فئة العشرين يورو، وباليد الأخرى حافة القبعة التي لم يعد لها، كما هو واضح، مكان في حقيبة الظهر. كان يلهث، وقد أخفض رأسه كأنه ركض لتوه صاعدًا السلم. تفرس في تيريز ثم في فرنر والدموع في عينيه. ثم التفت إلى الذين يقفون في الطابور خلفه مغمغمًا:

- المجانين هم دائمًا الآخرون، أليس كذلك؟

ثم صاح بصوت عالٍ جعل المرأة خلفه تتراجع:

- المجانين هم دائمًا الآخرون، أليس كذلك؟ أتجدون ذلك مثيرًا؟

أتجدون أن من المثير المكوث بالخارج والتهام ساندويتش أو آيس كريم أو بسكويت، والشعور بالتفوق، ثم تشمرون أكمامكم حتى تسمر بشرتكم خلال الحملقة، هه؟ أتجدون ذلك مثيرًا؟ هل يمنحكم ذلك شعورًا جيدًا؟ مثيرون للشفقة أنتم، إنكم لا تثيرون إلا الشفقة!

اقتربت الكاميرا منه جدًّا. وضع المراسل الميكروفون أمامه مضطربًا، وقال:

- هل تعرف المرأة؟ هل يمكنك أن تقول لنا شيئًا عنها؟

وضع الشاب العشرين يورو، ومسح بظهر يده عينيه، ثم انحنى تجاه حقيبة الظهر، وشق طريقه وسط الزحام.

صاح المراسل مسرعًا خلفه:

- انتظر. انتظر، قل لنا شيئًا عن المرأة! أنت، قف!

رفع الشاب القبعة أمام وجهه، ثم أمام عدسة الكاميرا، وقال:

- امشوا من هنا، انصرفوا، ودعوني في حالي.

تعثر وهو يتراجع بـ«سكوتر» أحد الصبيان، ثم انفلت خارجًا، تاركًا القبعة معلقة على الكاميرا. عندئذ ركض خلفه أيضًا المصور والمراسل خارجَين من المحل. وفي المحل ساد صمت ينم عن إحراج.

بعد برهة غمغمت إدنا المتجهمة:

- ألا يجوز للمرء أن يعبر عن أفكاره؟ إنهم يريدون أن يُخرسونا، إلى هذا الحد وصلنا.

رفعت أم الرضيع كتفيها ثم أومأت موافقة، وهذا ما فعله آخرون أيضًا.

قال فرنر:

- التالي من فضلكم. التالي من فضلكم.

تقدمت فتاتان إلى الخزينة، إحداهما كانت أقصر وترتدي تيشيرت عليه صورة سوبرمان، كان ضيقًا جدًّا عند البطن، والأخرى عرفتها تيريز

على الفور، وجهها الجميل ظل عالقًا في ذاكرتها، لكنها تلف هذه المرة بشكيرًا بصورة سوبرمان حول خصرها. من دون التطلع إلى عينَي تيريز أو فرنر، وضعت الفتاة ذات النمش الصيفي عبوة من السدادات القطنية على طاولة البيع.

قال فرنر:

- ٣,٩٩.

- يا إلهي، غالية جدًّا!

أخرجت الفتاة ورقة نقدية من فئة الخمسة يورو.

سألت الفتاة الأقصر بتيشيرت سوبرمان بصوت يكاد يكون هامسًا:

- هل لديكم ربما دورة مياه نستطيع استخدامها؟ في المقهى سينبغي علينا أن نقف ساعات حتى يحين دورنا.

فهمت تيريز فورًا. قالت:

- من الباب هناك ثم خلف المخزن إلى اليمين.

شكرتها الفتاتان واختفتا في الخلف. في الخارج كان المراسل يصيح في وجه المصور، محاولًا من دون جدوى أن يُدخل القبعة المصنوعة من الجوخ في سلة القمامة أمام مدخل المحل. وفي النهاية دسها في يد المصور، وأتى بإشارة ملفتة من يده قبل أن يختفي في الجموع. في إثر ذلك حاول المصور أيضًا أن يُدخل القبعة في سلة القمامة، بلا جدوى كذلك، لأن السلة كانت ممتلئة عن آخرها والفتحة صغيرة جدًّا. استرق النظر ثم سار إلى دراجة تستند إلى جدار بيت، ووضع القبعة في السلة، ثم عدا في إثر المراسل.

همس فرنر في أذنها:

- سنظهر الآن في التلفزيون أيضًا. تخيلي ما يعنيه ذلك من دعاية لنا!

ربتت تيريز على ظهره. شيئًا فشيئًا بدأت تشعر بالخوف من اللحظة التي ستنزل فيها نونو من فوق السطح، وينفض الجمع.

نقر أحدهم على ذراعها.

- معذرة!

استدارت تيريز، كانت الفتاة بتيشيرت السوبرمان تقف خلفها.

- غير معقول. لديك كل القطع، المجموعات بأكملها، فرس النهر السعيد، والسلحفاة تابسي، حتى أشكال قديمة بحق، أشكال القلعة، أمر لا يصدق!

أشرق وجه الصغيرة، وأشارت لها بيدها لكي تنحني قليلًا، ثم همست:

- لو كنت مكانك، لن أعرض الأشكال هكذا على الملأ، بعضها تُدفع فيه ثروة!

قطبت تيريز جبينها، وقالت:

- إنها مجرد بلاستيك، لعب، لا شيء غير ذلك.

هزت البنت رأسها:

- أقسم لك، بعض هذه الأشكال تُباع بما يزيد على ألف يورو! انظري في الإنترنت، بإمكانك أن تقرئي عن كل ذلك. خسارة أنك لا تحتفظين بقطع بها عيوب، فهي الأعلى قيمة.

- فِني، هل تأتين؟

كانت الفتاة ذات البشكير حول الخصر تقف نافدة الصبر عند الباب.

قالت صديقتها وهي تستدير:

- اقرئي عن الموضوع، وأغلقي الباب بالمفتاح!

أومأت تيريز، ولوحت لها بيدها. فكرت في الصندوق الذي وضعت فيه النماذج المعيبة، وفي أنها وضعت في مكان ما مفتاح المرحاض، لكنها لم تعد تعرف أين.

- تيريز، من فضلك، البيرة، لا بد من ملء الثلاجة فورًا!

كان فرنر يقف عند المرأة التي تدفع عربة الأطفال، وساعدها في وضع المشتريات في الحقيبة.

قالت تيريز:

- نعم، أنا مقبلة.

الآن تذكرت. المفتاح في المرحاض نفسه، في الخزانة الصغيرة فوق الحوض.

إيجون

من بعيد سمع صوت خلاط الأسمنت. ما زالت أذرع الروافع الممدودة تتحرك فوق قطعة الأرض شبه المبنية. أوركسترا ماكينات بائس. أمر لا يُطاق بالنسبة إلى العجائز، ويطلقون على ذلك «سكنًا يغمره السلام».
هبت سحابة من روائح مختلطة تجاه إيجون عندما دخل دار المسنين عبر الجناح الغربي؛ سمك مقلي مع منظف الزجاج. خلال الواجهة ذات النوافذ - ما زالت ملصقات الشركة المنتجة تقتحم عين الزائر - رأى ستة من رجال الأعمال يسيرون على النجيلة المرشوشة حديثًا. بحذر كانوا يضعون قدمًا أمام الأخرى، كأنهم خائفون من دهس شيء مقزز. كان بعضهم يضم إلى صدره لوحًا في أعلاه مشبك به أوراق، وآخرون يصورون الواجهة بهواتفهم الذكية، أحدهم التقط صورة «سلفي» له أمام حامل عليه بساط، وفوقه مِمسحة أقدام من البلاستيك الأخضر؛ صورة تثبت زيارته لأدغال طرف المدينة. قال إيجون لنفسه: المكان هنا كان دائمًا طرف المدينة، آخر صف من المباني القديمة قبل الطريق السريع، لكن منذ عدة شهور فحسب بدأ يشعر بذلك أيضًا، مثل طرف يُزاح إليه المرء. في البداية تغيرت الأصوات والضجيج. عندما يتغير مكان، فإن أول ما يتغير فيه هو الأصوات. قال إيجون لنفسه: مثل معظم الأشياء، بإمكان المرء أن يسمع التغيير قبل أن يراه.

كان أحد الممرضين الشبان يسير في الممر، شفتاه تتحركان من دون

صوت مع موسيقى الراب التي يسمعها عبر السماعات. عندما رأى إيجون، نزع السماعات وقال مبتسمًا:

- جيد أن أقابلك يا سيد موزباخ. لا بد أن نتحدث عن والدتك.

أجاب إيجون، من دون أن يحول بصره عن رجال الأعمال:

- ما بها؟

- البندقية. لا يمكن أن تحتفظ بها، إنها ترعب الجميع بها، وهذا أمر خطير جدًّا.

التفت إيجون إلى الممرض:

- كنت أعتقد أنك أخذت منها الطلقات. ماذا يمكن أن يحدث الآن؟

- أقول لك ماذا يحدث. إنها تنتقل من بناية إلى أخرى بالبندقية. صباح اليوم سرقت كلب السيد ريبوفسكي، سحبته من تحت مائدة الإفطار. علقت البندقية على كتفها ثم انطلقت مع الحيوان المسكين في طرقات المربع السكني.

قال إيجون:

- أنت لم تذهب بها إلى الغابة مرة أخرى، أليس كذلك؟ لقد قلت لك إن عليك أن تذهب بها إلى الغابة، على الأقل مرتين في الأسبوع، هذا مهم بالنسبة إليها.

دس الممرض الهاتف مع السماعات في جيب معطفه، وقال:

- هذا مستحيل هنا. إنك تعرف تمامًا النقص في العاملين الذي نعانيه في الوقت الحالي. إحدى الساكنات اتصلت قبل عدة ساعات بالشرطة لأن السيدة الوالدة كانت تقبع في الحديقة خلف سياج شجيرات السرو، ممسكة بالبندقية في وضع التصويب. عليك أن تكون سعيدًا لأنهم لم يأخذوها إلى الحبس الاحتياطي. هكذا يبدو الوضع.

سأل إيجون:

- وأين هي الآن؟

قال الممرض:

- في غرفتها. لم تتحرك من مكانها منذ أن انتزعنا السلاح منها.

كانت أم إيجون تجلس منكمشة على نفسها في الركن الأيسر من الأريكة المخططة من طراز «بيدرماير»، مرتدية ملابس الصيد، التنورة والحذاء برقبة طويلة، وقد أرجعت شعرها الأبيض بصرامة إلى الخلف، وعلى ركبتيها القبعة الصوفية الخضراء التي أهداها إياها في عيد ميلادها الأربعين.

عندما دخل الحجرة قالت له:

- فالتر، أخيرًا جئت! أتظن أن الخنازير البرية تنتظرنا؟ علينا أن نكون سعداء إذا رأينا أرنبًا نحيلًا. هل تريد فعلًا أن تذهب هكذا إلى الغابة؟

أشارت مستاءة إلى السروال القطيفة الذي يرتديه إيجون وحذائه القماشي.

قال إيجون وهو يجلس بجوارها:

- أمي، أنا الذي جئت. فالتر لن يأتي، أنت تعرفين ذلك.

تطلعت إليه أمه، وأناملها كالمخالب تتشبث بحواف القبعة على ركبتيها، وثبتت عليه عينيها الصغيرتين المنداتين بالدمع، والغضب يتطاير منهما. قالت له:

- الجبان! هل منعته مرة أخرى من الخروج، هذه الحيزبون؟ أيقف من جديد أمام الحوض ليغسل الصحون؟ يسمح لها بأن تقوده مثل قرد لعين في سيرك. لقد حان الوقت فعلًا كي أقاطعه.

وضع إيجون يدًا على كتفها بارزة العظام:

- أمي، فالتر مات. أصابته نوبة قلبية، وهو يجلس بالأعلى في برج الصيد في الغابة، أتتذكرين؟

رفعت كتفها تحت يده، وقالت:

- بالطبع أعرف يا بني. لقد كنت هناك.

تركت حافة القبعة، وفردت الكسرة فيها. أضافت:

- لا بد أنك جائع. خذ الشطائر هناك، أنا شبعانة.

نظر إيجون إلى المائدة، والطبق عليها بشطائر سجق الكبد. لم يكن يعرف لماذا عرضت الشطائر عليه. هل الأمر يعود إلى الخرف، أم إلى رغبتها السادية التي لا حد لها في وضع اللحوم أمامه؟ لم يقل سوى:

- ماما، أنت تعرفين أنني نباتي.

ثم أضاف:

- هل نذهب للتمشية؟

وضعت أمه القبعة على المائدة الصغيرة وقوست شفتيها قائلة:

- لم ترث ذلك عني، هذه الحساسية المرهفة. إنك تشبه أباك، هو أيضًا كان ينقصه الشعور بالقوة. لقد أخذت مني فقط عضلات الساق المشدودة. على الأقل.

لم يكن بمقدور إيجون الحكم على مدى شبهه بأبيه، فهو لم يتعرف عليه حقًّا قَطُّ. لا يعرفه إلا من الصورة العائلية المعلقة في إطار المرآة فوق الطاولة الصغيرة، بالأبيض والأسود، ومقوسة من الحواف، وفيها أبوه، صحيح أنه يبدو وسيمًا وذا نظرة جريئة، لكن ذراع الأم مفتولة العضلات الموضوعة على كتفه تمسك به بخشونة في وسط الصورة كأنها تريد أن تحول دون هروبه من جانب الصورة. بالذراع اليسرى أمسكت ببندقية صيد ذات ماسورتين، تتناقض تناقضًا غريبًا مع الفستان الصيفي الفاتح الذي ارتدته. كان أبوه يمسك به، بإيجون، على ما يبدو حسب طلب المصور، بيديه الاثنتين ليواجه الكاميرا، كان متخشبًا كأنه غير مرتاح للطفل. وقف الوالدان أمام كشك الحديقة، وسط حشائش الخريف التي وصلت إلى الركبتين، ومن الواضح أنهما تمالكا أعصابهما. لم يستمر الأمر طويلًا بين الاثنين. على الأرجح كان الأب في الصيد منذ البداية مترددًا وغير ماهر، لكنه أصاب سهوًا خنزيرة برية حُبلى في جبال الفوج الفرنسية. ففقدَ رخصة الصيد في إثر ذلك، ومع الرخصة زوجته أيضًا. حتى اليوم تصر أم إيجون على أن يناديها

الناس بـ«آنسة»، «آنسة موزباخ». كانت تصم أذنيها إذا ناداها الناس بلقب آخر. عاملت عشاقها بعد ذلك كأنهم طرائد. كانت تتحدث عن مساعد الخباز الجديد مثلما تتحدث عن خنزير بري يتميز بفحولة خاصة، بالنظرة الشهوانية نفسها. ما زال إيجون يراها بدقة تامة وهي تجلس على الأريكة الخضراء نفسها، بالفستان والحذاء طويل الرقبة، وكيف تجلس في حجرة الغسيل التي حولتها إلى حجرة صيد، وسط الغنائم المحنطة التي تفتخر بها، وكيف كان رأس خنزير بري - لم يعد له مكان على الحائط - يفقد بعضًا من حشوه عندما تبدأ الغسالة في طرد الماء عن الغسيل. قد يصعب التفوق على الأم في خشونتها أحيانًا، لكنه كان دائمًا ينظر إليها نظرة إعجاب لحداثتها وقوتها، ولسيرها في طريقها كأنه أمر بديهي تمامًا.

قالت فجأة:

- أخذوا مني البندقية. تخيل، يعتقدون أنني مصدر خطر، هكذا قالوا، «مصدر خطر».

نهض إيجون ومسَّد ركبته:

- سأجعلهم يعيدونها إليك. والآن هيا، فلنخرج قليلًا.

شبكت أمه ذراعيها حول جذعها وهزت رأسها.

- إحدى الممرضات هنا، أنجيليكا، تعطيني دائمًا قبلة قبل النوم، عندما تكون في النوبة، هذا لطيف منها. أما الآخرون فيعطونني دائمًا الشعور بأنني طفل غير مهذب.

شرع إيجون في فحص مكان تعليق الملابس. قال:

- أين عصا المشي يا أمي؟ هل تركتها بالأسفل؟

في تلك الأثناء كانت أمه قد شغَّلت التلفزيون، ومن دون صوت راحت تتنقل بين المحطات. جلس إيجون ثانية بجانبها على الأريكة. لم تعد تلتفت إليه، ورفعت درجة الصوت. دار الحديث عن ابنة مغنية مشهورة أجروا لها عملية تجميل فاشلة، ما أدى إلى موت حلمتيها، الأمل الوحيد - هكذا قال

طبيب آخر - هو أخذ قطعة نسيج من فخذها. عبَّرت المذيعة مرة أخرى عن تعاطفها، قبل الانتقال على الهواء إلى مأساة أخرى. لم يدرك إيجون إلا بعد عدة ثوانٍ أن الكاميرا تظهر الميدان عند متنزه المدينة، أمام مقهى روزفيتا.

بصوت درامي قال الرجل أمام الكاميرا:

- منذ صباح اليوم تقف امرأة، على السطح، على ما يبدو تريد الانتحار، كل محاولات الشرطة في إعادة الرشد إلى المرأة التي تلقي بقوالب القرميد على نحو خطير، باءت بالفشل حتى الآن. منذ ساعات، سكان المنزل ممنوعون من دخوله، والمدينة القديمة تغرق في فوضى متنامية. لم يُكشف عن هوية المرأة حتى الآن، وتناشد الشرطة مَن لديه معلومات بالتقدم بها. بذهول يتابع سكان المنطقة عجز السلطات عن إنهاء الموقف.

نكز إيجون أمه قائلًا:

- يحدث هذا هنا، هنا لدينا، عند متنزه المدينة، أمام مقهى روزفيتا مباشرة.

قالت أمه:

- أعرف، فلديَّ عينان في رأسي. هذه المرأة، ليست مجنونة، بالتأكيد لا، إنني أعرفها. لقد عملت هنا في الحديقة خلف المبنى. كانت تعرف كل شيء عن زراعة النباتات، وخصائص التربة، بمقدورك أن تبحث في كل مكان عن شخص شاب يعرف كل هذه المعلومات عن الطبيعة. إنها شخصية لطيفة جدًّا، وعنيدة، ليست مثل أولئك النساء المرفهات ذوات الكعب العالي، هذه امرأة شغل، هذا ما لاحظته فورًا. في نيوزلندا قتلت بيدها أحد حيوانات الوشق، تحدثنا عن ذلك طويلًا.

في تلك الأثناء عرضوا آراء سكان المدينة على اختلافهم، كان مِن رأي امرأة عجوز أن شخصًا كهذا ينبغي قتله بالرصاص، وظهَر فرنر، صاحب المحل على الناصية، لم يره إيجون منذ فترة طويلة. ثم تعرف على فِن الذي رفض أن تصوره الكاميرا. انزلق إيجون وأصبح على حافة الأريكة. قال:

- انظري يا أمي. هذه إحدى قبعاتي، هناك، لقد صنعتها!

أشار إلى القبعة التي أمسك بها فِن ليحمي نفسه من الكاميرا، قبل أن تسودَّ الصورة. على الأقل أفادته القبعة هكذا. قال إيجون:

- مسكين، إنه يعرف المرأة على الأرجح. شاب طيب، يُحضِر كل ثلاثاء عيون الخنازير من عندي.

قالت أمه:

- على الناس أن تخرج إلى الطبيعة، سيكونون عندئذ أكثر اتزانًا، لأنهم سيمرون بخبرات جديدة، عندئذ لن يتجمعوا هكذا كالرعاع. شيء لا يُحتمل.

أطفأت التلفزيون، ووضعت جهاز التحكم عن بعد جانبًا.

- اسمها «مانويلا كونه». أبلغ الشرطة بذلك، ربما تساعدهم معرفة الاسم.

على ركبتيها كورت يديها على شكل قبضتين. متوترة، وتقريبًا خائفة، نظرت إلى السرير العريض ذي الغطاء النهاري المنقوش بالزهور والوسادة الديكور الصفراء، كأنها تنظر إلى حيوان مفترس يتأهب للهجوم. ثم قالت:

- لا أريد أن أموت في هذا السرير الملعون يا إيجون، ولا أمام التلفزيون. نحن، آل موزباخ، لا نموت في السرير؛ صحيح أننا لا نتحدث كثيرًا، لكن الناس يتحدثون كثيرًا عن موتنا، هكذا كان هو الوضع دائمًا، وينبغي أن يظل هكذا؛ إننا لا نرقد ونموت ببساطة، لا بد من انتزاعنا بعنف من الحياة انتزاعًا. هل تتذكر العمة صوفيا؟ كلبها زيجفريد من فصيلة الداهشند هو الذي قتلها بالرصاص. بعد مطاردة صيد ناجحة وضع قائمته على بندقيتها الونشستر التي ألقتها على الأرض. أصابتها الرصاصة في بطنها. وعلى الفور رقدت بجانب الطريدة ونزفت حتى ماتت. هذا هو الموت، أتفهم؟

تنهد إيجون، يتذكر تذكرًا ضعيفًا، على الأقل يتذكر الجنازة، والقس

الذي كان مصابًا بالبرد، وبعد كل جملتين يتحتم عليه أن يسعل، ويتذكر المائدة بعد الجنازة، وكانت تتكون من لحم الخنزير البري فقط تقريبًا، بكل تنويعاته. في تلك الأثناء اكتشف عصا المشي برأس الخنزير المذهب خلف الكرسي عند النافذة. قال:

- سبب إضافي للتمشية. وإذا حالفنا الحظ، فستقابل في الغابة الصغيرة، أمام نفق السكك الحديدية، ثعلبًا مسعورًا.

نهضت أمه من الأريكة ووضعت القبعة على رأسها:

- أطلق أنت النكات على أمك العجوز. صدقني، إذا قبعت يومًا في مثل هذا الجحر، وتحدثوا معك مثلما يتحدثون مع طفل تعلم لتوه كيف يربط حذاءه، فستتمنى أيضًا أن يكون الموت قد وصلك قبل ذلك.

مدت يدها إلى العصا، وأخذت شريحة سجق الكبد من الطبق، وقالت:

- خذ الأخرى. تبدو جائعًا.

عند الخروج إلى الممر أمسكت بذراعه قائلة:

- علينا أن نسرق الأرانب هنا، معك السكين؟

فِن

ما زال الغضب ينبض في صدغيه. ضغط الحقيبة التي يحمل فيها الرسائل والطرود على صدره، وشق طريقه بصعوبة بين الناس إلى المنزل. الشرطية الشابة حمراء الوجه أشارت إليه ليسير إلى المدخل، وقالت له:

- عليك أن تصعد إلى العُلِّية. نتمركز الآن هناك.

ضغط فِن الزر، وسمع المصعد يتحرك في الطريق إليه، لكن ليس بالسرعة الكافية. ركض فِن على السلالم بسرعة، درجتين في كل خطوة. مانو. سيراها حالًا عن كثب، ستتحسن حالتها حالًا، وربما تقول له المشكلة. مقطوع الأنفاس وصل إلى أعلى، وركض في الممر. عبر باب مفتوح لمح شرطية تقف على سلم قابل للطي، وتُخرج رأسها من شباك السقف، لم يرَ سوى كتفيها وضفيرتها الشقراء، وبجانب الباب وقفت شرطية أخرى تحرس المكان. شرطي مفتول العضلات كان يُصدر أوامره على ما يبدو في المكان، رفع يده وأعاقه عن الدخول. قال:

- تمهل، تمهل!

قال فِن:

- لا بد أن أذهب إلى مانو. زميلك أرسلني للتبضع، عليَّ أن أُحضر لها كل هذه الأشياء.

بسرعة أخرج مشترياته من حقيبة الظهر؛ الطماطم، التبغ، المياه، وأوراق السجائر.

أحاط الشرطي بيديه التوكة المعدنية في حزامه، ووقف أمامه مباعدًا بين ساقيه:

- هذا ما ينقصنا. أستطيع أن أخمن فكرة مَن هذه.

قال فِن:

- أنا صديق مانو. ياناتي لديكم، لقد تحدثت معها من قبل، وهي طلبت مني هذه الأشياء...

هز الشرطي رأسه:

- لسنا شركة ملعونة لتوصيل طلبات الطعام. كفى تدليلًا، لقد حاولنا ذلك وقتًا طويلًا بما فيه الكفاية. سنعزف الآن نغمات أخرى.

قال فِن:

- لكنها عطشانة. وهي منهكة تمامًا. لا يمكنك أن تتركها ببساطة تموت من العطش.

مد الشرطي فكه السفلي ثم قال:

- إذا كانت عطشانة، فعليها النزول، وعندئذ ستحصل على شيء تشربه. هذا هو الاتفاق.

عاجزًا تلفت فِن حوله في الغرفة. تجنبت المرأة بجانب الباب النظر في عينيه. شعر فِن بغصة في حلقه. ازدرد ريقه، لكن الغصة بقيت، وكبرت فحسب. ركز فِن بصره على العروق الحمراء على أنف الشرطي، ومنبت شعره الخفيف، والدهون البارزة في عنقه فوق الياقة. كان يود لو ألقى بنفسه عليه، مثلما يفعل المرء مع باب مغلق، بكتفه في الأمام ومن دون مراعاة لأحد. قال:

- أيمكنني على الأقل التحدث معها؟ إنها تنتظرني، لقد وعدتها أنني سأعود إليها.

هز الشرطي رأسه قائلًا:

- كما قلت، لقد غيرنا الاستراتيجية.

سأله فِن:

- ما اسمك؟

قال الشرطي:

- بلازر. رئيس المفتشين بلازر.

- سيد بلازر، لا بد أن تتركني أذهب إليها. إنها الآن بحاجة إلى شخص تثق به.

حاول فِن أن يمر. لكن بلازر مد ذراعه ومنعه. قال:

- المحاولة الأولى لم تنجح، لذا فستفشل المحاولة الثانية أيضًا.

قال فِن وهو يحاول مجددًا من الجانب الآخر:

- لكن لا بد أن أتحدث معها. عليها أن تعرف أنني لم أخذلها. اتركني أمُر.

منعه بلازر مرة ثانية، ودفعه إلى الوراء، فصاح فِن:

- مانو، «ماااانووو»!

أتى الشرطي بإشارة من يده، وقبل أن ينتبه فِن، جاءت الشرطية من عند الباب بخطوات سريعة في اتجاهه، ولوت ذراعه خلف ظهره، فوقع التبغ والماء من يده، وسرى في كتفه ألم حاد. صرخ فِن مجددًا:

- «ماااانووو»! لقد أحضرت لك الماء، مانو!

أبدى مقاومة، لكن الشرطية واصلت الضغط على ذراعه إلى أعلى، فاشتد الألم في كتفه إلى حد جعل فِن يستسلم ويصمت. بلا كلمة قادته المرأة إلى الممر، وبالمصعد أوصلته إلى أسفل، ثم خرجت به إلى الميدان، لقد كسرت إرادة المقاومة لديه عندما لوت ذراعه. بصوت خافت قالت الشرطية قبل أن تغلق باب المنزل:

- آسفة.

لاحظ فِن أنه ضغط الطماطم المغلفة على صدره بقوة خلال هبوطه، حتى انفجرت الثمار.

إرنستو

لم تكن لديه أدنى فكرة عن الوقت الذي مضى. كان قد شاهد نهاية فيلم بوليسي بالأبيض والأسود، وحلقة وثائقية عن بناء أعشاش الزغبات الكستنائية، والشوط الثاني من مباراة كرة المضرب، وشاهد الأخبار ثلاث مرات، ثم برنامج طبخ، وقناة لا تقدم سوى الإعلانات، كاد أن يتصل برقم التلفون ويطلب مَبرد أظافر إلكترونيًا، لو لم يكن منهكًا إنهاكًا لا يُحتمل، وعاجزًا عن الحركة. كان قد تناول منذ فترة «السوربيه» المثلج، وشرب أربعة فناجين من الإسبريسو، بل ودخن سيجارتين، واستلم باقة زهور أخرى، ما زالت موضوعة في ورق السيلوفان على «البوفيه» لأنه لم تكن لديه رغبة في البحث عن مزهرية. واصل إرنستو تنقله بين القنوات، حتى تلك الأجنبية، ما بين برنامج حواري فرنسي، ومسلسل إسباني، وإعادة لسباق الخيل على قناة رياضية تشيكية، الحصان الذي أعجبه، مثل ثعلب بشعر غامق، جاء ترتيبه قبل الأخير، كل هذا ما زال يتذكره. وخلال برنامج إخباري ألماني كان يدور عن معرض لتربية الأرانب، لم يستطع إبقاء عينيه مفتوحتين. انزلق جهاز التحكم عن بعد من بين يديه، فسرت رعدة في بدن إرنستو، وفرك عينيه. عندما انحنى ليرفع الجهاز، توقف كأن البرق أصابه، وراح يحملق في القبعة المصنوعة من الجوخ الرمادي التي رفعها شاب يرتدي ملابس قيادة الدراجات في وجه الكاميرا. قفز إرنستو من مكانه صائحًا:

– «ستوب»! «Fermo»، اثبت!

محمومًا راح يبحث في جهاز التحكم عن زر تثبيت الصورة، لكنه لم يعثر عليه. قبع أمام التلفزيون، قريبًا جدًّا منه. «موزباخ»، كان هذا كل ما استطاع قراءته من الكتابة في داخل القبعة قبل أن تُقطع الصورة ويعودوا إلى الاستديو. أخذ إرنستو يسب ويلعن:

– «Porca miseria»(*)!

وتفصد جبينه عرقًا. سار عدة مرات رائحًا غاديًا أمام التلفزيون، من دون أن يعلم تمامًا ما عليه أن يفعله في الخطوة المقبلة، ثم صفق بيديه قائلًا:

– «Andiamo»، هيا إلى العمل، «forza»!

بحث عن هاتفه بين وسائد الأريكة بسرعة لص ما زال يبحث عن غنيمة، بينما يسمع أصحاب البيت يصعدون السلم. لاضطرابه نسي لثوانٍ اسم توماسو. رن التلفون رنينًا طويلًا معذِّبًا، هكذا تراءى له، إلى أن رد الآخر أخيرًا.

أشعل توماسو الضوء ووضع فناجين الإسبريسو في حوض الغسيل، ثم همَّ بفك السيلوفان عن باقة الزهور. قال:

– لن يكون ذلك سهلًا يا «سِنيوره». أتعرف على الأقل اسم المدينة، وأين بالضبط القبعة الآن؟

هز إرنستو رأسه. ما زال لا يستطيع الوقوف هادئًا، كان يسرع من ركن إلى آخر في الغرفة، ثم فتح كل النوافذ. وفتح صنابير المياه، ثم أغلقها، كأنها قد تبوح له بالمعلومات المطلوبة.

– كان عليك أن تراها يا توماسو، إنها رائعة، «senza fronzoli»، بلا أي زينة زائفة، إنها حلم، بالضبط ما ينقص المجموعة! أيًا كان مَن صنع هذه القبعة، فهو عبقري.

(*) يا للبؤس! (المترجم).

قال توماسو:

- طيب. سأحاول إذن أن أتصل بقسم التحرير بالقناة، لأحصل على معلومات.

قال إرنستو:

- الوقت يهرب منا. ينبغي أن نجد القبعة حتى مساء الغد، وإلا سأجد نفسي مجبرًا على إلغاء العرض الأسبوع المقبل، «basta»(*)!

ثم وضع يده أمام فمه، وقال بلا صوت تقريبًا:

- توماسو، ماذا إذا كان الشخص الذي صنع القبعة قد مات منذ فترة طويلة؟ ماذا إذا كان الشاب قد حصل عليها من سوق «الكانتو»، أو من أستراليا، من أحد رعاة الغنم؟ «Dio mio»، يا إلهي، أعصابي، لقد كبرت على هذا العناء.

- لقد وجدتَ ما تبحث عنه يا «سِنيوره». والآن سأبحث أنا عما وجدتَه. اترك لي الأمر، وسيكون كل شيء على ما يرام.

أومأ إرنستو موافقًا، ثم قال:

- من فضلك، أعد حقيبتي. أيًا كانت وجهة الرحلة، سأرافقك. لو مكثت هنا، سأجن فحسب.

(*) انتهى الأمر! (المترجم).

فيلكس

لم يعلم كم من الوقت مضى وهو جالس على حافة الفراش، في حين كانت الوسادة التي أراد أن ينفضها بين ركبتيه، وفي يده كوب الكوكاكولا الذي أصبح محتواه دافئًا منذ فترة. شعر بنفسه مثل مريض يمتنع عن تناول الدواء، وبوجل ينتظر تشخيص الطبيب المتخصص. استخدم كل طاقته حتى لا يرى الصور في رأسه على نحو واضح. حاول أن يركز انتباهه على ما يحيط به، ما هو موجود، وما يراه. السائل البني في الكوب يهتز، فتتكون موجات ضئيلة على حافة الكوب، ثم تتكسر هناك عندما يسمع صوت انغلاق باب في مكان ما من البيت، أو عندما يسير أحد بخطوات قوية في الطابق الذي يعلوه. على منضدة السرير كان المفتاح الذي أحضرته كارولا له، مفتاح صغير للغرفة معلق في قطعة ضخمة من النحاس الأصفر، محفور عليها الرقم ٢. يعلم فيلكس أن روزفيتا لديها ثلاث غرف تؤجرها للنزلاء، لكنه لم يرَ واحدة من الداخل قَطُّ. الغرفة رحبة ومريحة، تطل على الباحة الداخلية. عند النافذة مقعد مبطن عالٍ مكسو بالمخمل الأخضر الفاتح الذي يتلاءم مع الستائر، وطاولة صغيرة عليها زجاجة ماء. بجانب الباب كومود سطحه رخامي، وعليه سلطانية من الخزف فيها فواكه ومزهرية بزهور مجففة. فوق الكومود مرآة في إطار مذهب بسيط. إلى يسار النافذة خزانة نحيلة من الخشب. تساءل فيلكس ما إذا كان ثمة بشر يقضون إجازتهم حقًّا في تالباخ، بشر

يُحضرون معهم من الملابس ما يجعلهم يحتاجون إلى خزانة. مر بإصبعه على الزهور الزرقاء في غطاء الوسادة. كل شيء هنا يذكره ببيت جدته. الزهور المجففة، والمخمل، وإطار السرير الحديدي الأبيض. من أجل فنجان من الكاكاو الساخن الذي تعده جدته مع بسكويت بالزبدة يمكنه أن يعطي الكثير في هذه اللحظة، ومن أجل عبارة الجدة: «في الغد سيبدو العالم مختلفًا تمامًا». وضع فيلكس كوب الكوكاكولا على منضدة السرير، ونفض الوسادة، ثم اتكأ على الفراش. ارتجف بردًا. كان قد رفع كم قميصه عاليًا. شعرُ ذراعه منتصب. ربما عليه أن يفتح الشباك قليلًا، الطقس في الهواء الطلق أدفأ بالتأكيد مما هو هنا في الداخل. نهض. صدر صرير عن الألواح الخشبية العريضة تحت قدميه. تجمع تراب داكن اللون في الشقوق بين الألواح. «لا تنظر إليها! واصل السير! إدارة مقبض النافذة، وإخراج الرأس إلى الهواء الدافئ. التنفس. لا تشاهد الصور في الرأس!». استند فيلكس بكلتا يديه على حافة النافذة. فاحت في الباحة الداخلية رائحة أزهار الليلك، سمع صليل الصحون ومواء قطة، ومن بعيد قليلًا دوي سيارات الشرطة. تردد صدى ضحكات طفلين على طول جدار المنزل. أدار فيلكس رأسه في الاتجاه الذي أتت منه الضحكات. على قطعة النجيل الصغيرة أمام المنزل المقابل رأى منطة، يقفز عليها صَبيان عاليًا، ويهللان سرورًا، اصطدم رأس أحدهما بالآخر، ثم استدارا في الهواء، وأرادا أن يقفزا أعلى، فارتطما بعضهما ببعض. تشبث فيلكس بحافة النافذة. وبِرد فعل انعكاسي أغلق عينيه. لم ينتبه، برهة ضئيلة لم ينتبه، والآن اتضحت ملامح كل الصور في رأسه، نقش كسوة الأريكة، هيكلها، كل ذرة من ذرات الغبار التي كانت تستدير في الضوء، أربعة أقدام صغيرة في أحذية قذرة، مجموعة من القطط الخزفية في أحد الأرفف على الجدار، تغلفها طبقة كثيفة من الغبار، ارتفعت درجة الصوت الآن أيضًا، الضحك، السعال، صرير نوابض الأريكة،

عندما ترتطم الأحذية الرياضية بباطن المنطة. انتقلت مرونة المنطة إليه، وهزته هزًّا، وجعلت ركبتيه رخوتين. أعطى الباحة الداخلية ظهره. وأغلق النافذة. لكن ذلك لم يساعده في شيء. لقد عاد كل شيء، بوضوح تام. منذ أسابيع تتربص به الصور الضبابية في كل مكان. في شقوق الأرضية الخشبية، في العلالي والباحات الخلفية الغريبة، وحتى في بطن مونيك، تتربص به في كل جملة، وفي كل لحظة يقظة، لم يعد في أمان منها في أي مكان. البيت العتيق، الأريكة الضخمة المخططة بالأصفر والأخضر، الشمس التي تسقط على الألواح الزجاجية القذرة، الملاءات المصفرة على أثاث أصبح لا نفع منه. وإيجي. وجه إيجي الأحمر الصبياني، وذراعاه الممدودتان إلى أعلى، السلسلة المعلق فيها ديناصور فضي والتي تُصدر صليلًا عند القفز عاليًا ثم الهبوط. دعك فيلكس عينيه، أكثر، كأنه يستطيع بذلك أن يطرد الصور عن حدقتيه. لم يعد يريد أن يرى شيئًا، ولا أن يفكر في شيء. بالكف المسطحة ضرب جبينه، ثم بقبضة يده، لكن الضربة لم تكن قوية بما فيه الكفاية. تشبث بإطار السرير، وضرب رأسه في الحائط، في العيون البارزة من الخشب التي تنظر إليه، وتتتبع منذ ساعات بدون اكتراث كل حركة من حركاته. ضرب رأسه مرتين في الكسوة، ثم مرة ثالثة. أراحه ذلك. أظلمت الدنيا أمام عينيه على نحو مريح. وعلى نحو مريح كان الألم حادًّا في جبينه. اهتزت الصور، وأضحت ملامحها غير واضحة، انهار البيت العتيق، أخيرًا، وفقد وجه إيجي ملامحه الخارجية. مرة أخرى. بشكل أعنف. جيد هكذا.

- يا إلهي، فيلكس، ماذا تفعل؟ توقف!

امتدت يد إليه، وشدته من عضده، وشدته إلى الفراش، وجلس شخص بجانبه. نظرت روزفيتا إليه، بدت قلقة، أخذت يديه في يديها. كل شيء يدور، الغرفة، والصور في رأسه. قال فيلكس:

- هذا الشيء الوحيد الذي يساعدني.

ضغطت روزفيتا على يديه:

- يساعدك على مواجهة ماذا يا فيلكس؟ ماذا تقول؟

ربتت على ظهره. أراحه ذلك. دافئ وفي وقته، يدا جدة، هكذا قال فيلكس لنفسه، الغرفة تدور على نحو أبطأ. قال مذهولًا:

- الصور، الصور تخرج وتبتعد.

بحركة سريعة راحت روزفيتا تجفف جبهته بشيء، بمنديل أو بذراع بلوزتها، بشيء من القماش. قالت:

- إنك تنزف. ماذا حدث لك؟ أي صور تعني؟

رد فيلكس:

- إيجي. كل هذا بسبب إيجي.

استمرت روزفيتا تربت بيدها على ظهره، وسألته:

- من هو إيجي؟

مد فيلكس يده إلى الكوكاكولا على المنضدة وشرب جرعات قليلة لم تعد تحتوي على غاز. لم يحكِ كل هذا لأي شخص من قبل. لا لوالديه، ولا لأي زميل من زملاء الدراسة، أو أي امرأة عاش معها، ولا أحد، نعم حتى بينه وبين نفسه احتفظ بالأمر سرًّا طوال سنوات، وبالصمت دفن الحكاية في أعماقه. إلى أن كبر بطن مونيك. وإلى أن اشترك في تلك الدورة التدريبية التي سُئل فيها عن طفولته، مرة بعد أخرى، وفجأة أخذوا يقتحمون هذا الصمت من كل الجوانب، الصمت الذي وضعه، من دون أن يلاحظ، مثل ملاءة حامية فوق الصور في رأسه، حتى كاد ينساها. لكن الآن، في إرهاقه، وبيد روزفيتا على ظهره، التي راحت تربت عليه صعودًا وهبوطًا، صعودًا وهبوطًا، هاجمه فجأة شعور بالاحتياج إلى الكلام، مثلما يشعر المرء في غرفة مغبرة باحتياج إلى فتح نافذة.

قال فيلكس:

- كان إيجي فتى ممتازًا. أفضل أصدقائي.

وضع الكوب الفارغ على المنضدة. خامره شعور بأن على يديه أن تتحررا، حتى يستطيع مواصلة الحديث:

- اسمه في الحقيقة «إجناتسيوس». لكن أي فتى في الحادية عشرة يريد أن يُسمى «إجناتسيوس»؟

تنحنح كأنه يشجع صوته الواهن، ثم شرع يحكي. حكى لروزفيتا كل شيء. كل شيء عن إيجي وبيت التوت البري.

اسم «إيجي» كان فكرة فيلكس. أخذ الاسم من إحدى أسطوانات الأب، وإيجي وافق على الفور. لا يوجد أحد بهذا الاسم، كان اسمًا خاصًا، يكفي الياء في نهاية الاسم. كانا يقضيان معًا كل عصرية تقريبًا عندما يكون لديهما وقت، وغالبًا عند إيجي. بيت إيجي كان رائعًا، كان لديه كل شيء يتمناه المرء، غرفة يمكن تسلق جدرانها، وغرفة لمشاهدة التلفزيون، وورشة خاصة به في القبو، وخيمة هنود حمر في الغرفة، وقصص مصورة، وسيارة بجهاز التحكم عن بعد، ومسدسات مياه، ونموذج للسكك الحديدية، وحتى جهاز للرؤية الليلية كان يستطيع به أن يراقب ليلًا من حافة النافذة القنفذ في الحديقة والطيور في الأشجار. ذات مرة شاهدا خنزيرًا بريًا يشرب من حمَّام السباحة. فوق سرير إيجي لُصقت نجوم صغيرة تلمع في الظلام، وكان إيجي يعرف كل كويكبات النجوم عن ظهر قلب، ذات الكرسي، والتنين، والجبار، والدب الأكبر، لقد شرحها له كلها. كان فيلكس يحب البيات لدى إيجي، في المنزل الكبير على طرف الغابة. لم يكن والدا فيلكس من الأثرياء، كانا يسكنان في القرية في شقة تطل على سوبرماركت. لكنهما سمحا له بأن يبيت كثيرًا عند إيجي، دائمًا عندما كانت أمه تعمل في المساء في شباك تذاكر السينما ويكون أبوه في النوبة الليلية في المطبعة. ومن ناحيتها لم تكن والدة إيجي تحب أن ينام ابنها خارج المنزل، كانت معها بخاخة الطوارئ، وكانت تريد أن تكون حاضرة إذا فاجأت إيجي نوبة. ولهذا كانت لديه غرفة

للتسلق وورشة، إذ إن والدي إيجي لم يكونا يسمحان له باللعب في الخارج إلا نادرًا، لأن شعبه الهوائية حساسة للغاية. كان إيجي مصابًا بالربو، لكن أحدًا لم ينطق بهذه الكلمة قَطُّ. لم يعرف فيلكس إلا من الكتابة على جهاز الاستنشاق الذي كان إيجي يضعه أحيانًا على فمه، عندما يبدأ تنفسه في الصفير. لم يكن يُسمح له في الحقيقة بالخروج من البيت إلا عندما يسقط المطر، وأحيانًا أيضًا عندما يهطل الثلج، ولم يكن مسموحًا له بالركض أو قيادة الدراجة أو السباحة، أو المشاركة في حصص التربية الرياضية. كان أسوأ شيء عندما يسود الضباب، أو عندما تُلون حبوب اللقاح في الربيع كل شيء بالأصفر، عندئذ كانت والدة إيجي تقفل أحيانًا الباب، ثم تخفي المفتاح. لكن إيجي لم يكن يلتزم بالابتعاد عن الممنوعات. كانا يقضيان وقتًا طويلًا في الخارج، لا سيما في الليل. بالحبال المأخوذة من غرفة التسلق كانا يهبطان من شرفة غرفة إيجي إلى الحديقة، ثم يسيران في الغابة، ومن محطة الوقود البعيدة قليلًا يشتريان أحيانًا آيس كريم أو مشروبًا غازيًّا. كان لدى إيجي جهاز «ووكمان»، ومنه كانا يستمعان إلى أغاني فرقتَي «بينك فلويد» و«لد زبلين»، كانا يرددان كل الكلمات مع الفرقتين، مع أنهما لم يفهما كلمة واحدة تقريبًا، وعندما تقترب كشافات سيارة، يحاولان تخمين ماركتها. كان إيجي فائق المهارة في ذلك، ونادرًا ما أخطأ. كان يريد أن يصبح سائق مسافات بعيدة عندما ينتهي من المدرسة، وكان يتخيل الأمر رائعًا، أن يجلس في شاحنة ويستمع إلى موسيقى، ولأيام يقود شاحنته عبر عدة دول. على المنضدة بجانب سريره كان يقف ديناصور على نوابض، أهداه إياه فيلكس في عيد ميلاده العاشر؛ ديناصور ثلاثي القرون، كان إيجي يريد أن يضعه في كابينة السائق في أول شاحنة يقودها، في الأمام، بجانب لوحة القيادة. لم يكن فيلكس يستطيع تخيل ذلك آنذاك، لكن إيجي كان يحسده على شعبه الهوائية السليمة ونهايات الأسبوع التي يقضيها مع والديه في التجول في الغابة السوداء، تلك المسيرة البائسة التي كان فيلكس يكرهها للغاية. كان

إيجي يشعر أحيانًا بضجر عظيم. ومن المرجح أن فكرة بيت التوت البري قد خطرت على باله بسبب ذلك. أطلقا على البيت ذلك الاسم لأنه كان مهجورًا منذ فترة أزلية، ومن الخارج تكاثفت حوله شجيرات التوت البري. كان البيت مقامًا عند نهاية القرية في الغابة، لا يبعد كثيرًا عن محطة الوقود. في المدرسة شاع أن أشباحًا تظهر فيه، وروى البعض أيضًا أن كنزًا ملعونًا مخبأ هناك، لكن أحدًا لم يدخل البيت من قبل. حتى الوالدان لم يعرفا مَن كان يسكن فيه أو مَن يملكه. كانت النوافذ مغلقة من الداخل بشيش سميك الخشب، والباب موصد بثلاثة أقفال مختلفة. شغل البيت بال إيجي، وكثيرًا ما تخيل بالتفصيل ما يمكن أن تحتويه الغرف الخفية، والأسرار التي يمكنهما أن يبوحا بها للأطفال الآخرين إذا نجحا في دخوله. وقد قال:

- وإذا وجدنا الكنز، فستكتب عنا الصحف ونظهر في التلفزيون!

وفي عصر أحد أيام الثلاثاء ظهر إيجي فجأة عند مدخل الساحة الرياضية حيث يلعب فيلكس كرة القدم كل أسبوع. وقف خلف شجيرات البندق، وصفَّر له عندما مرَّ به بالدراجة في طريقه إلى التدريب. لم يكن إيجي يريد أن يراه أحد. في جيب سرواله كان يضع علبة بها أدوات ذكَّرت فيلكس بزيارته لطبيب الأسنان. قال له إيجي:

- «طفَّاشة»، نستطيع بها أن نفتح الأقفال. لقد طلبتها من كتالوج لوازم المحقق السري. ونستطيع بها أخيرًا الدخول إلى بيت التوت البري. كلها أقفال بسيطة يسهل فتحها، لقد فحصتها!

لم يكن فيلكس يعرف آنذاك ما هي الأقفال البسيطة، كما لم ير قَطُّ عن قرب أي «طفَّاشة»، لكنه لم يتعجب من أن إيجي يعرف ذلك، كان إيجي موسوعة متحركة. وإذا وضع شيئًا في رأسه، فإنه يجد الطريق والوسيلة. أوهم والدته بأنه يتفرج في غرفة السينما على ثلاثية «حرب الكواكب»، ورفع عاليًا درجة الصوت، وأخذ معه صينية عليها طعام وشراب حتى لا تفكر في إحضار شيء له. هرب عبر النافذة، من الطابق الثاني، وهبط

مستخدمًا المزراب. كان وجه إيجي مشرقًا، فلم يستطع فيلكس أن يرفض القيام بهذه المغامرة معه. انطلقا إذن إلى البيت بالدراجة، وجلس إيجي على حامل المتاع في الخلف، فهو لم يكن يمتلك دراجة. منفعلًا راح يطبل بكفيه على ظهر فيلكس.

في الطريق إلى البيت فاحت رائحة الطين الرطب والزهور البرية التي كانت تجف في الظل ببطء شديد. قطف كلاهما حفنة من الفراولة البرية، وأكلاها قبل أن يصلا إلى بوابة الدخول. كان إيجي قد أحضر معه مقص الشجر الذي يملكه والده، وبه شق طريقًا عبر التوت البري. عندما وقفا أمام الباب، همس قائلًا:

- ربما نجد صندوقًا مليئًا بالذهب. أو هيكلًا عظميًا!

كان لا بد أن يجرب عدة أنواع من «الطفاشات» إلى أن نجح في فتح قفلين، وبعدها بقليل استجاب القفل الثالث أيضًا. عندما دفعا الباب معًا، دق قلب فيلكس حتى وصلت النبضات إلى عنقه. أخرج إيجي كشافًا صغيرًا من حقيبة الظهر، وأضاء الدهليز، فهربت بعض العناكب إلى شقوق الجدار الحجري. دخلا غرفة كبيرة لا بد أنها كانت فيما مضى غرفة المعيشة. فتح إيجي شيش النافذة، بقدر الإمكان، وبالمقص فتح ثقوبًا في شجيرات التوت البري حتى يدخل بعض من ضوء النهار إلى الغرفة. على ما يبدو كان شخصًا يريد العودة، ولذا غطى الأثاث. بحذر نزعا الغطاء عن قطعة وراء قطعة: مكتب «سكرتير» خشبي مزين بالنقوش، ما زال المفتاح في قفله، وساعة ذات صندوق طويل توقفت، واخضرَّ بندولها النحاسي، صندوق في رف وفيه قطط خزفية متربة، خزانة ذات واجهة زجاجية بها كؤوس شمبانيا وطقم فناجين قهوة عليه زهور، مائدة طعام بكراسي عليها كسوة حمراء، وعربة لنقل الطعام ما زالت عليها زجاجة روم. نزع إيجي بأسنانه سدادة الفلين المهترئة من عنق الزجاجة، وتناول جرعة كبيرة، فتقلصت ملامح وجهه، وأخذ يسعل، ثم بصق نصف ما شربه ومد يده بالزجاجة إلى فيلكس قائلًا:

- قوي جدًّا هذا الشيء. لكنه لذيذ، جرب!

تناول فيلكس جرعة كبيرة، كان طعمها بشعًا، مثل ماء ساخن شعر بالكحول يحرق مريئه، لكنه لم يدع الآخر يلاحظ عليه شيئًا. في تلك الأثناء توجه إيجي إلى الأريكة في منتصف الحجرة وراح ينزع الغطاء. امتلأت الغرفة كلها بالتراب، فسعل إيجي ووضع طرف رقبة التيشيرت على أنفه. قال فيلكس وهو يتحسس الفراغ في صندوق الساعة الخشبية:

- لا بد أنهم أغنياء، هؤلاء الذين سكنوا هنا. عند جدتي ساعة مثل هذه، في نصف حجم هذه الساعة، ولا يسمحون لي بلمسها. تقول جدتي إنها ورثتها، وهي تساوي ثروة.

أومأ إيجي وشرع يفتح أدراج «السكرتير»، قائلًا:

- ربما نجد عملات ذهبية قديمة، أو قطعًا من الألماس. بالتأكيد ما زال شيء ما مُخبأ هنا!

أخذ فيلكس يعبث في المدفأة من دون جدوى، لا شيء صادفه هناك سوى الرماد، لذا سار ليبحث في المطبخ. لكن الأدراج كانت فارغة إلا من سكينتين فضيتين لقطع الزبدة، الخزانات كانت أيضًا فارغة، لم يجد هناك سوى ملّاحة أمسك بها بكلتا يديه، ومطحنة فلفل أسود من الخشب كان رأسها المستدير صدئًا. فك فيلكس المطحنة، لكنه لم يجد بداخلها سوى عدة حبات منكمشة من الفلفل. زجاج النافذة لم يعد شفافًا بسبب الطقس، ومن شق في الزجاج ضل فرع من شجيرة لبلاب طريقه، نما الآن فوق الحوض، وعلى بلاط الأرضية زحف قمل الخشب ذو اللون الأزرق. سلم ضيق قاده إلى الطابق العلوي، مستطيلات فاتحة اللون على الجدار تبرهن على أن صورًا كانت معلقة هنا ذات يوم، صورًا عائلية ربما. الغرف الأربع في الطابق العلوي كانت فارغة، لا أسِرة، ولا أثاث، لا شيء. ناداه إيجي من غرفة المعيشة عندما كان فيلكس يهم بقلب بلاط الأرضية المخلخل في الحمّام، غير أنه لم يجد تحته إلا الخنافس. شعر بقليل من خيبة الأمل،

وفكر في أن إيجي قد اكتشف شيئًا على الأرجح قبله، وسار إلى الأسفل مرة أخرى.

قال إيجي وهو يقفز ويهبط على الأريكة:

- من يقفز أعلى، يحصل على صندوق الكنز. النوابض رائعة. أفضل من أي منطة!

صعد فيلكس على الكسوة، وقفز مع إيجي للفوز بالرهان، وكان دائمًا أعلى قليلًا منه، ثم استدار في الهواء، وسأله:

- هل تستطيع ذلك أيضًا؟ إيجي، هل تستطيع ذلك؟

استدار إيجي في الهواء، مرة، ثم مرة ثانية، وبعد ذلك لم يعد يثب عاليًا. راح يلهث، وبدأ يسعل، أنفاسه أصبحت تشبه صفارة مدرب كرة القدم بعد أن وقعوا في بحيرة البط، صفارة متعددة الأصوات. واصل إيجي القفز قليلًا، ثم جلس على حافة الأريكة وحاول الحصول على هواء. عرف فيلكس ما يعنيه ذلك، حتى إن كان لم يعايش ذلك سوى مرات قليلة. إيجي عنده نوبة من نوبات مرضه، ويحتاج إلى بخاخته. قال فيلكس:

- أين بخاختك يا إيجي؟ نحتاج إلى بخاختك!

تشبث إيجي بذراعه:

- لم أعد أستطيع التنفس، التراب، التراب اللعين.

حمل فيلكس إيجي على ظهره، وخرج به إلى الهواء الطلق عبر الدهليز المظلم أمام الباب، كان إيجي يلهث، جبينه مندًّى، وخداه في غاية الحمرة. سأله فيلكس:

- أين بخاختك يا إيجي؟

قال إيجي متنهدًا:

- حقيبة الظهر.



ولم يكن يريد أن يترك فيلكس عندما عاد الأخير متعثرًا إلى البيت. بجانب عربة الطعام وجد حقيبة ظهر إيجي، قلب محتواها على الأرضية الخشبية:

كشاف آخر صغير، وعلبة من حلوى الجيلاتين على شكل دببة، وعلبة مناديل ورقية، وقصة مصورة لسبايدرمان، ومسدس مياه، ومِفك، وولاعتان، ولبان، ومقلمة، ومطواة، ومحفظة إيجي. لكنه لم يعثر على بخاخة، ولا في الجيب الخارجي. ارتعشت يدا فيلكس. غمغم قائلًا:

– ماذا أفعل؟ ماذا عليَّ أن أفعل؟

ركض عائدًا إلى إيجي الذي كان قد تكور على نحو غريب على الأرضية الحجرية أمام الباب، فتش جيبي سرواله، وكنزته الصوفية، لا شيء. قال له:

– لا أجد البخاخة يا إيجي، إنها غير موجودة.

قال إيجي:

– في البيت. في غرفة السينما.

فتح عينيه وفمه، وتشبث بفيلكس. أراد فيلكس أن يعدو إلى الدراجة، وأن يذهب بأسرع ما يمكن إلى منزل إيجي أو إلى محطة الوقود، أن يبلغ أي أحد كي يُحضر بخاخة إيجي.

– دعني يا إيجي، لا بد أن أحضر البخاخة، لا بد أن أنطلق وأحضرها.

لم يعد إيجي يلهث، وخفت الصفير، وتراخت قبضته حول ذراع فيلكس، ربما تكون حالته تحسنت، هكذا فكر فيلكس، ربما تكون النوبة مرت. نهض فيلكس، مال إيجي إلى الأمام، وكان الآن راقدًا وقد لامس خده الأحجار، لم يعد يتحرك. مطلقًا. وضع فيلكس يده على ظهره:

– إيجي، إيجي!

لكن إيجي لم يعد يتنفس. بإصبعين جس فيلكس نبضه، مثلما شاهد ذلك في أفلام إيجي عن المخبر السري. لا شيء. ضغط بإصبعيه أكثر، لا بد أن يكون هناك نبض، لا بد أن يشعر بدقات قلب إيجي، ليس معقولًا أن قلب إيجي توقف عن الخفقان، لقد كانا يلعبان فحسب، يلعبان قليلًا، أخذ يهزه، ويقلبه، لكن لم يصدر عن إيجي أي رد فعل، لم يعد يصدر عنه أي رد فعل، كان يرقد هناك فحسب، أمام بيت التوت البري. سخن رأس فيلكس، سار

القهقرى، وعدا في هذا الوضع إلى دراجته، وقادها بسرعة فوق تربة الغابة حتى يصل إلى الطريق الرئيسي، إلى كابينة التلفون خلف محطة الوقود، ألقى بقطعة نقدية، ثم بأخرى، وأدار رقم النجدة، ١١٠، وضغط السماعة على أذنه إلى أن سمع رنينًا، وردت عليه امرأة، فغير صوته، وحاول أن يبدو مثل بنت صغيرة، وقال:

- لقد سطوا على بيت التوت البري، البيت في الغابة خلف محطة الوقود، شخص ما سطا عليه، سمعت رصاصات.

سألته الشرطية عن اسمه، لكنه أنهى المكالمة وأعاد السماعة إلى مكانها، وراح ينتحب، انسالت قطرات من مخاط أنفه على ذقنه وعلى الكنزة الصوفية، وعلى كل مكان، قال لنفسه: لا بد أن أمسحه، لكنه لم يعرف بأي شيء. لم يعرف كيف يتصرف، كان يود لو استطاع أن يبقى في كابينة التلفون هذه، لكن جدرانها شفافة، وبمقدور أي شخص أن يراه. إيجي. في رأسه كان إيجي يرقد ميتًا. الأرضية الحجرية، عيناه المفتوحتان، حقيبة الظهر بكل ما فيها من أشياء لا فائدة منها. شعر فيلكس بالبرد، العرق يتصبب منه، وأنفه يقطر. ركب دراجته، ولم يكد يرى شيئًا من دموعه، وواصل القيادة في الغابة بالقرب من البيت، ثم زحف خلف زهور شجيرات الفاوانيا التي كانت تبعد مسافة كافية عن البيت وعن إيجي.

لم يمر وقت طويل حتى ظهرت الشرطة. شرطية وشرطي، اقتربا بسيارتهما اقترابًا شديدًا من البيت، ثم ركضا إلى إيجي، وهزاه، مثلما فعل فيلكس من قبل، وجسا نبضه، ثم راحا ينظران إلى الأشجار نظرة حائرة. قالت المرأة شيئًا في جهاز اللاسلكي، ثم وضعت يدها على فمها، وعادت إلى السيارة وجلست، ثم أغلقت الباب كأنها لا تريد أن تكون لها أي علاقة بكل هذا. دخل الرجل البيت، وصعد أيضًا إلى الطابق العلوي، كان بمقدور فيلكس أن يرى ظله. ثم عاد بحقيبة ظهر إيجي، وأحضرها إلى المرأة في السيارة، فنهضت ووضعتها على سطح السيارة، ثم راحت

تقلب في الأشياء، وأخرجت في البداية محفظة إيجي وأعطتها للرجل، ثم مقلمة إيجي التي فتحتها، وأخرجت الأقلام، ثم شيئًا أكبر، أخضر اللون. الآن كاد قلب فيلكس يتوقف. كان هذا جهاز الاستنشاق الخاص بإيجي. تحدثت المرأة ثانية في اللاسلكي. وبعد فترة جاءت سيارة إسعاف. لا يعلم فيلكس كم من الوقت مضى عليه وهو قابع بلا حراك خلف الشجيرات. إلى أن وضعوا إيجي فيما يشبه الكيس الرمادي، وشدوا السحَّاب من أسفل إلى وجهه. لم يعِ فيلكس أنه مات إلا في تلك اللحظة، أن إيجي فارق الحياة؛ أنه لن يراه ثانية أبدًا. شعر فيلكس بتنميل في ساقيه وفي يديه أيضًا، وحول رأسه حام البعوض الذي قرصه في ذراعيه وفي خديه. لكنه لم يتحرك. وبقي قابعًا خلف الزهور. إلى أن تأكد من أن الآخرين قد انتهوا من تدريب كرة القدم.

في البيت جلس إلى مائدة العشاء وكأن شيئًا لم يحدث. وحكى لوالديه عن التدريب، وحتى يبدو أكثر مصداقية اخترع أشياء فعلها شخص ما، «فاول» سيئ ضده. كانت أمه مسرورة، وتحدثت عن أولى ثمار الفراولة وعن أن الصيف قد بدأ، وأن زهور الفاوانيا قد أينعت، وأن بإمكان المرء مجددًا أن ينام ليلًا والنافذة مفتوحة. ازدرد فيلكس المكرونة بصعوبة، ولم يكن يريد أن يلاحظ أحد شيئًا، فهو يكون جائعًا بشدة بعد التمرين. أكل أيضًا من كعكة الفراولة، بالكريمة، حتى لا يفضح نفسه. وبعد ذلك، في الحمَّام، وجد نفسه يتقيأ، فحاول أن يكون صوته خافتًا، فالجدران رقيقة. لم يكن من السهل إطلاقًا أن يتقيأ بصوت خافت. لكن والديه لم يلاحظا شيئًا. كانا يشاهدان برنامج مسابقات، وكان صوت التلفزيون عاليًا جدًّا. تمنت له أمه أحلامًا سعيدة عندما ذهبت به إلى الفراش. في الصباح سيكون النهار مشمسًا. رقد فيلكس مستيقظًا يحدق في السقف، وهناك رأى إيجي الميت راقدًا.

كان الظلام منتشرًا عندما سمع رنين الهاتف، وصوت أمه الخافت، ثم

صوت أبيه، ثم أُغلق التلفزيون، واقتربت خطوات من بابه. ودخل والداه معًا إلى غرفته، ما لم يحدث من قبل قَطُّ. جلست أمه على حافة الفراش، ووقف أبوه عند آخره، واستند على الإطار الخشبي. استهلت أمه الكلام قائلة:

- لا بد أن نقول لك شيئًا يا حبيبي. لا بد أن تكون قويًا جدًّا الآن.

جلس فيلكس في الفراش، وتطلع إلى فم أمه الذي كان يتحرك، وسمعها تقول إنهم عثروا على إيجي، في الغابة، وإنه على ما يبدو اقتحم بيت التوت البري، ولا بد أن البيت كان متربًا جدًّا، فلم تتحمل شعابه الرئوية ذلك، وإنه الآن في السماء. لم يتحرك فيلكس. وراح ينظر إلى الكواكب على غطاء سريره، بلوتو، المريخ، أورانوس، وبقعة الليمونادة بجانب المشتري التي تسبب فيها إيجي عندما جاء إلى فيلكس في مطلع الأسبوع ليصطحبه ويشاهدا فيلمًا معًا. اقتربت أمه أكثر، واحتضنته، وضمت رأسه إلى صدرها. لم يقدر على البكاء، لم تنزل أي دموع، لم يكن ذلك ممكنًا. تركته أمه، وسألته:

- هل كنت تعرف شيئًا عن ذلك؟

هز فيلكس رأسه. لم تسأله أكثر من هذا. الأب أيضًا لم يذكر أي كلمة بعد ذلك عن موت إيجي، لا في تلك الليلة، ولا بعدها أيضًا. لم تواصل الشرطة تحقيقاتها، ولم يشك أحد في أن إيجي كان في الغابة بمفرده. بعد أسبوع ذهبا إلى جنازته، ووضعوا الديناصور المهتز على القبر، وجلسوا بعد ذلك في مطعم، وتناولوا بطاطس مقلية ودجاجًا، أكلة إيجي المفضلة. ضمت والدة إيجي فيلكس إلى صدرها فترة طويلة، ثم قالت له إن بإمكانه أن يحصل على كل ما يعجبه من أشياء إيجي، وإن بمقدوره أن يأخذ معه كل شيء.

قال فيلكس لروزفيتا:

- لكنني لم أرد شيئًا. ولم أذهب بعدها قَطُّ إلى منزل إيجي. وحتى اليوم لا يعلم أحد أنني كنت هناك، في بيت التوت البري.

أسند فيلكس مرفقيه على فخذيه، وترك رأسه يهبط بين الركبتين. ما زالت يدا روزفيتا على ظهره. لم تقل سوى:

- اهدأ، اهدأ، اهدأ.

وربتت بيدها على ظهره صعودًا وهبوطًا. سقطت دموعه على الأرضية الخشبية وبين شقوقها. مسح بكلتا يديه على وجهه، ثم اعتدل في جلسته. الآن يستطيع أن يتنفس ثانية.

سألته روزفيتا:

- هل تعرف مونيك الموضوع؟

هز فيلكس رأسه، وقال:

- أنا نفسي نسيت الأمر تقريبًا. إيجي، بيت التوت البري، كل شيء. لكن منذ أن بدأت مونيك تشتري أشياء الأطفال، وتتحدث دائمًا عن الوضع عندما كنا أطفالًا...

ولم يتم جملته.

أحضرت روزفيتا سيجارتها الإلكترونية من جيب المئزرة، وأخذت نفَسًا عميقًا. كان من الواضح أنها تبذل جهدًا حتى لا تنفخ الدخان في اتجاه فيلكس، ثم قالت:

- من الجيد أن تصعد هذه الأشياء إلى السطح. إنها مثل الشظايا التي تصيب المرء. إذا لم يُخرجها أحد، تلتهب، وقد تقتل المرء في بعض الأحيان. لكن إخراجها مؤلم، مؤلم جدًّا. وكلما كبرت الشظية، ازداد الأمر سوءًا.

نهض فيلكس وسار إلى النافذة وفتحها. شعر بعروق رأسه تنبض أثناء السير. اختفى الصبيان من فوق المنطة، وخَلَت الباحة الخلفية.

- وماذا إذا حدث لابني شيء كهذا؟ إذا لم أستطع أن أحافظ عليه، إذا جُرح أو مات، أو قَتل شخصًا آخر، ماذا يحدث عندئذ، ماذا إذا فقدته لأنني لم أنتبه له بشكل كافٍ؟

أعادت روزفيتا السيجارة الإلكترونية إلى جيب المئزرة، وقالت:

- عليك الآن أن تنتبه لكي لا تفقده قبل أن يصل إلى الدنيا أساسًا. تحدثْ مع مونيك، إنها تستحق ذلك، وهي امرأة ذكية.

أومأ فيلكس. كان يعلم أن روزفيتا محقة.

قالت روزفيتا:

- يجب أن أعود إلى المقهى، الفوضى العارمة تسود بالأسفل. هل يمكنني أن أقدم لك شيئًا آخر؟

- هل لديكِ في المقهى كاكاو؟

ضحكت روزفيتا:

- ستحصل على فنجان. وإذا حالفك الحظ، فقد أجد كيسًا مجمدًا من البازلاء، تستطيع أن تضعه على جبينك.

خلع فيلكس حذاءه، واندس تحت الغطاء. مونيك، وبلازر، والمرأة على السطح، وإيجي، وبيت التوت البري، كلهم ابتعدوا بعيدًا فجأة. لم يعد هناك سوى هذا السرير، والغطاء القطني البارد الذي سحبه حتى أنفه، والنبض في رأسه، والسكون في الباحة الخلفية، الذي لم تعد أذناه تنفر منه.

فِني

بملعقة صغيرة فتتت فِني قرص المسكن. حاولت سالومي مرتين متعاقبتين أن تبتلعه، لكنها بصقته ثانيةً في المرتين. كانت تضع قربة مياه ساخنة على بطنها وهي راقدة على الكنبة القديمة المكسوة بالجلد الاصطناعي، في كشك الحديقة الذي تستخدمه فِني كحجرة رسم. الستائر ذات البرق الأصفر خاطتها فِني بنفسها. بمساعدة أمها صنعت مكتبًا من ألواح خشب حبيبي وحوامل خشبية، ورفوفًا تحتفظ فيها بالقصص المصورة، وهي مجموعة تصل من السقف حتى الأرضية تقريبًا، مرتبة حسب تاريخ النشر، ومنها طبعات ثمينة مغلفة بسيلوفان خاص. على الجدار فوق الكنبة عُلق ملصق لـ«بلاك كناري»، رفيقة «فلاش»، وفيه تخترق «بلاك كناري» - بجواربها الطويلة الشبكية الزرقاء وشعرها الأشقر الكثيف الذي يشبه لبدة الأسد - جدارًا من القماش بقدمها. بجانب الشباك يمتطي «لاكي لوك» حصانه «جولي جامبر» في اتجاه غروب الشمس، وعلى المكتب تقف المرأة القطة بقبضة مرفوعة أمام بانوراما مدينة جوثام. فاحت في الحجرة الصغيرة رائحة الأقلام المبرية وشربات النعناع، مشروب فِني المفضل، على الأقل بسبب اللون الأخضر الزاهي. أعدته مخففًا للغاية لأن سالومي - من ناحية المبدأ - لا تتناول مشروبات مُحلاة. أزاحت فِني مسحوق القرص بطرف إصبعها إلى الملعقة، وقالت:

- هكذا لن تكون هناك مشكلة. هذا ما تفعله أمي دائمًا عندما لا تستطيع ابتلاع قرص.

تطلعت سالومي إليها ومدت يدها. قالت فِني:

- لكن عليكِ في البداية أن تأكلي الموزة كلها.

مدت سالومي يدها إلى الثمرة المقضومة التي كانت موضوعة على مسند الكنبة، وقد أصبحت حواف القضمة تميل إلى اللون البني. قالت:

- كلها سكر. وكلها نشويات.

ردت فِني مشيرة إلى الملعقة:

- وهنا كلها أشياء تزيل الألم. ولكن إذا لم تأكلي شيئًا قبلها، فستتقيئين كل شيء مرة أخرى، وعندئذ لا بد أن نبدأ من البداية.

أدارت سالومي عينيها، وأكلت الموزة بقضمات بالغة الصغر.

مدت فِني يدها بالملعقة. من دون أن تنطق بكلمة وضعتها سالومي في فمها، فتقلصت ملامح وجهها، وبسرعة تناولت جرعة من الشربات، ثم تركت نفسها تعود إلى مكانها على الوسائد.

تأملتها فِني. كيف تتنفس، وتدير رأسها جانبًا، وجفناها منغلقان، وأصابعها متشبثة بالقماش الذي يكسو القربة الساخنة. أن ترقد سالومي على كنبتها بدا لها غير حقيقي. بدأ الشك يخامرها فيما إذا كانت فكرة جيدة أنها اصطحبتها معها، وتحديدًا إلى الحجرة التي تختلي فيها بنفسها كثيرًا عندما تسيء سالومي إليها، وتسخر منها أمام الفصل كله. المكان هنا هو ملاذها، الحجرة السرية التي تهرب إليها من العالم. لحسن حظها لم تترك في المكان رسومًا لـ«الليدي إكسس». فكرت فِني: من يعرف ماذا ستفعل عندما لا تعود تشعر بألم؟ سحبت من المقلمة قلمًا له لون القهوة بالحليب. وضيقت عينيها ثم وضعته بجانب شعر سالومي. أفتح من اللازم. لقد استخدمت طوال الوقت قلمًا ذا لون أفتح من اللازم. جربت قلمًا أغمق قليلًا، بلون قشرة اللوز؛ هذا مناسب. لم تتَح لها من قبل الفرصة لدراسة «الليدي إكسس» بهذه الدقة. راحت تفحص أيضًا لون نمش الصيف؛ لقد اختارت هذا اللون بدقة متناهية. بعد برهة سرى الاسترخاء في أجفان سالومي، وبدا أنها استغرقت

في النوم. فكرت فِني: يمكنني أن آخذ قلم فلوماستر وأرسم لها شاربًا لا تمحوه المياه؛ أو أن أقص لها أطراف شعرها بمقص الورق، «تساك»، في جانب واحد فحسب، أو كلا الجانبين معًا. في جيب سروال سالومي الذي كان منشورًا على حافة الشباك كي يجف، بدت ملامح تلفونها المحمول. أم أن أكتب ربما رسالة سخيفة لتيمو؟ صورة لسالومي الراقدة هنا، والملتحفة ببشكير سوبرمان وعلى بطنها القربة الساخنة، وفمها مفتوح مثل رضيع. نهضت فِني ومدت يدها نحو التلفون. ضغطت على زر التشغيل. لا شيء. التلفون كان مغلقًا.

- ماذا تفعلين هناك؟

ارتجفت فِني وتركت التلفون ينزلق ثانية في جيب السروال، ثم قالت:

- اعتقدت أنه رن.

قالت سالومي وهي تضع ساعدها فوق عينيها:

- بالتأكيد لا. لن أشغل هذا الشيء ثانية أبدًا.

سألتها فِني متهكمة:

- ماذا حدث؟ هل حصلت على عدد «لايك» أقل من اللازم على إنستجرام؟

قالت سالومي:

- ربما ينبغي عليَّ أن أفعل ما فعلته المرأة على السطح. أن أنهي كل شيء ببساطة. خلاص، فات وانقضى، كل شيء انتهى.

ضحكت فِني:

- لأن الدورة جاءتك؟ مثل كل البنات أيضًا؟

نظرت إلى الساعة وأضافت:

- سيبدأ مفعول القرص في أي لحظة، عندئذ ستشعرين بالتحسن، صدقيني.

قالت سالومي:

- لم أعد أشعر بأي ألم تقريبًا. ليس هذا هو السبب.

التوى فمها، واهتزت كتفاها، كانت تنتحب. سالت الدموع على خديها ثم على كسوة الكنبة. حاولت سالومي منع نفسها من البكاء، ونظرت عاليًا إلى السقف، وبإصبعها الصغيرة مسحت المنطقة تحت رموشها السفلى، ثم أدارت ظهرها. وقفت فِني ولم تعد تعرف ماذا تفعل. ألقت نظرة على «بلاك كناري»، وعلى قبضتها المضمومة، وملامحها التي تنبئ عن عزم وتصميم. بحذر جلست على حافة الكنبة. وبحذر أكبر لمست كتف سالومي:

- ما الموضوع إذن؟

انتحبت سالومي بصوت عالٍ، وأخذت تلهث محاوِلة استنشاق الهواء، وكان جسدها كله يرتجف. تهتهت قائلة:

- الصورة. بالتأكيد هي الآن أونلاين، لن أستطيع الخروج من البيت بعد اليوم، أنا انتهيت.

- أي صورة؟

سحبت سالومي الهواء عبر أنفها وواصلت:

- أتتذكرين الحفلة عند تيمو الأسبوع الماضي؟

سحبت فِني يدها:

- أتقصدين الحفلة التي لم أُدعَ إليها؟

جلست سالومي، وقالت:

- كنت أتمنى لو لم أذهب إليها أنا أيضًا.

أزاحت القربة جانبًا، ومسحت بكُم التيشيرت دموعها، ثم أضافت:

- هناك ما يشبه غرفة للكراكيب في قبو تيمو، وهناك ثلاجة بها مشروبات وكل مستلزمات الحفلة. دخلت الغرفة مع تيمو، حتى نتبادل القبل. تبادلنا القبل كثيرًا، وأنا أحب ذلك دائمًا، أحب طريقته...

أدارت فِني عينيها:

- هل يمكنك أن تقدمي الشريط إلى الأمام قليلًا؟

- على كل حال، حاول تيمو في لحظة أن يتحسسني تحت ملابسي العلوية. أزحت يده، لم أكن أريد ذلك. لكنه حاول مرة ثانية، قال لي: «هيا، كل بنت تفعل ذلك، كل واحد أعرفه تسمح له صديقته بأن يتحسسها تحت التيشيرت». لكن، لا أعرف، لم يكن لديَّ شعور جيد، كنت أريد أن يتركني في سلام. لكنه لم يدعني، عندئذٍ صفعته. لم أكن أريد يده هناك ببساطة، لا أعرف لماذا.

قالت فِني:

- أحسنت!

مسحت سالومي تحت أنفها بظهر يدها وسألتها:

- هل تستطيعين فهم ذلك؟

- أنا لا أستطيع فهم أن تكون لدى الفتاة رغبة في أن يلمسها تيمو من الأساس في أي مكان.

ابتسمت سالومي، على الأقل بزاوية فمها، قبل أن تَغرق عيناها مرة أخرى في الدموع:

- قبل قليل حاول مرة أخرى وقال إنني لا أحبه إذا لم أتركه يفعل هذا، وإن هذا برهان على الحب. وإنني سوف أندم لأنه سيضع صورتي أونلاين، الصورة التي أرسلتها له الأسبوع الماضي.

سألتها فِني:

- وماذا تُظهِر؟

- ليس كثيرًا. أنا، ولا أرتدي شيئًا في الأعلى. وأصيص النبات بجانب سريري. نخلة.

بكفها خبطت فِني جبينها.

- اعتقدت أنه سيهدأ عندما أرسل له الصورة، ولن يحاول معي ثانية. كنت أعتقد أنه يحبني. كنت أعتقد ذلك فعلًا. لكنه لا يهتم بي مطلقًا.

ولم أستطع أن أنهض وأصفعه، بسبب هذه القذارة الدموية السخيفة، بالتأكيد كان سيلتقط لي صورة أخرى هكذا.

دفنت سالومي وجهها بين ركبتيها، وشبكت ذراعيها حول ساقيها، وواصلت:

- إذا رأى الآخرون الصورة، فسوف... إلى أين أذهب عندئذٍ، الإنترنت في كل مكان، كيف سأذهب ثانية...

قاطعتها فِني:

- كلهم كانوا الآن في حمَّام السباحة، أليس كذلك؟

أومأت سالومي.

- ومساء الثلاثاء يتدرب تيمو دائمًا في الساحة الرياضية. إنه يلعب جمباز هناك، ويتدرب على العقلة.

- وما علاقة ذلك بالصورة؟

- لقد أرسلتِ له الصورة على الواتس آب، صحيح؟

- طبعًا. وماذا يعني ذلك؟

ابتسمت فِني وقالت:

- إذن، لن يستطيع تحميل الصورة إلا عندما يصل إلى البيت.

نظرت سالومي إليها من دون أن تفهم ما تعنيه.

- لقد كسرتُ له المحمول قبل قليل، عندما كان يصور المرأة على السطح. وقع منه وانكسر.

أشرقت ملامح وجه سالومي:

- بجد؟

قالت فِني:

- مع ذلك تحتاجين إلى وسيلة ضغط. فالمحمول من الممكن إصلاحه. وعلى اللابتوب، على أقصى تقدير، سيستطيع الحصول على الصورة مرة أخرى.

أرادت سالومي أن تتكور مجدداً على الكنبة. قالت لها فِني:

- تماسكي الآن. عندي فكرة. علينا الذهاب إلى الساحة الرياضية، بأقصى سرعة.

أخذت هاتفها من درج المكتب ودسته في جيبها.

قالت سالومي وهي تشير إلى بشكير سوبرمان الذي لفته حول خصرها:

- لكني لا أستطيع الذهاب هكذا!

- إذا وضع تيمو الصورة أونلاين فعلًا، فإن ما تقولينه هو أصغر مشكلة لديك.

- ألا أستطيع أن آخذ على الأقل شيئًا من خزانة ملابسك، أي شيء؟

هزت فِني رأسها. لا بد من بعض العقوبة.

- ليس لدينا وقت. هيا، تعالي!

أستريد

ما زالت لديها خمس دقائق. قذفت بالحذاء ذي الكعب العالي في ركن تعليق المعاطف والسترات، هي أكثر مرونة وهي حافية. لقد أصبح البحث عن هدايا هلجا أكثر مشقة، منذ أن استجابت لإلحاح شتيفان واستبدلت بالخزانة الكبيرة في غرفة السفرة ثلاثةَ كومودات صغيرة، ما استلزم توزيع الأشياء التي كانت في الخزانة على طابقين. وجدت دجاجة مصنوعة من الأسلاك، وكذلك ضفدعة من البلاستيك مزودة بأجزاء متحركة، وهي تصيح وتدير عينيها بمجرد مرور المرء أمامها. وضعتها أستريد بجانب باب المدخل. أم أنها كانت في المرة الأخيرة موضوعة على الدرج المؤدي إلى الحديقة؟ سيان. البوم، لا بد أن تجد العلبة التي تضم البوم الخزفي، إذا جاءت هلجا ولم تجد البوم في الحمَّام، على الرف تحت المرآة، مرتبة حسب اللون والحجم، فلا يمكن تخيل ما ستسمعه منها عندئذٍ. ذات مرة نسيت مانع إغلاق الباب، وهو على شكل كلب من فصيلة «البَج»، فظلت هلجا تشكو من غيابه إلى أن حمَّلت أستريد الشغَّالة المسكينة مسؤولية اختفائه. واليوم تحديدًا، وهما يريدان أن يطلبا من هلجا جزءًا مُقدمًا من الميراث لشراء المنزل الصغير في جزيرة أوزيدوم، اليوم تحديدًا لا تعرف أين وضعت البوم. فلتضع بسرعة الدجاجة السلكية على حافة النافذة في مرحاض الضيوف. وأين شتيفان؟ لقد ألغت خصيصًا لقاءها مع مجلس إدارة مدينة فرايبورج - وهو أمر حساس في وسط المعركة

الانتخابية - حتى تأتي في موعدها. لقد وعدها شتيفان أن يخرج هذه المرة من اجتماع الإدارة في الوقت المناسب حتى لا يتحتم عليها هي، أستريد، مرة أخرى أن تركض بحثًا عن تلك الأشياء وحتى لا تجلس بمفردها مع هلجا في الحديقة، وتجد نفسها مجبرة على سماع نصائح لحياتها لم تطلبها من أحد. بالإضافة إلى ذلك فإن هلجا أمه هو. رفعت في المطبخ بعض الأوعية والمصفاة من الخطاطيف المثبتة فوق الموقد، وعلقت بدلًا منها ثلاث سمكات خشبية من نوع السردين كانت قد أودعتها الدرج تحت الفرن. بجانب السكاكين المرشوقة في كتلة خشبية ذات فتحات وضعت الساعة المخصصة لإنضاج البيض، وبها دبة على دوامة تبدأ في الدوران عندما يضبط المرء الساعة. قالت أستريد لنفسها: ما أكثر ما يخترعه البشر! ركضت إلى الكومود في دهليز الطابق العلوي، لا بد أن العلبة الملعونة وبها البوم في مكان ما خلف أدوات كرة الريشة الخاصة بشتيفان، والمصابيح البديلة ومجموعة المحار من جزيرة لانزاروت. بكشاف الجيب في هاتفها المحمول سلطت أستريد الضوء على باطن الكومود المظلم، طرف التنورة يضغط على باطن ركبتيها، ويمنع سريان الدم؛ ستبرز مرة أخرى دوالي الساقين. تصببت أستريد عرقًا، وبدأ العرق الداكن يلتهم حواف بلوزتها الحريرية. بصوت عالٍ قالت لنفسها:

- لو لم يتم موضوع أوزيدوم، فسأحرق كل هذه السخافات في شواية الحديقة.

هناك، خلف أكياس المكنسة الكهربائية وسلسلة أنوار عيد الميلاد، لمحت علبة الكرتون المطبوعة عليها زهور، وبداخلها لا بد أن تكون تلك الحيوانات الخزفية والنافورة الصغيرة التي عليها أن تضعها تحت طاولة الأريكة. ما كادت تضع آخر بومة من الخزف على رف المرآة، حتى سمعت رنين الجرس. نظرت أستريد إلى هاتفها. دقيقة أبكر من اللازم، هذه هي هلجا. لم يعد ثمة وقت لتغيير البلوزة المبللة بالعرق والمتسخة ببقعة قهوة.

في الطابق السفلي، وفي ركن المعاطف ارتدت أستريد الجاكيت مرة أخرى، مع أن الطقس بشع الحرارة. ولبست حذاءها ثانيةً، وأرجعت شعرها خلف أذنيها، ثم أجبرت نفسها على الابتسام، وفتحت الباب.

كانت هلجا ترتدي فستانًا ملفوفًا بلون الخوخ، أضيق من اللازم تحت إبطيها، وحذاء لامعًا أبيض، وقبعة بيضاء من القش خيطت عليها حبات كرز بلاستيكية، وكانت برونزية اللون من أشعة السولاريوم الاصطناعية، كأنها تهبط لتوها من سطح سفينة سياحية. كقطعة حلوى، هكذا قالت أستريد لنفسها، إنها تبدو كقطعة حلوى.

قالت هلجا وهي تنحني على أستريد لكي تقبلها بفكيها قبلتين في الهواء:

- بونجور، مون امور.

هلجا من الناس الذين يستخدمون بشكل قسري لغة أجنبية عند التحية أو الوداع. بالنسبة إليها لم يكن هناك سوى «أريفيديرتشي»، و«أستا لا فيستا»، و«سا فا»، و«توتو بينه»، و«سايونارا»، و«تشاو تشاو»، و«آ دوبو»؛ وكانت توقع تحت رسائلها بكلمة «قبلة»، سواء «بيزو» أو «بانشيو» أو «كيس كيس».

قالت هلجا وهي تسحب ثمرة قرع بلاستيكية ضخمة من حقيبتها التي تشبه السلة:

- انظري ما أحضرته معي لكِ.

كان القرع ذا عينين وابتسامة بلاستيكية عريضة، وبلا أسنان. أضافت هلجا بوجه مشرق:

- إنه يعمل بإضاءة «الليد»، تقريبًا بلا استهلاك طاقة، ويستحق قيمته ذهبًا في أيام «الهالوين». لا ذباب ولا بقع من الشمع على بساط المدخل، كل شيء نظيف ويعيش إلى الأبد. في الظلام لن يلاحظ أحد أن القرع ليس حقيقيًا. ما رأيك؟

أخذت أستريد نفَسًا عميقًا جدًّا، وتناولت منها القرع. كان خفيفًا جدًّا، وتفوح منه رائحة البلاستيك النفاذة. أوزيدوم، المهم هو أوزيدوم.

- وهو بالتأكيد مقاوم للماء.

قالتها أستريد، إذ لم يخطر على بالها شيء أفضل.

صاح الضفدع وأدار عينيه عندما دخلتا إلى الدهليز. ذُعرت أستريد وتنحت جانبًا. قالت هلجا:

- ألا يسكن في المعتاد على درج الحديقة؟ هذه هي بالأحرى البيئة المناسبة له.

قالت أستريد:

- شمس أكثر من اللازم، للأسف.

كانت سعيدة لأن هلجا تتقدمها، هكذا كان لديها عدة ثوانٍ لإبداء تجهمها من دون أن تراها هلجا؛ ظهرت ملامح السخط على وجهها وكأنها تشم رائحة عفنة للغاية.

- أهكذا؟

في الطريق إلى الحديقة ألقت هلجا نظرة متفحصة على المطبخ، ثم قالت:

- ما زال لديَّ من السردين الخشبي. سيبدو رائعًا في مرحاض الضيوف، قولي لي إذا كنت بحاجة إلى مزيد.

مرة أخرى أبدت أستريد سخطها من خلف الأخرى. كان ذلك يريحها راحة كبيرة. في الحديقة كان الجو أبرد مما هو عليه بالداخل، وعند المائدة تحت شجرة الزيزفون كان لطيفًا حقًّا. رفعت أستريد الغطاء الحامي من الذباب عن التورتة التي أعدتها باللبن الرائب، وكذلك غطاء مشروب الليمونادة. مثل قطة كانت هلجا تتابع كل حركة من حركاتها، مرتابة ومستعدة للتدخل لدى أقل هفوة.

عندما اهتزت قطعة التورتة قليلًا على سكين التقديم، ووقع فتات على مفرش المائدة، قالت:

- ربما يمكنني...

ردت أستريد وهي تزيح القطعة على طبق هلجا:

- كل شيء على ما يرام.
بطرف إصبعها أزاحت هلجا الفتات من المائدة، قبل أن تضع يديها في حجرها نافدة الصبر. ساد سكون عنيد، كسرته أستريد قائلة:
- بالتأكيد سيصل شتيفان حالًا.
أدارت هلجا طبقها قبل أن تغرز الشوكة في التورتة، كأنها تبحث في القطعة عن الموضع الذي يكاد يخلو من العيوب، ثم قالت:
- يجب أن تمنحيه أخيرًا سببًا لكي يأتي إلى المنزل.
غرزت أستريد شوكتها في ثمرة توت بري.
رفعت هلجا حاجبيها وهزت رأسها قليلًا إلى اليمين وإلى اليسار، قبل أن تضيف:
- بعض الأشياء في الحياة ليست مثل النبيذ والجبن، تلك الأشياء لا تصبح أفضل، كلما انتظر المرء.
دهست أستريد ثمرة التوت على حافة الطبق، وقالت:
- لسنا مستعدين لذلك، على الأقل أنا غير مستعدة.
قالت هلجا وهي تضع الشوكة بحذر:
- المرء لا يكون مستعدًا قَطُّ. إلى أن يجتاز ذلك. أنجبتُ شتيفان وأنا في الحادية والعشرين، وبعد ذلك بشهرين كان جلدي مشدودًا مثل ثمرة خوخ. لكن في عمرك...
انحنت إلى الأمام كأنها تريد أن تبوح لها بسر:
- إذا انتظرتِ فترة أطول من اللازم، ستبدين بعدها مثل شخص دهسته سيارة، ثم أعادوا ترقيع أجزاء جسده.
نهضت أستريد، لا تزال الشوكة في قبضتها، وقالت:
- نحتاج إلى ثلج، لا يمكن شرب الليمونادة هكذا.
عندما وصلت المطبخ، وضعت الشوكة، وفتحت الثلاجة، ثم أدخلت فيها رأسها. لم تكن تريد ذلك. أن تربي في بطن مستدير كالكرة مسؤولية

تحملها طيلة الحياة. تريد أن تصبح عمدة مدينة فرايبورج. سواء وافق ذلك هلجا أم لا. أخرجت مكعبات الثلج من درج التجميد، وضغطت على مكعب من الكيس، ثم راحت تدلك به قفاها ومنطقة الديكولتيه.

- منذ متى يوضع الضفدع في الدهليز؟

من فزعها تركت أستريد مكعب الثلج يسقط. كان شتيفان يقف عند الباب، ويمسك بحقيبة أوراقه على كتفه باسترخاء. قالت له:

- دائمًا تفعل ذلك. دائمًا تتسلل مثل الحيوانات الزاحفة.

سألها شتيفان وهو يرسم بفمه قبلة:

- أمي لم تصل بعد؟

رفعت أستريد المكعب، وألقت به في الحوض، ثم قالت:

- تجلس في الحديقة وتخطط مستقبلنا. أين كنت كل هذا الوقت؟

قال شتيفان مشيرًا إلى الدهليز:

- ثمة نافورة داخلية على السلم، أينبغي أن تظل هناك؟

فحّت أستريد:

- اللعنة!

ثم مرت به. عندما عادت بالنافورة على ذراعها وأرادت أن تذهب بها إلى غرفة المعيشة، قابلتها هلجا وسدت عليها الطريق:

- أينبغي ربما أن أدعو الجيران حتى أجد أحدًا يجلس معي في الحديقة؟

فتح شتيفان ذراعيه قائلًا:

- أنا الآن هنا يا ماما. تبدين رائعة، في زي صيفي بحق.

أشاحت هلجا عنه بوجهها، وقالت مشيرة إلى النافورة بين يدي أستريد:

- هل تستغبياني؟ أتظنان أنني لم ألاحظ أنها ليست موصلة بالكهرباء مطلقًا؟

قال شتيفان:

- ماما، من فضلك. دعينا لا نتشاجر، إنه يوم بديع.

قالت هلجا:

- هلجا. كم من مرة قلت لك عليك أن تناديني باسمي: «هلجا»؟

غمغمت أستريد:

- لا تريد أن تُنادى بـ«ماما»، لكنها تريد أن تقنعني بطفل، برافو!

مطت هلجا شفتيها متسائلة:

- ماذا تقولين؟

قال شتيفان، مصفقًا بأدب:

- هيا، هيا، دعونا نهجم على التورتة.

زفرت هلجا الهواء وسألت أستريد:

- ألم تكوني تريدين إحضار ثلج؟ الليمونادة ستغلي قريبًا.

ضغطت أستريد على مكعبات الثلج وأخرجتها واحدًا بعد الآخر في وعاء زجاجي، وهي تكز على أسنانها غضبًا. عبر شباك المطبخ شاهدت شتيفان يقطع على نحو سيئ قطعة من التورتة، ثم يترك هلجا تضعها له على الطبق. فكرت أستريد: أيًا كان الأمر، سواء قطعة من التورتة أو تخطيط للمستقبل، فإنه يدع أمه دائمًا تفعل ذلك نيابة عنه. سألت نفسها: هل كانت ستحب شتيفان لو لم تقابله في أوزيدوم؟ ألم تكن، ربما، بالأحرى الظروف المحيطة هي التي دفعتها إلى ذلك؟ الرمال الساخنة، سلطة البطاطس التي أعدتها السيدة إريكا، الرياح الملحية، كراسي البحر التي تشبه السلال والتي تسع دائمًا لشخصين، البحر والشمس التي تهبط على نحو دراماتيكي للغاية خلف الغاب عند نادي القوارب. قالت أستريد لنفسها إنها ربما وقعت في الحب فقط لأن تَتابع الأحداث تطلب منها ذلك، مثلما يصفق المرء عندما يظهر الأوركسترا، أو يتظاهر بالفرحة عندما يحصل على هدية، ببساطة لأن الموقف يتطلب ذلك. ماذا كان بإمكانها أن تفعل غير ذلك؟ كانت هناك تلك العاصفة الرعدية، والقارب الثقيل الذي لم يكن باستطاعتها إخراجه بمفردها من المياه، ثم فجأة يدا

شتيفان البرونزيتان، والشمس، والغاب، وفي حقيبة ظهر شتيفان علبة من البلاستيك بها سلطتها المفضلة التي تقاسماها وسط الأمطار المتزايدة تحت السقف البارز لنادي القوارب، وكل هذا في جزيرتها المفضلة. في تلك الظروف بدا تطور مشاعرها الرومانسية تجاه شتيفان أمرًا أكثر من عقلاني. لكن الآن، في عصر هذا اليوم، هنا في المطبخ، فقد شكَّت في أنها كانت ستسلك هكذا في أي مكان آخر في العالم. سرى الخدر في يديها من البرد. تناولت الوعاء وبه مكعبات الثلج، ثم سارت إلى الحديقة. كان شتيفان ينظر إلى الأرض، وهلجا تبتسم ابتسامة صفراء. قالت لها:

- لقد تناقشنا في طلبكما. سأعطيكما النقود من أجل أوزيدوم، لا نقاش في ذلك.

أمالت أستريد رأسها. ليس هذا هو كل شيء، بالتأكيد سيأتي شيء.

قالت هلجا رافعةً سبابتها:

- بشرط أن تمنحاني حفيدًا.

مسح شتيفان أصابعه في منديل السفرة.

- ما رأيك؟

ما رأيها؟ إنه يعرف تمامًا رأيها، من البداية يعرف ما قالته وما ستقوله دائمًا. لقد سئمت. بعنف وضعت الوعاء بالثلج على المائدة، وتناولت إبريق الليمونادة وصبته على رأس شتيفان، خرَّ الليمون على قميصه الأبيض، وأخذ شتيفان يحاول استنشاق الهواء، ويدعك عينيه. عندئذ أمسكت برقبة هلجا المليئة بالتجاعيد مثل رقبة التمساح، ثم ضغطت وجهها الذي يطفح بالمساحيق في التورتة، وظلت تضغط حتى وصلت إلى قاع التورتة المكسو بالبسكويت. هذا، هذا هو رأيها.

داعب شتيفان بإصبعه وجنتها وسألها:

- أستريد؟ هه، ما رأيك؟

قطعت هلجا لنفسها قطعة أخرى من التورتة. اهتز جيب أستريد. وضعت

الوعاء بالثلج على المائدة، ومدت يدها إلى الهاتف، سعيدة لهذه الاستراحة. قالت وهي تتلقى المكالمة:

- معذرة.

قال رجل في الهاتف:

- هنا شرطة تالباخ، معك بلازر. هل أتحدث مع السيدة جول؟

ازدردت أستريد ريقها. هل هناك شيء غير مشروع في التبرعات من أجل المعركة الانتخابية؟ قالت:

- ماذا حدث؟ ما سبب اتصالك؟

سألها الشرطي:

- السيدة مانويلا كونه، هل هي أختك؟

لمست أستريد جبينها، وتنهدت، ثم ألقت نظرة على شتيفان وهلجا، وسارت عدة خطوات بعيدًا عن المائدة، ولم تقل سوى:

- نعم.

- السيدة جول، أختك تقف منذ الساعة التاسعة وثلاث وثلاثين دقيقة من صباح اليوم على سطح أحد المنازل في المدينة القديمة، ولا تريد أن تتحرك من هناك. نرى أنها قد تنتحر، إلى ذلك فهي تلقي بقوالب القرميد. نظن أن شخصًا من المحيط العائلي قد ينزع الفتيل من الموقف.

ألقت أستريد نظرة على شاشة الهاتف، كانت الساعة قد جاوزت الخامسة عصرًا بقليل. قالت:

- يا إلهي!

نظرت إلى الناحية الأخرى حيث كان شتيفان وهلجا يأكلان التورتة في صمت. قالت:

- طيب. سآتي، سأعاود الاتصال بك بعد دقيقتين، أوكي؟

سارت إلى المائدة وقالت:

- لا بد أن أنطلق، حالة طارئة. لا تنتظراني، سنتحدث مرة أخرى.

طبعت قبلة جافة على خد شتيفان، وانصرفت، تاركة كليهما مع السؤال الذي لم ترُد عليه، وظل السؤال يتأرجح فوق الحديقة الصغيرة مثل تلك الكرة المدمرة التي تُستخدم في هدم المنازل.

مارين

كان الهواء ساخنًا في السيارة «البيجو» القديمة التي لم يعد مكيف الهواء يعمل بها، كلا الشباكين الأماميين كانا مفتوحين. كانت مارين تلعق آيس كريم على شكل صاروخ، وتعرض وجهها للرياح الناجمة عن انطلاق السيارة، والتي عاودت اشتدادها بعد أن عادا من مطعم الاستراحة وسارا ثانية في الطريق السريع. كانا على وشك الوصول إلى متز، ولم يبقَ حتى باريس أكثر من ثلاث ساعات. أحبت مارين هذا السيناريو، رأت نفسها جالسة على الكسوة الجلدية اللامعة من كثرة الاستخدام، وتسند قدميها العاريتين على لوحة القيادة، وتدق بأصابعها مع إيقاع الأغنية الشائعة التي بالكاد تُسمع وسط الرياح، وخلفها، تحت المقعد، المتاع الخفيف في الكيس البلاستيكي، وبجانبها باريس الوسيم، يداه الكبيرتان على عجلة القيادة، والرائحة الواعدة التي تفوح من سترته الجلدية وتحيط برأسها. كل خمس عشرة دقيقة يلف بيد واحدة سيجارة ويدخنها، كأن ذلك واجب عليه، شيء لا بد من فعله، سواء أراد أم لم يرد. سحبت مارين أنفاسًا من سيجارتين، ثم قررت أن يكون أول ما تفعله في باريس شراء علبة «مارلبورو». تالباخ، هانيس، عدَّاد الخطوات خلف الميكروويف، كل هذا يبتعد عنها مترًا بعد متر. مثل خطوط باترون الخياطة كانت الخطوط البيضاء تلمع على الأسفلت. تصميمٌ لشيء جديد. وكل قطعة من الطريق، هي قطعة من الخياطة، تخيط ما كان مع ما سيكون. قالت

مارين لنفسها: نعم، ستحمل معها هذه المغامرةَ الباريسية إلى البيت مثل قطعة ملابس غير عادية، ستحملها على جسدها، وستشعر بنفسها عندئذ جديدة وفريدة. راحت تبحث في جيب التنورة، ثم سحبت ورقة صغيرة ملفوفة، وقالت:

- كان هناك مشرد أمام المحل الصغير على الناصية، يبيع أسئلة. فكرةٌ مضحكة، أليس كذلك؟ هل أقرأ؟

نفض باريس سيجارته قائلًا:

- إذا أردتِ.

بحذر فردت مارين الورقة:

- إذا كان الغد يومك الأخير في هذا العالم، مع مَن تريد أن تقضيه؟

قال باريس:

- هذا سهل. أمر واضح تمامًا.

سحب نفَسًا من السيجارة، ونفخ الدخان بشكل درامي، ثم واصل:

- مع مارلين مونرو!

هبطت قطعة من الآيس كريم على تنورة مارين؛ انحنت إلى الأمام وحاولت أن تلعقها. سألته:

- بجد؟

كانت تشعر بخيبة أمل خفيفة لأنه لم يكذب ويذكر اسمها. سألته:

- لماذا؟

أجاب باريس وهو يغمز بعينه:

- كنت سأعجبها. وكنا سنستمتع بوقتنا معًا، هذا أكيد. وسنستطيع دخول كل الأماكن، إنها مثل جواز مرور، معها يستطيع المرء الذهاب إلى «اللوفر» خارج أوقات الزيارة، ويحصل على أي جناح فخم في أي فندق، وأي مائدة في أي مطعم، بإمكان المرء أن يفطر مع ميك جاجر ويتعشى مع ليدي جاجا.

قالت مارين:

- لكن مارلين مونرو ماتت.

قال باريس:

- صحيح، هذا بالطبع لن يتحقق، مع سؤال واقعي كهذا.

أدار مؤشر الراديو وحاول ضبطه على محطة أخرى يكون استقبالها أفضل. لم يسألها: «وأنت؟»، لم يسألها: «من ستختارين؟». لكنها كانت سعيدة جدًّا لأنه لم يطرح السؤال، إذ لم تكن لديها إجابة حقًّا، لا إجابة مبتكرة ولا صادقة. أشارت الساعة في لوحة القيادة إلى قبل السادسة بقليل. قالت مارين وهي تلتهم آخر قطعة آيس من المقبض الخشبي الصغير:

- ربما تُذاع نشرة أخبار في محطة ما. يهمني أن أعرف ما حدث للمرأة على السطح.

واصل باريس إدارة المؤشر إلى أن صدح كونشرتو للكمان، فقال بلهجة المتخصصين:

- آه، برامز، سلم «ري» الكبير، رقم ٧٧. أُفضل الاستماع إليه الآن على الثرثرة.

لم تعرف مارين ما إذا كان يقصدها بكلمة «ثرثرة» أم يقصد النشرة. منذ أن مرا بمدينة هنريفيل أصبح صامتًا تمامًا، ولم يكد يلتفت إليها. حشرت مارين المقبض الخشبي في فتحات التهوية الجانبية. مرة بعد أخرى حاول باريس طوال سنوات أن يوقعها في الفخ، والآن ها هو نفسه يقع فيه. منذ خمس سنوات كان يقول لها العبارات المستهلكة نفسها، تعود أن تقول لا، ألا تغادر بيتها، أن تخلص نفسها من بين أحضانه، ثم تشد محرَجةً الطرف العلوي للجوارب الطويلة، كان يظن أنه في مأمن عندما يلعب دور الرجل الجريء الذي طاف العالم، والذي يهز بين الحين والآخر حياتها الجامدة، لكي يؤكد لنفسه أنه يتمتع بحرية الحركة. شفقتها تجاهه كانت محدودة. عندما يصلان إلى باريس، إلى غرفة الفندق المطلة على القناة، فلن يندم

بالتأكيد على أنه اصطحبها معه. لكنها وجدت نفسها طوال الرحلة تفكر مرة بعد أخرى في المرأة على السطح. ما الذي دفعها إلى ذلك؟ استرقت النظر إلى هاتفها المحمول حتى ترى إذا ما كان هانيس قد اتصل بها في تلك الأثناء. فهو في النهاية سطح بيته. لا مكالمات. ولا رسائل جديدة. نذل. قالت مارين:

- أتعرف أنهم في العصور الوسطى كانوا يصعدون إلى سطح بيوت المجرمين حتى يستطيعوا معاقبتهم؟

كان ياريس يلف سيجارة جديدة، فرفع حاجبيه، على ما يبدو علامة أنه يصغي إليها. واصلت مارين:

- كان القانون يحمي المرء آنذاك في بيته الخاص. فإذا لم يكن يريد الذهاب إلى السجن، فإنه يختبئ ببساطة في بيته. لكن إذا لم يعد للبيت سطح، فإن الحماية تسقط، لذلك كانوا يزيلون ببساطة قوالب السطوح عن بيوت الخارجين عن القانون حتى يستطيعوا القبض عليهم.

نزعت مارين المقبض الخشبي من فتحات التهوية، وتركته يصطفق على الفتحات البلاستيكية، وأضافت:

- ربما سطا لص على منزلنا. من يعلم؟ ربما هربت المرأة إلى السطح لأنها مهددة.

قال ياريس:

- لا تريد سوى ادعاء الأهمية. تريد لفت الانتباه بعض الشيء، وإلا لكانت قد قفزت منذ وقت طويل. إذا سألتني، فسأقول لك إن كل هذا تمثيل. على الأرجح حب مُحبَط.

ضغطت مارين على المقبض بقوة حتى إنه انكسر في المنتصف. مد ياريس يده إلى يدها وأخذ المقبض الخشبي من بين أصابعها، ثم قال:

- لا تشغلي بالك.

رمى الخشبة من الشباك، ثم واصل:

- أنت لا تعرفين المرأة.

ربت بسبابته على ظهر يدها، كأنه وعى عدوانيته المضمَرة. ثم قال قبل أن يرفع صوت الموسيقى:

- استرخي! إننا في الطريق إلى باريس.

فِني

سادت حرارة خانقة في الساحة الرياضية، في الركن المغطى بالنجيلة، تحت شجر الزيزفون، كان عدد من الشبيبة قد أعد الشواية، وفاحت في الهواء رائحة مُسرِّع الاشتعال، ممزوجة برائحة السجق. أنغام «الهيب هوب» تدوي من مكبرات صوت «بلوتوث» مختلفة، سبعة فتيان يلعبون كرة السلة، وتلعب بنتان كرة الريشة عند النافورة، وثنائي يحاول أن يؤدي أحد تمرينات اليوجا البهلوانية، وعلى العقلة تدلى تيمو، حقًّا، لا يرتدي بالأعلى شيئًا، وبجانبه تلميذان من الصف الإعدادي الثاني تعرفهما فِني شكلًا فحسب. انكمشت هي وسالومي خلف جذع زيزفونة، ومرة ثانية راجعتا معًا كل الخطوات. قالت سالومي وهي تشير إلى الفتى الذي يضع سلسلة ذهبية ويجلس على العقلة، ثم يرفع نفسه بساقين مستقيمتين تمامًا، وهو ما رأته فِني في السيرك:

- هذا أخوه الأكبر منه. إذا أمسكا بنا، فمصيرنا الموت.

قالت فِني:

- إنهما قويان ربما، لكننا ذكيتان. إذا التزمنا بالخطة، فلن يحدث لنا شيء. هل دراجتك جاهزة للانطلاق؟

نظرت سالومي إلى الجانب الآخر من الساحة الرياضية وأومأت. قالت فِني:

- المهم ألا يلاحظني. قفي بحيث يستطيع أن يراكِ أنت، وتصرفي كأنك

تلتقطين صورة «سلفي». سيبذل عندئذٍ قصارى جهده حتى يترك لديك انطباعًا قويًا. هذا رد فعل انعكاسي لدى فتيان مثله. توجهين الكاميرا بالطبع عليه، لكن لا تقتربي منه أكثر من اللازم، تحتاجين إلى مسافة تفصل بينكما حتى تركضي بعيدًا.

راحت سالومي تقضم أظافرها:

- أنا خائفة.

- إلى أن يدركا ما يحدث، سنكون هربنا. فكري في صورتك. فكري في أنه يريد أن يضعها أونلاين.

قالت سالومي:

- أوكي، أوكي، هيا بنا.

قالت فِني:

- وشيء آخر: خذي محمولي، وأعطيني محمولك.

- ولماذا؟

- لأن تيمو قد يستطيع بطريقة ما سرقة محمولك في المدرسة. أو أنك حمقاء بما يكفي للتصالح معه مرة أخرى. ولأنني ليس لديَّ سبب للثقة بك. بالإضافة إلى ذلك فقد كسرتُ محموله، فلن يكون سيئًا إذن، إذا كان في يدي شيء أستخدمه ضده. الاحتياط واجب.

- أووف. إنك تشاهدين على الأرجح مسلسلات بوليسية أكثر من اللازم.

قالت فِني وهي تشغِّل محمولها وتمد يدها إلى سالومي:

- هه، ما رأيك؟

- لا مانع عندي.

- ولا تنسي: لا تنادي تيمو إلا عندما أقترب منه اقترابًا كافيًا، أوكي؟

أخذت سالومي المحمول، وتأكدت من أن البشكير مربوط بإحكام حول خصرها، ثم قالت:

- أوكي، سأعطيك إشارة.

تسللت فِني بمحاذاة طرف الساحة الرياضية، مارة بملعب كرة السلة، واتجهت إلى تيمو من الخلف. فجأة أصبحت ميزة أن أحدًا لا يلاحظ وجودها. عندما أصبحت سالومي لا تبعد عن تيمو سوى أمتار قليلة، ركضت حسب الاتفاق على النجيلة، وصوبت الكاميرا عليه. ثم صاحت:

- هيييه! تيمو، هاي!

مثلما تنبأت، بدأ تيمو يزيد من سرعة تمرينات العقلة. على فِني أن تكون سريعة الآن، عليها أن تبادر بالفعل قبل أن يلتقط أنفاسه. ألقت نظرة أخيرة إلى سالومي التي راحت تسوي شعرها بيد، كأنها تهم بالتقاط «سِلفي». وهي الإشارة أنها مستعدة. دق قلب فِني، وشعرت بدقاته تصل حتى أسنانها. وثبت مرتين، أو ثلاث وثبات إلى الأمام، وبكلتا يديها أمسكت بأعلى سروال تيمو، وتأكدت في ثوانٍ أنها أمسكت أيضًا بطرف السروال الداخلي الذي يرتديه، وبدفعة قوية أنزلته إلى أن ظهرت مؤخرته البيضاء في الهواء. على الفور قفزت جانبًا، وركضت بأسرع ما يمكنها إلى طرف الساحة عائدة إلى حيث أوقفت دراجتها. نظرت إلى الخلف، ورأت كيف ترك تيمو نفسه يسقط من العقلة، وهو يسحب السروال إلى أعلى، ثم يتلفت، إلى أن اكتشف فِني؛ احتاج إلى برهة حتى أدرك ما حدث، ثم التفت مرة أخرى، وركض عدة خطوات خلف سالومي التي كانت قد وصلت إلى الدراجة تقريبًا، ثم عاد ليعدو في اتجاه فِني. صاح:

- نسوان وسخة! سأقضي عليكما، قفي أيتها البطة السمينة!

لكن فِني كانت قد اعتلت مقعد الدراجة، وشرعت تدوس على البدال، ثم كادت تصطدم عند مدخل الساحة الرياضية باثنين متأنقين، انحنيا فوق خريطة المدينة، ثم صاحا بكلمات إيطالية خلفها. واصلت القيادة بسرعة، وتحاشت المارة، وتجاوزت سائقي الدراجات الآخرين، طارت فوق

الأسفلت، ووجهها الساخن في الريح الباردة، «فِني المعجزة»، متوحشة ولا تقهر.

عندما وصلت إلى متنزه المدينة، رأت من بعيد بشكير سوبرمان يلمع بين الشجيرات. لحسن الحظ. برهةً قصيرة خافت ألا تأتي سالومي. صاحت فِني مبهورة الأنفاس:

- هل التقطتها؟ هل نجحت؟

ابتسمت سالومي:

- واضحة كالشمس.

أرتها الصورة:

- وجهه الغبي، وبلبله الضئيل المنكمش، صورة تحفة.

ثم رفعت كفها لفِني كي تصافحها. كانت تعني ذلك، هذا ما رأته فِني على وجهها. ابتلعت ريقها. ثم صافحتها.

قالت سالومي وهي تشير إلى أعلى:

- أتظنين أن أحدًا كتب «بوست» سخيفًا عنها أيضًا؟

لم تلحظ فِني إلا الآن أن المرأة لا تزال تقف على السطح، كانت تجلس بلا حراك على حافة السطح، ناظرة إلى الجموع بالأسفل. ردت قائلة:

- ممكن.

قالت سالومي:

- آمل ألا تقفز. إنها شجاعة في رأيي، على نحو من الأنحاء. إنها لا تبالي بما يفكر فيه الآخرون. أتمنى لو أنني أستطيع ذلك أيضًا.

قالت فِني:

- اكتبي لتيمو إذن الآن أنك سترفعين الصورة على الإنترنت، إذا لم يتركك في سلام.

مدت سالومي لها يدها بالمحمول، وقالت:

- سأفعل. أنت طيبة، فعلًا.

- لا تقولي ذلك لي. قوليه للآخرين.

ابتسمت سالومي. ابتسامة واسعة. وقالت لها مشيرة إلى البشكير:

- هل أستطيع أن أقترض هذا حتى صباح الغد؟

شاكستها فِني قائلة:

- قولي فورًا إنك تريدين الاحتفاظ به.

قالت سالومي:

- في البداية وجدته مخجلًا، لكني أعتقد أنه جلب لي الحظ.

تابعتها فِني ببصرها وهي تسير إلى الدراجة. التفتت سالومي إليها مرة أخرى ولوحت لها، ثم انطلقت مبتعدة. ربما، هكذا فكرت فِني، ستأخذ قصتها المصورة منعطفًا جديدًا. ربما تكافح «الليدي إكسس» و«فِني المعجزة» معًا في الجزء الثاني في مواجهة الكابتن برولو. وربما يعود كل شيء غدًا في المدرسة إلى سابق عهده، ولن تحتاج «فِني المعجزة» في المستقبل إلا إلى طُرق أكثر مهارة لمواجهة الاثنين.

تيريز

أخذ فرنر يصفر نغمة أغنية «You Are the Sunshine of My Life»، في حين كان يرتب الأوراق النقدية ويشبك بدبوس مكتب كل عشر ورقات معًا، ثم يكومها على طاولة البيع، وبجانبه الحاسب الآلي لحساب المجموع. بسبب الشمس علت الحمرة خديه وأنفه، إذ إنه وقف آخر ثلاث ساعات في الساحة الأمامية ليبيع الشطائر بالجامبون والجبنة البيضاء الطازجة التي أعدها بنفسه في المطبخ في الطابق العلوي. لطالما استطاع فرنر أن يصفر جيدًا، وكان في الماضي يصفر كلاسيكيات الجاز على أفضل نحو، بما فيها صولو الآلات الموسيقية. قال وهو يساوي أطراف حزمة أوراق نقدية:

– كان بإمكاننا أن نُبقي المحل مفتوحًا ساعتين إضافيتين. إذا سألتني عن رأيي، فسأقول إن الفتاة المسكينة ربما تبقى طوال الليل على السطح. نصف الميدان ما زال مكتظًّا بالبشر، وإذا ظلوا هنا، فسيشعرون ثانية بالجوع، إن آجلًا أو عاجلًا. ربما نفتح مرة أخرى، نحو الحادية عشرة، ما رأيك؟

جلست تيريز على صندوقين مقلوبين من صناديق الفاكهة، وخلعت حذاءها، وأخذت تدلك قدميها الثقيلتين. أكثر من نصف الأرفف كان فارغًا، في كل أنحاء قاعة البيع تناثرت الكراتين التي ينبغي جمعها والتخلص منها. لم تكن تريد فتح المحل مرة أخرى اليوم. تريد أن تحتفظ بفرنر وبمزاجه المشرق لنفسها. قالت له:

- منذ فترة طويلة لم تصفر. هل ما زلت تستطيع أن تصفر «Moon River»؟ كنا نرقص عليها في «فيليج فانجارد»(*)، هل تتذكر؟ كان المكان ضيقًا بشكل فظيع، وحارًّا، وعلى المرء أن يخطو خطوات صغيرة حتى لا يدهس أقدام الآخرين.

وضع فرنر الرزمة جانبًا، وقال:

- كنت أصفر النغمة طوال أسابيع. كدت أصيبك بالجنون بسببها.

خرج من وراء الطاولة وأدى عدة خطوات راقصة وهو في مكانه، وصفر المقطع الأول، لكن النغمة كانت نشازًا بعض الشيء. ثم مد يده إلى تيريز:

- أتسمحين لي؟

نهضت تيريز، وأحاط فرنر خصرها بيده، وجذبها إليه وهو لا يزال يصفر، ثم قبلها بين منبت شعرها وصدغها، فشمت رائحة القهوة في لحيته ورائحة مسحوق الغسيل في ياقة قميصه. كانت تفتقد ذلك؛ قرب فرنر، جسده، لمسة يديه. رقصت معه بالجوارب على الأرضية المكسوة بالمشمع. في الموضع الذي ترتفع فيه النغمة، صمت فرنر ووجد نفسه يضحك. مرة بعد أخرى كانا يصطدمان بإحدى الكراتين، فيغيران الاتجاه. شعرت تيريز بغصة في حلقها. برهةً شعرت بنفسها في هذا القيظ مثل تلك الشابة التي كانتها في نيويورك، تشعر برعشات السعادة في بطنها الذي يملأه مشروب الجريب فروت الغازي، في حين يملأ المستقبل رأسها. لكنها كانت تعلم أن كل هذا سينقضي ثانية بمجرد هبوط نونو من السطح، ابتسامة فرنر بعد انتهاء العمل، والقبلات، كل هذا سيتوقف، في الغد ربما، وبالتأكيد بعد غد، وسينزوي فرنر ثانية تحت اللحاف.

همست تيريز في أذن فرنر:

(*) أحد نوادي موسيقى الجاز في نيويورك. (المترجم).

- نم معي! تعال معي إلى أعلى، ونم معي!

بدأت تفك الأزرار العلوية في قميصه. جذبها فرنر إليه وقبلها، ولمس نهديها، وحرك يده تحت تنورتها.

بعد نصف ساعة كانا يرقدان على الفراش يتصببان عرقًا، ما زال فرنر يرتدي جواربه، وتيريز بالتنورة الداخلية والمئزرة. بيد راحت تداعب الشعر الأشيب على بطن فرنر. قالت:

- أحب أن يكون لديَّ مثل هذا أيضًا. لو كان عندي، لظللت أمر بيدي على بطني دائمًا.

استدار فرنر على جانبه ليواجهها، ثم قال وهو يضع كفه على بطنها:

- أرى أن بطنك جميل جدًّا كما هو.

كان يعرف فيمَ تفكر الآن، في أي ألم قديم. وهي تعرف أنه يعرف. قالت تيريز لنفسها: ربما يفعل المرء كل ذلك تحديدًا من أجل لحظات كهذه؛ الزواج والشكوك والبقاء معًا على الرغم من كل شيء. طبع فرنر قبلة على يدها، وقال:

- دعينا نخرج. لم نفعل ذلك منذ فترة طويلة جدًّا، دعينا نذهب إلى روزفيتا، ونشرب كأسًا من نبيذ البورتو أو أيًا من كوكتيلاتها المدهشة.

ما زال الطقس بالخارج حارًّا ومشمسًا. الوسادة الهوائية البيضاء التي نفخها أفراد الإنقاذ تسطع في الشمس. خلا الميدان من الناس بعض الشيء، لكن ما زال يقف أو يجلس نحو عشرين شخصًا أمام الحواجز، وما زال المارة يقفون، ويقتربون بعضهم من بعض، ويلتقطون صورة قبل أن يواصلوا سيرهم أو ينضموا إلى المنتظرين. استطاعت تيريز من بعيد رؤية نونو المنهكة تسير متوازنة على السطح الذي خلعت نصف قوالبه، تكوِّن برجًا من القرميد بجانب المدخنة، ثم تعيد تشكيله، كأن عليها أن تنجز أمرًا طُلب منها. عبر الميدان تناثرت أغلفة الآيس كريم وسيلوفان الساندويتشات،

وقنينات بلاستيكية، وأعقاب سجائر، وأكياس «الشيبس»، كأن هذا هو الصباح الذي أعقب الكرنفال. معظم هذه الأشياء من دكانها. قاومت تيريز شعورًا يدفعها إلى الانحناء وجمع القمامة قطعة قطعة. ليس الآن، وفرنر يمسك بيدها ويريد الخروج معها، «الخروج معها» بمعنى الكلمة. قالت تيريز وهي تشير إلى أفراد الإنقاذ:

- لا عجب أنها خائفة من النزول. إنهم ينشرون الخوف بدروعهم وخوذاتهم.

أومأ فرنر:

- هذه الفتاة، نونو، كانت في المحل الأسبوع الماضي. لكنني لم أتعرف عليها. أتذكر بنطالها الأخضر بالحمالات، جاءت في العصر، ولم تشترِ سوى تبغ وفلتر للسجائر وطماطم كرزية مغلفة. في الحقيقة بدت متزنة تمامًا. وقالت لي إن علينا أن ننقل شجيرة الورد من ركن المنزل إلى الحديقة وإن هذا أفضل للشجيرة، أتذكر ذلك. بعد عدة أيام اختفت شجيرة الورد، لا بد أن شخصًا ما حفر في الأرض واقتلعها.

أشار إلى إصيص النباتات الفارغ بجانب جدار المنزل عند باب إدنا المتذمرة. وأضاف:

- بؤس. تخيلي تكاليف ذلك كله، الحواجز وكل شيء، وكل الأفراد المشاركين في عملية الإنقاذ. المسكينة، آمل ألا ينبغي عليها أن تدفع ثمن ذلك كله.

بالمناسبة، هكذا فكرت تيريز، عليها أن تحكي لفرنر عن بيض المفاجآت، عن أنهما قد يستطيعان السفر قريبًا إلى نيويورك من جديد.

لقد بحثت بسرعة في الإنترنت، في المكتب بالخلف، على جهاز الكمبيوتر القديم، عندما كان فرنر يغلق المحل. وفعلًا، البنت ذات تيشيرت سوبرمان عندها حق، بعض الأشكال تُدفع فيه ثروة. انحنى فرنر والتقط قبعة من الجوخ وتساءل:

- أليست قبعة الشاب الذي كان يسب ويلعن عصر اليوم في المحل؟

أومأت تيريز وقالت:

- ممكن.

علقها فرنر على لافتة منع السيارات المعلقة عند مدخل متنزه المدينة، وقال:

- ربما يعود ثانية لإحضارها.

حالفهما الحظ ووجدا مائدة صغيرة شاغرة في الشرفة. تجمع نصف الحي تحت مظلة روزفيتا. جلس هناك إيجون بمنظاره، مثلما يفعل كل مساء، بدا أنه الوحيد الذي لم يهتم اهتمامًا يُذكر بما يحدث على السطح. رأت أن إيجون يشبه فرنر بعض الشيء، الفارق الوحيد هو أنه لا ينسحب إلى فراشه، بل إلى ذكريات ماضيه. يعيش في المساحة الضيقة في تجويف الجمجمة، في حين أن فرنر يريد أن يكون في كل مكان، إلا في أفكاره الخاصة. معظم الآخرين لم تكن تعرفهم إلا عبر الرؤية، لم يعودوا يأتون إلى المحل، كانوا في المقام الأول شبيبة ومتقاعدين من المنازل المجاورة، اقتسموا مساحة الموائد الضئيلة، باذلين جهدهم مع ذلك في إقامة حدود بينهم وبين الآخرين بقدر الإمكان. جلست تيريز وظهرها إلى الميدان، سعيدةً لأن نونو ليست في مجال بصرها. هكذا كان بإمكانها أن تستسلم لشعورها بأنها تقضي أمسية حقيقية جميلة مع فرنر، أمسية صيفية مرحة في ظلال مظلة المطعم وبين الناس. بالنظر إلى السطح المنزوع قرميده، لم تكن لتنسى ثانية واحدة أن هذه السعادة لها باب مسحور تحت قدميها قد ينفتح في أي وقت.

عندما وصلت روزفيتا إلى مائدتهما، كانت تتصبب عرقًا، بعض الدبابيس في شعرها الملموم انفكت. بدت منهكة. طلبت تيريز وفرنر «مانهاتن»، من أجل الاسم فحسب، لم يشربا هذا الكوكتيل من قبل، مكتوب في القائمة أنه

مشروب بالويسكي ونبيذ الفيرموت. ومعه طلبا شطيرتين من شطائر الثوم المعمر، وزيتونًا مخللًا، وطبق جبنة مشكلًا.

قالت روزفيتا وهي تربت على كتف فرنر:

- جميل أن تأتي أنت أيضًا مرة أخرى. تبدو في مظهر جيد، لقد لوحتك الشمس بعض الشيء.

ثم غمزت لتيريز قبل أن تختفي في المقهى.

استمتعت تيريز بالجلوس هنا ومشاهدة الناس في هذه الأجواء المثيرة للريبة. تذكرت إجازة قضتها مع فرنر في إيطاليا، على شواطئ الريفيرا الإيطالية، عندما أتمت منتصف العشرينيات. كان الناس يرقدون على الشاطئ، يلعقون الآيس كريم، ويلعبون الكرة، ويمرحون مع الأمواج، ويقلبون في الكتب، في حين كان خلفهم مصنع ضخم يطلق أبخرته كريهة الرائحة في السماء. في بعض الأحيان، في الأمسيات، كانت تنساب من أرض المصنع إلى البحر مياه الصرف الصفراء على نحو غريب، وفي بعض الأحيان كانت الأمواج تجرف معها أسماكًا ميتة إلى الشاطئ. لكن الناس لم يسمحوا لذلك بأن يؤثر عليهم، وتمسكوا بأجواء الإجازة، وسايرتهم تيريز في ذلك، وهي تشعر بشعور مقلق، لأن وجوه الآخرين جميعًا خلت من التجهم. هذا الميدان هو أيضًا مثل ذلك الشاطئ. وفرنر وأنا، هكذا قالت لنفسها، نبيع الآيس كريم، ونكسب من وراء ذلك. لفت انتباهها مشردان جلسا تحت شجرة الكستناء بجانب المقهى، الأكبر سنًّا بينهما ربط حول بطنه لوحًا خشبيًّا عليه أوراق ملفوفة يبيعها على ما يبدو. كان يرتدي ثيابًا معتنى بها، قميصًا أزرق فاتحًا، وإن كان مكرمشًا، وسروالًا رماديًّا من الكتان. الشاب الأصغر سنًّا بجانبه صنع من شعره الأشقر ضفيرة، وكان يبدو أقل اعتناء بنفسه، ونصفه العلوي عارٍ. عندما يمر المارة بشجرة الكستناء، كان يوقفهم، ويتحدث معهم حديثًا قصيرًا، ثم يقف على يديه من أجلهم. بعضهم يصفق عند نهاية العرض ويعطيه عملة باثنين يورو، أو حتى ورقة بخمسة

يورو. الدكان المتجول بدا أيضًا جاذبًا للمارة، واحد بعد الآخر كان يفتح محفظته عن طيب خاطر حتى يأخذ ورقة.

قالت تيريز لفرنر:

- أريد أن أعرف ماذا يبيعان هناك. سأعود على الفور.

في الحال وثب الشاب الأشقر بالضفيرة في اتجاهها، وقال:

- مدام، ماذا تعطيني إذا وقفت الآن، هنا، على يدَي من أجلك؟ بصراحة يا مدام، ماذا تعطيني؟ لا أريد التسول، أتعرفين يا مدام، يجب أن تحصلي على شيء في المقابل.

وجدت تيريز نفسها تضحك:

- إذن، هيا، افعل أيها الشاب.

قالت هذا على الرغم من أنها شاهدته يؤدي ذلك خمس مرات من قبل. نمّت نظرته عن شيء طفولي، عن صدق استثار على الفور غريزة الحماية لديها. في الحال تشقلب الشاب، وسند نفسه على ذراعيه، ثم مد ساقيه النحيفتين عاليًا، ليس هذا فحسب، بل عدا بضعة سنتيمترات على كفيه إلى الأمام ثم إلى الخلف، قبل أن ينهض ثانية بوجه مشرق، ويزيح الضفيرة إلى الخلف، ويشبك يديه خلف ظهره، ثم ينحني انحناءة صغيرة. أخرجت تيريز قطعة باثنين يورو من جيب تنورتها وأعطته إياها:

- تفضل، أنت تستحق ذلك، إنك تتقن ما فعلت.

انحنى المشرد ثانية، انحناءة أعمق هذه المرة:

- كريمة جدًّا يا مدام، بجد. شكرًا.

استدار حول نفسه استدارة غير رشيقة، ثم ابتعد عنها ووثب في اتجاه المرأة التالية.

سارت تيريز إلى الرجل صاحب الدكان المتجول. تذكرت أنها رأته من قبل يأكل في شرفة روزفيتا. تركت الشمس والرياح والتغييرات الجوية آثارها على بشرته. قالت تيريز لنفسها: وجه قبطان.

- السيدة!

قالها الرجل ومال بدكانه إلى الأمام قليلًا حتى تستطيع أن تنظر إليه بشكل أفضل.

- ما رأيك في سؤال سيغير حياتك. هل أنت مستعدة لسؤال كهذا؟

دست تيريز يديها في جيبَي تنورتها وقالت:

- لا أعرف. يبدو الأمر حاسمًا جدًّا.

ابتسم الرجل وخلط الأوراق. وقال وهو يشير إلى الأوراق:

- لا تقلقي. إنها مثل كل الأشياء في الحياة. الثقيل يسبح في القاع.

لفتت نظافة يديه نظر تيريز. لا وسخ تحت الأظافر. خجلت من نفسها برهةً لأن ذلك أدهشها. سمعت الرجل يضيف:

- إلى ذلك، فإنك ما زلتِ صغيرة جدًّا في العمر. لديك الكثير من الوقت كي تتغيري.

مدت تيريز يدها وسط الأوراق، وقالت:

- ما دمت لا تطلب ثمنًا إضافيًا بسبب لطفك. ما ثمن تغيير الحياة إذن؟

قال الرجل:

- لكِ، ٢ يورو فقط.

سحبت تيريز إحدى الأوراق السفلية، ما دامت ستجرب حظها، فلتجربه جديًّا. وهي عائدة إلى المائدة فردت الورقة الصغيرة، فوجدت السؤال مكتوبًا بقلم جاف أزرق وبخط واضح ومقروء في منتصف الورقة:

> إذا استطعت تكرار يوم واحد من حياتك حتى الآن، على أي يوم سيقع اختيارك، ولماذا؟

فكرت تيريز في يد فرنر على بطنها، كانت تلك هي الصورة الأولى التي ظهرت بعد علامة الاستفهام. ابتسمت، ودست الورقة في جيب التنورة. تريد أن تحكي لفرنر أخيرًا عن بيض المفاجآت.

أستريد

فكرت أستريد: بعد قليل. عندما تظلم الدنيا، عندما تختفي الشمس وراء الجمالون، عندئذٍ سأنزل، عندئذٍ سأذهب إليها. منذ ما يزيد على ساعتين تجلس في السيارة، في الممنوع، على مكان مخصص لعيادة بيطرية لصغار الحيوانات. أصبح المقعد تحت فخذيها لزجًا للغاية. بين الحين والآخر كانت تمسح بكفيها عرق الانتظار من الجلد الاصطناعي الأبيض، ثم تجفف أصابعها في التنورة الكتانية، من الداخل، فوق الحافة السفلية حيث لن يلاحظ أحد البقع. الساعة الرقمية في لوحة القيادة تشير إلى الثامنة إلا الربع. مدت أستريد يدها إلى المرآة الخلفية وضبطتها. عبر أسلاك تدفئة الزجاج الخلفي رأت السطح، ورأت مانو تتوازن عليه، رأتها وهي تنتزع القرميد من مكانه ثم تكومه بجانب المدخنة، كأن رأسها علامة موسيقية تتأرجح إلى أعلى وإلى أسفل بين خطوط الزجاج، نغمة شاذة، هكذا فكرت أستريد. الأخت الصغيرة، الفخورة بنفسها. بالأسفل عند المنزل ما زال يقف محملقون خلف الحواجز، يأكلون الأيس كريم، ويصورون، وهم يشيرون بأصابعهم، ينسون أنفسهم أثناء الانتشاء بالفرجة، أمهات وآباء بعربات الأطفال يطعمون أطفالهم ساندويتشات أو بسكويتًا، مراهقون يمسكون بهواتفهم عاليًا ويصورون أفلام فيديو، متقاعدات وجيران منفعلون يحاولون بالإشارات التغلب على هذه البذاءة، كأن مانو حشرة يمكن هشها باليد. في الأمام الصحفيون، وعلى الأقل كاميرتان تلفزيونيتان،

كل منهما محمولة على الكتف، ومستعدة للحرب الهجومية على أفضل صورة، وأمام الحواجز سبعة أفراد من الشرطة، مدججون بالسلاح كأنهم يخوضون معركة في الشوارع، ومزودون بالخوذات والدروع، سبعة رجال بكامل عتادهم في مواجهة أختها الصغيرة. وبجانبهم شرطية شابة تسير بعصبية جيئة وذهابًا، وتمنع الناس من تجاوز الحواجز. وكلما تزايد الصخب بين الفضوليين، زادت سرعة تحرك رأس مانو بين أسلاك التدفئة، كأن الحشد مايسترو متعدد الأذرع يضبط إيقاعها. كانت أستريد تود لو استطاعت أن تحتضن مانو، تحملها على ظهرها وتهرب من هنا، تأخذها إلى مكان ما تحت شجرة، على العشب، حيث الهدوء والبرودة، حيث لا يرى أحد شيئًا سوى الخنافس والسحب. أبعدت يدها عن المرآة الخلفية، فلمست الشجرة الكرتونية الصغيرة البنفسجية ذات الأريج، المتأرجحة على المرآة، أريج حلو نفاذ، أريج التوت البري مثلما يدعي الخط المزخرف على جذع الشجرة الكرتوني. من كومة من المنشورات الملقاة أمام المقعد المجاور للسائق ابتسمت لنفسها، مستبشرة، وهي ترتدي سترة وردية:

أستريد جول، لمدينة لا تخذلك أبدًا

حالًا، هكذا قالت أستريد لنفسها، وفركت قبضة بالأخرى. لحظة أخرى، ثم أنزل.

ارتجفت. شيء معدني أحدث صوتًا عند ارتطامه بالأسفلت. جاروف ربما، أو مقص شجر. أصبحت مانو بستانية في الفترة الأخيرة. لم تعد تدرس علم الأحياء، ولا تعمل حارسة ليلية أو في متجر مستلزمات البناء. «بستانية بالقطعة». بفخر وبطء نطقت مانو العبارة في التلفون، في سماعة تلفون فلبيني يعمل بالعملة، ستعود إلى وطنها الآن، أخيرًا بات لديها خطة. شعرت أستريد برغبة في تشغيل راديو السيارة، لكنها خشيت أن تذكرها الأغاني – عندما تسمعها بعد ذلك مرة أخرى – بهذا الموقف، بتفكيرها،

بجبنها، وبقائها جالسة. بدلًا من ذلك راحت تدير قرص التكييف، وخفضت من درجة الحرارة لتصل إلى ١٩ درجة مئوية. كانت تشعر بالحرارة، والعطش. منذ عودة مانو لم ترها، لم يكن لديها وقت لأنها في قلب المعركة الانتخابية. تفهمت مانو ذلك، وهنأتها، مثلما سمعت في الخط التلفوني السيئ، وقالت لها:

- سنلتقي في يونيو، عندما يهدأ كل شيء، سنلتقي عندئذٍ.

لا بد أن آخر لقاء معها كان في عيد ميلاد الأم الستين قبل عامين. كان يومًا حارًّا، مثل اليوم، يومًا بلا غيوم في أواخر مايو. كان شعر مانو لا يزال طويلًا وأحمر، حتى شعر الإبطين والحواجب صبغته بالأحمر، احتست كمية كبيرة من الكوكتيل، وحكت عن رحلاتها، وعن طيور «الفلامنجو» عند البحيرات المالحة في جنوب إسبانيا، التي يشاع أنها تتبول على سيقانها لكي تبرد نفسها، وحكت عن أسراب البعوض في فنلندا التي كانت تعلق في الصيف بزجاج نوافذ بيوت المصطافين مثل ستائر سوداء، وعن الرائحة المتصاعدة من ساحات جمع المخلفات في جزر الرأس الأخضر، وحكت طبعًا عن النباتات؛ نباتات، نباتات، نباتات؛ عن أن بعض الأشجار تتصل جذورها تحت الأرض لكي تقاوم العواصف على نحو أفضل، وأن وضع الشجيرات في أصص الزرع يشبه الحبس الانفرادي، وأن ثلث جينات البشر يشبه جينات الطماطم. في ستين علبة كبريت جمعت بذورًا؛ لكل عام من أعوام الأم نوع مختلف. فتحت الأم علبتين أو ثلاثًا، ثم أزاحتها بيدها لتوسع مكانًا للهدية التالية. وفي لحظة ما، تناولت مانو ملعقة القهوة وراحت تعبث بعينها اليسرى، ثم تركت عينًا زجاجية، كانت قد اشترتها من محل أرجنتيني يبيع أدوات مزاح ودعابة، تتدحرج على مائدة الحديقة المائلة، ثم تسير في خط مستقيم حتى تصل إلى الحافة المصنوعة من البسكويت لتورتة الغابة السوداء. شحبت وجوه بعض الضيوف الطاعنين في العمر وقارب لونها لون الكريمة في الشوكة التي يمسكون بها.

ارتسمت ابتسامة على شفتي أستريد. في ذلك اليوم قبل عامين، وقفت في المطبخ عند ماكينة القهوة، وشعرت بالحسد تجاه مانو. تجاه استعدادها لارتكاب حماقات والبدء من البداية مرة بعد أخرى. منذ أن شرعت في التفكير، تحسد مانو. عندما كانتا طفلتين، تسلقتا كثيرًا معًا إلى سطح المنزل. في أيام الهروب من المدرسة، عندما كانت الأم تبيت خارج المنزل ولا تعود إليه إلا في بداية مساء اليوم التالي. كانتا تجلسان بالأعلى بجانب هوائي التلفزيون، ومعهما «ترموس» مليء بشربات الرمان الحلو، وتقتسمان الكوب، وبملعقة تأكلان من برطمان زبدة الفول السوداني أو مربى التوت البري، وتستمعان إلى كات ستيفنس من جهاز الكاسيت وتغنيان معه، «يا حبيبتي، يا حبيبتي، إنه عالم متوحش»، وتعيدان الأغنية مرة بعد مرة، إلى أن يخرج الشريط من الكاسيت وبالملعقة أو بالإصبع الصغيرة تعيدانه إلى مكانه. كانت مانو دائمًا هي التي تتجرأ وتقف في أقصى الأمام، على حافة السطح. مانو التي تستطيع البقاء تحت الماء فترة أطول من الصبيان في فصل أستريد. مانو التي تنام كالحجر عندما تبيتان معًا في خيمة بالخارج، في حين تظل أستريد تسترق السمع خائفة من أي حفيف أو طقطقة. مانو التي تخرج من البيت في العواصف الرعدية حتى تحمي الزهور من البَرَد وتضعها في مكان آمن. مانو التي تمسك بخناق الفتيان الذين يلصقون اللبان مرة أخرى في شعر أستريد لأنها سرقت نظارة أو مشبك تقويم الأسنان. مانو التي تشرب سائل التنظيف، وتأكل القواقع، وتدهن سيارات المعلمين الظالمين بكريم «نيفيا» واستفزت المدرسين حتى طردوها خمس مرات من المدرسة. مانو التي صعدت إلى السطح وهي في السادسة من عمرها بآلة قطف الفاكهة ذات اليد الطويلة التي تملكها الجارة، لكي تقطف القمر، لأنها اعتقدت أن على المرء أن يحصده عندما يكتمل، وإلا سيتعفن. مثل تفاح «البوسكوب» في حديقة الجدة الذي يسقط في العشب ويتعفن إذا لم يقطفه أحد. قالت مانو:

- القمر، إنه امتلأ بالمناطق المظلمة.

وتقبلت الصفعتين من الأم من دون أن تبكي.

رن التلفون مرة أخرى. ببطء انزلق الجسم المعدني المهتز إلى منتصف المقعد المجاور للسائق. تتبعته أستريد بعينيها وانتظرت أن يصمت. شاهدت الهواء المُبَرد وهو يتسبب في إيقاف شعيرات فخذها. أغلقت جهاز التكييف. عم الهدوء الآن. بين الحين والآخر فحسب كانت تسمع دوي صفارات التنبيه أو صياح أحد أفراد الشرطة عبر مكبر الصوت. لم تتحرك أستريد. كزت على أسنانها إلى أن آلمها فكها. تفعل ذلك كثيرًا في الآونة الأخيرة. أكثر من اللازم. أحيانًا طيلة الليل. لذلك ينبغي عليها أن تضع على أسنانها شريطًا بلاستيكيًّا تعض عليه خلال النوم. قبل بضعة أيام استيقظت في الرابعة فجرًا وهي تكز على أسنانها، وتُحكم القبض على الشريط في قبضتها. آثار الشريط ظلت واضحة حتى بعد الإفطار. في تلك اللحظة نظرت أستريد إلى هاتفها. أظهرت الشاشة أحد عشر اتصالًا لم ترد عليها من الشرطي الذي أخبرها بما يحدث. أختها غير الشقيقة، أكدت أستريد في التلفون، مرتين، «إنها أختي غير الشقيقة». ومضت الشاشة؛ رسالة من هانيس. هذا ما ينقصها. فتحتها أستريد:

> هل ستقابل مساء اليوم في فرايبورج؟ من الممكن أن أكون في العاشرة مساء في فندق «البريستول».

في الحقيقة كانت تنوي ألا تقابل هانيس مرة أخرى. لا تحبه جدًّا. أحبت فحسب رائحته وطريقته في الإمساك بها. تعرفت إليه في مطلع العام في أحد الأنشطة الإعلامية لرفع مستوى ضواحي المدينة. إذا لم تخنها الذاكرة، فهو يسكن في تالباخ، ربما حتى قريبًا جدًّا من هنا. منذ ليلتهما الأولى أمدها سرًّا بين الحين والآخر ببعض البيانات من محيط المصارف، والمفيدة جدًّا لها في ترشيحها. كانت تستغل لقاءاتها معه لكي تسترخي مثلما يفعل آخرون بكأس من الويسكي أو بسيجارة ماريجوانا، وتنتشي قليلًا، وتوقف التفكير

فترة قصيرة. فكرت في شتيفان وهلجا، في تورتة اللبن الرائب، وثمرة القرع البلاستيكية. ردت أستريد:

أوكي

وحسبت: في غضون ساعة ونصف ينبغي أن تنطلق بسيارتها. إذا هبطت فورًا من السيارة، وإذا شرعت الآن في إعادة الأمور إلى نصابها. التفكير في الفندق جعلها تسترخي. رائحة الكلور الخفيفة في ملاءات الفندق والأكياس الصغيرة بأدوات النظافة في الحمَّام، أدوات الخياطة وتنظيف الأحذية، قطعة الشوكولا التي يجدها كل منهما على رأس الوسادة، أيًّا كان ما فعله أو ما فعلته خلال النهار. كل ذلك لا يلعب أي دور في الفندق، في الدرجة الفندقية التي اختارتها يتساوى جميع النزلاء أمام الأسِرَّة.

وضعت أستريد الهاتف بشاشته إلى أسفل على المقعد المجاور لها. كادت الشمس تتوارى خلف المدخنة، لكن أشعتها ذهَّبت القرميد وربطة شعر مانو الأشقر الفاتح، والوسادة الهوائية التي نفخها أفراد الإنقاذ والتي كانوا يزيحونها بضعة أمتار حسب موضع مانو. الأخت الصغيرة، هكذا فكرت أستريد، الأخت الصغيرة غير الشقيقة. ماذا إذا كانت تريد حقًّا إيذاء نفسها؟ ماذا إذا فعلتها هنا، أمام عينيها؟ شغَّلت أستريد المساحات الأمامية، وأطلقت رذاذًا من السائل المنظف على الزجاج الأمامي، وتأملت اختلاط الصابون بالطبقة الرقيقة من غبار حبوب اللقاح الأصفر الذي نثرته شجرة التنوب في الريح فوق موقف السيارات. إذا نزلت مانو، فسيضعونها مجددًا في المصحة النفسية، هذا أكيد، عدة أيام، وربما أسابيع. مثلما حدث قبل ثلاث سنوات بعد الحادث في قسم النباتات في متجر لوازم البناء عند الطريق السريع المتفرع في اتجاه فرايبورج. لم يسبق لأستريد أن رأتها من قبل بمثل هذا الشحوب والانطفاء مثلما رأتها في كافيتريا تلك المصحة. قالت مانو إنها لا تستطيع التنفس هناك، كأن شخصًا يضع يديه على الدوام حول رقبتها ويضغط عليها. آنذاك قالت الأم على التلفون:

- هذا الخلل ورثته عن أبيها، هو أيضًا لم يكن يعرف أين يصرف طاقته، وكان على المرء دائمًا أن ينقذه من مأزق ما. كان الأفضل لو لم أقابل كازانوفا الضواحي هذا قَطُّ.

شاهدت أستريد الشمس وهي تختفي خلف المدخنة قرصًا أحمر، فكرت أنه أحمر مثل ثمرة القرع، ثم تنهدت. قالت لنفسها: «هيا، اذهبي إليها الآن». تشممت مرة ثانية أصابعها التي تفوح منها رائحة التوت البري، ثم ضبطت التكييف على ١٨ درجة، لا توجد درجة أكثر برودة، وصل قرص تغيير درجة الحرارة إلى نهايته. إذا خرجت الآن، فهي المرشحة لمنصب العمدة ذات الأخت المجنونة. أيًا كان ما ستفعله، فإن الإعلام سيستخدم الأمر ضدها، وكل ما عملت من أجله سيتحطم مثل قوالب القرميد التي تقذفها مانو على الشارع. كانت أستريد على استعداد للتخلي عن البيت في أوزيدوم، أو لتأجيل الأمر على الأقل. لكنها ليست على استعداد لأن تخسر من البداية المعركة الانتخابية الخاصة بمنصب عمدة فرايبورج، فقط لأن مانو تشذ مرة أخرى عن المألوف. كم من مرة أحضرتها من محطات سكك حديدية، وأرسلت لها نقودًا إلى مكان ما ناءٍ في فنزويلا أو كولومبيا، ودفعت لها غرامات، وملأت الإعلان الضريبي الخاص بها بعد فوات موعده بكثير! دائمًا كانت حاضرة عندما تحتاج إليها، ووقفت بينها وبين نظرة الأم القاسية التي كان من واجبها في الحقيقة أن تفعل كل ذلك، لكنها لم ترَ في مانو سوى ثمرة تلك العلاقة العابرة التي كانت حسبما تقول سببًا في فشل زيجتها. لقد عملت أستريد طويلًا حتى تصل إلى النقطة التي وصلت إليها الآن. «عمدة فرايبورج»، هكذا كانت تجيب وهي بعد طفلة عندما يقرصها الأقارب في خدها ويسألونها عما تريد أن تصبح عندما تكبر. كانت مانو تقول: «إنك فعلًا نبات متسلق. إنك تنمين إلى أعلى بلا لف أو دوران. أما أنا فشبيهة بالأحرى بالطحالب، إنني أنمو حيثما أشعر بالانجذاب، حيث أجد الظروف الملائمة لي». ألقت أستريد نظرة على المرآة الخلفية. تقف

مانو بجانب المدخنة وقد شبكت ذراعيها، ركبتاها تتأرجحان وكأنها تشعر بالبرد، منذ عدة دقائق تقف في هذا الوضع، وقد احمر شعرها من غبار القرميد. فكرت أستريد أن بشرتها لا بد أن تكون قد احترقت على نحو بشع من الشمس. تذكرت كيف دهنت بشرة مانو - قبل ١٨ عامًا ربما - باللبن الرائب المتخثر قليل الدسم، بعد أن احترقت بشرة بطنها عند البحيرة في يوم غائم. وتذكرت الرائحة التي ظلت عالقة بالغرفة أسابيع بعد ذلك. في الليلة نفسها هبّت عاصفة رعدية فظيعة، زحفت أستريد باكية تحت السرير، خائفة راحت تراقب ظل الشجر على جدار الغرفة في ضوء البرق، وتحصي بصوت عالٍ الثواني بين البرق والرعد، والمسافة المتناقصة بينهما وبين العاصفة، إلى أن أخذتها مانو من يدها الصغيرة وشدتها لتخرجا أمام المنزل وتجلسا في السيارة في موقف السيارات؛ وأن مانو شرحت لها أنهما هنا في أمان، وأن السيارة مثل قفص فاراداي لا تؤثر فيه العواصف الرعدية. قالت مانو وهي تشير إلى البرق:

- انظري كم هو جميل! يبدو كأن السحب لها جذور تضيء في الظلام.

دعكت أستريد وجهها. يداها باردتان إلى درجة أنها شعرت كأن أصابعها أصابع إنسان غريب. ربما ينبغي عليها ألا تخرج. ولماذا تفعل ذلك؟ لا أحد يعرف أنها هنا. في الخلف يقف سبعة من أفراد الشرطة، وسيارة بها فرقة إنقاذ؛ ماذا يمكنها أن تفعل بخلاف هؤلاء؟ باستطاعتها الادعاء بأن المرور عطلها. أو أن عطبًا أصاب سيارتها. فكرت برهةً فيما إذا كان لديها في حقيبة السيارة شيء حاد تستطيع أن تغرزه في الإطارات. في صندوق العدة ربما. رفعت أستريد رأسها وضغطت على زر التشغيل. هدأها صوت تشغيل المحرك، الاهتزاز الذي انتقل من منطقة القدمين إلى هيكلها العظمي. قد يكون هذا بالنسبة إليها صندوق فاراداي الذي يقيها من عواقب قرار خاطئ. بكفها خبطت أستريد عجلة القيادة. وظلت تخبط حتى احمرت كفاها. بضغطة على زر انفتح الشباك. ثم أطفأت المحرك. كان القيظ عالقًا

فوق موقف السيارات مثل منديل ساخن مبلل كالذي يوزعونه في رحلات الطيران الطويلة قبل الهبوط. سمعت أستريد طقطقة غطاء الموتور عندما برد الصاج. رويدًا رويدًا حل الظلام بالخارج. رأت ملامح وجهها في الغطاء الزجاجي. ثم القمر الذي بزغ في الغسق فوق سطح العيادة البيطرية لصغار الحيوانات، شاحبًا، لكنه مكتمل، وحافل ببقع صغيرة داكنة. قمر يشبه تفاحة «البوسكوب»، هكذا فكرت. ركعت مانو الآن بجانب المدخنة، وقد سلطت كشافات الشرطة الضوء عليها، هزت قالبًا من القرميد، ثم خبطته بقدمها، ونهضت، بقدر إمكانها، وأخذت تجذب القالب بذراعين مفرودتين، ثم تأرجحت عندما أذعن القالب أخيرًا، وسقط من يدها، فقدت توازنها، وانزلقت بقدمين حافيتين وراء القرميد، جدفت بذراعيها، وخلال سقوطها استندت إلى الوراء، تشبثت أستريد بعجلة القيادة، وضغطت بقدمها على الفرامل، وضغطت بظهرها على المقعد، وحبست أنفاسها. قاومت مانو بقدميها السقوط عند حافة المزراب، ابيضت أصابع أستريد على عجلة القيادة، فردت مانو جسدها إلى الخلف ورقدت بظهرها على القرميد، وبحثت بيديها عن شيء تتشبث به، وثواني كفَّت عن الحركة، ثم استقام بدنها عاليًا، وبمشقة تسلقت الجمالون، ووضعت ذراعها حول المدخنة مثلما يضع المرء ذراعه حول صديق. خفق قلب أستريد بقوة. ببطء تركت أصابعها عجلة القيادة. اهتز المحمول على المقعد المجاور ثانية. ضغطت جبينها على عجلة القيادة وانتظرت حتى توقف الاهتزاز. شعرت بالرغبة في حك بشرتها تحت البلوزة، في حين ضغط حزام التنورة على حجابها الحاجز، وآلمها جلد رأسها. مسحت دمعة من عجلة القيادة، وبحافة يدها مسحت المخاط السائل من أنفها، ثم مسحت حافة يدها في الجهة الداخلية للتنورة، فوق الخياطة السفلى. ماذا لو ثرثر أحد أفراد الشرطة؟ ماذا لو حكى شخص ما للإعلام أنها لم تساعد أختها؟ «أستريد جول تخذل أختها»، هكذا سيكتبون عندئذ في العناوين، وهكذا سينتهي مستقبلها المهني أيضًا. فكرت

فجأة في هلجا، سيكون من حسن حظها إذا لم تتصل هلجا بنفسها بصحيفة «تالباخر بوتن» حتى تعطي حديثًا حصريًا. غمغمت أستريد:

- اللعنة، اللعنة، اللعنة، اللعنة!

وقع نظرها على اللفة المغلفة بورق السيلوفان بجانب ورق الدعاية حيثما يضع الراكب المجاور للسائق قدميه. كانت البلوزة التي أحضرها الساعي بالدراجة إلى الفندق في الصباح، للجلسة مع مجلس إدارة حي المسنين على حافة المدينة والذي تأخر الانتهاء منه عامًا آخر. لقد لبست في النهاية الجاكيت وزررتها لتغطي بقعة القهوة، الأخضر الفستقي ليس اللون المناسب لإبلاغ الآخرين بأخبار سيئة. فكت أستريد حزام الأمان، ومدت يدها إلى اللفة. وضعتها على حجرها، وقطعت من السيلوفان قطعًا صغيرة. مرة أخرى ألقت نظرة على المرآة الخلفية، ثم مزقت الورق وأخرجت البلوزة. كلَّا، لن تجد في السيارة شيئًا أفضل. فكت أزرار البلوزة، وبأسنانها انتزعت وريقة السعر من الياقة، وربطت شعرها ثم وضعت البلوزة حول رأسها مثل عِمامة. راحت تبحث في حقيبة يدها، ثم وضعت نظارة الشمس على أنفها، وتناولت التلفون، ثم نزلت من السيارة. هكذا لن يتعرف عليها أحد. بذلت أستريد جهدًا كبيرًا حتى تسير في ظل جدران البيوت. بأصابع مرتعشة اتصلت بالشرطي.

كان الهواء خانقًا في العُلِّية. سعلت أستريد. كان الشباك في السقف مفتوحًا، وتحته سلّمان معدنيان، وعلى أحدهما وقف شرطي قوي البنية، رأسه غير ظاهر، لا بد أنه رئيس المفتشين بلازر الذي اتصل بها أيضًا. لم يصدر عنه رد فعل عندما دخلت الغرفة. تفحصت الشرطية الشابة بجانب الباب - التي أعلنت مجيئها بالاسم - عمامة أستريد، ثم نظرت محرَجة إلى الأرض. قالت أستريد لنفسها: ربما تظن أنني مصابة بالسرطان. لم ينطق أحد بكلمة لدقيقة أو دقيقتين. أخذت أستريد تدير خاتم الزواج في إصبعها، وقاومت

رغبتها في نزع نظارة الشمس، حتى إن كانت لا ترى إلا القليل في الغرفة شبه المظلمة، صوبت الشرطية نظرها على الأرضية، وعلى ما يبدو كان الشرطي على السلم يستمتع بأن استئناف الأحداث يتوقف عليه، وعلى متى سيستدير ويعطي تعليماته. تنحنحت أستريد. تنهد رئيس المفتشين بلازر، واستدار إليها أخيرًا. قال:

- السيدة الأخت. أخيرًا. جميل أنك وجدت الطريق إلينا. لا بد أن الفوضى العارمة تسود الشوارع.

لم ترد أستريد عليه.

نظر بلازر إلى الشرطية الشابة وسألها:

- هل فُحصت البيانات الشخصية؟

أومأت الشرطية، فواصل بلازر:

- إذن، اصعدي إليَّ هنا!

حرك الشرطي رأسه تجاه شباك السقف، وهي الحركة التي تعرفها أستريد من الحراس ورجال الأمن. فكرت أستريد: لا عجب أن مانو لا تريد النزول، أنا أيضًا لن أدع شخصًا مثله يقبض عليَّ. صعدت درجات السلم الثاني إلى أن أصبحت على ارتفاع بلازر.

- خوف من الدعاية السيئة، أليس كذلك؟

قالها بلازر مشيرًا إلى البلوزة التي عقدتها حول رأسها، ثم ابتسم بازدراء.

عدلت أستريد من وضع نظارة الشمس وقالت:

- ماذا يمكنني أن أفعل؟

قال بلازر:

- أنت قريبتها، لا أنا. ربما تتحدث معك. ربما تستطيعين إقناعها بأن كل شيء سيزداد سوءًا مع مرور كل دقيقة تضيعها هنا بالأعلى.

صعدت أستريد درجة أخرى، وأخرجت رأسها من شباك السقف إلى سماء الغسق. كانت مانو تجلس منكفئة على ذاتها بجانب المدخنة، وقد

لفت ذراعيها حول ركبتيها، كأنها تريد أن تهدئ نفسها. سلط بلازر الشعاع المخروطي من كشاف الجيب عليها. احترقت بشرة مانو من الشمس عند القفا والأذنين، وعلى الذراعين خدوش. بدت صغيرة وعاجزة. من دون قصد صاحت أستريد:

- يا إلهي!

ثم قالت بحذر:

- نونو، أنا هنا.

توقفت مانو عن الاهتزاز إلى الأمام وإلى الخلف. أدارت رأسها قليلًا، حتى كتفها على كل حال، عرفت صوت أستريد. لا أحد يناديها بـ«نونو» إلا أستريد.

- استديري يا نونو، وانظري إليّ، من فضلك!

فكت مانو ذراعيها، واستندت جانبًا على إحدى اليدين، ثم استدارت، ونظرت في وجه أستريد نظرة مستقيمة، ثم قالت:

- لقد حبسوني.

ألقت أستريد نظرة إلى بلازر الذي كان يكتب شيئًا على هاتفه. سألتها:

- من حبسك؟ وأين؟

هزت مانو كتفيها:

- رجل، لقد كنت أعمل هناك، في الخلف، في شرفته، وفجأة أغلق الباب، ولم أستطع الذهاب إلى أي مكان!

دعكت عينيها. لا بد أنها منهكة إنهاكًا لا يُتصور.

- هل تعرف هذا؟ هل قالت لكَ ذلك؟

رفع بلازر يده قائلًا:

- لقد فحصنا أقوالها، ليس في هذا المنزل سوى شرفتين، صاحب الشرفة الأولى نفى أنه استعان ببستانية، وطوال اليوم حاولنا الاتصال بصاحب الشرفة الثانية، لكننا نعتبر الحكاية كلها غير محتملة.

- ولماذا تحمل معها إذن أدواتها، وكيف وصلت إذن إلى السطح؟
لوى رئيس المفتشين بلازر شفته قائلًا:
- لا يلعب ذلك في اللحظة الراهنة سوى دور ثانوي، المهم هو أن تنزل ثانية، وبقدر الإمكان على هذا السلم.
تشنجت يد أستريد وتحولت إلى قبضة:
- اسمعني، إذا كان صحيحًا ما تقوله، فإن كل هذا هنا سوء تفاهم! لا عجب أن تصاب بالهلع. عليك أن تتابع الأمر. لماذا ستدّعي إذن شيئًا كهذا؟
قال بلازر:
- السيدة جول، مع كل المحبة، حسب ملف أختك، ليس هذا الحادث الأول بهذا الحجم.
غمغمت أستريد:
- حادث.
رأسها يؤلمها. أرادت أن تحتضن مانو، أن تبعدها عن هنا. وضعت مانو يديها أمام وجهها، إذ إن ضوء الكشاف أعماها. نهرت أستريد الشرطي:
- لا تسلط الضوء عليها مباشرة في العين، هذا أمر غير ضروري على الإطلاق!
قالت أستريد ذلك بصوتها المسرحي العميق هذه المرة، الصوت الذي تدربت عليه كي تلقي به الخطب والمحاضرات. بدا أن النبرة قد أحدثت أثرًا. أزاح بلازر شعاع الكشاف المخروطي بعيدًا. التفتت أستريد ثانية إلى مانو، وسألتها بصوت حاولت أن يكون هادئًا:
- هل تتذكرين اسم الرجل؟
لم ترد مانو، ودلكت بكفيها قصبتَي ساقيها كأنها تشعر بالبرد.
قالت أستريد:
- أنت لا تريدين أن تقفزي في الحقيقة، أليس كذلك؟ أنت لا تنوين ذلك فعلًا؟

مرت مانو بيدها في شعرها، ووزعت فيه غبار القرميد، ثم نظرت إلى كفيها وقالت:

- لقد فعلتها منذ فترة.

قالت أستريد:

- كفي عن هذا الهراء، وحاولي أن تتذكري اسم الرجل، هذا مهم.

أسندت مانو ذقنها على ركبتيها، وهزت كتفيها. شعرت أستريد بقلبها يخفق، هناك حيث يضغط السلم على بطنها.

- نونو، من فضلك، كل هذا لا معنى له. تعالي إليَّ. دعينا نتحدث عن كل شيء، انزلي، من فضلك، انزلي من أجلك، ومن أجلي، ومن أجلنا جميعًا.

أمالت مانو رأسها ونظرت إليها نظرة غاضبة:

- إنك خائفة من أن يراك أحد، أليس كذلك؟ خائفة إلى درجة أنك تنكرتِ.

دفنت وجهها في باطن كوعها. اهتزت كتفاها. ثم ضحكت. احمر وجهها أكثر من ذي قبل عندما رفعت رأسها ثانية. قالت:

- عودي إلى البيت. من المحرج لك أن تكوني أختي، لا مشكلة. كان الوضع هكذا دائمًا. لن تستطيعي مساعدتي هنا. وأنت لا تصدقينني، مثلك مثل الآخرين.

قالت أستريد:

- أنا أصدقك. طبعًا أصدقك.

ارتعشت شفتا مانو.

- كنت على وشك أن أكون شيئًا جديدًا، أتعرفين، لقد سار كل شيء على ما يرام. ثم ظهر البوليس فجأة. والآن، لا أستطيع النزول من هنا، إنك تسمعين أنهم لا يصدقونني، إنهم يريدون أن يحبسوني. لا أريد أن أُحبس مرة أخرى.

قالت أستريد:

- سيتضح كل شيء. هيا، تعالي إليَّ، سأوصلك إلى البيت.

تراجعت مانو، ثم هزت رأسها وقالت وهي تعطيها ظهرها:

- لا بد أن أفكر في الأمر.

ولم تعد ترد، أيًا كان ما تقوله أستريد.

فِن

كان يعلم أنه سيفقدها في وقت ما. منذ البداية. يعود ذلك إلى الطريقة التي ظهرت بها مانو في حياته. بسروال متسخ، وإبر من شجر السرو في الشعر، وعزم حاسم على إزعاجه. عندئذٍ عرف أن الموضوع موضوع وقت فحسب. أشخاص مثل مانو كانوا دائمًا ضيوفًا فحسب في حياة الآخرين. وبعدها لا يعود شيء إلى حاله. لكن فن لم يكن يريد أن يفكر في ما بعد. ليس الآن. تكثف بخار الماء داخل الغلاف البلاستيكي في عبوة الطماطم البلحية المهترئة التي يحملها. أزاحها تحت كرسيه القابل للطي. جلس طويلًا هنا حتى إنه أصبح لديه كرسيه القابل للطي الخاص به. راح يدير عبوة ورق السجائر بين يديه لمجرد أن يفعل أي شيء. بعد أن طردوه، ظل يسير فترة طويلة عند الحواجز رائحًا غاديًا، على أمل أن يغير أفراد الشرطة رأيهم ويسمحوا له بالصعود إليها بالأشياء التي طلبتها. مع تزايد الظلام، أصبح الهواء باردًا شيئًا فشيئًا، وأُنيرت الأعمدة في الشارع. لم يعد فضوليون يقفون أمام الحواجز تقريبًا، معظمهم سار إلى البيت. بالتأكيد، هكذا فكر فن، يجلسون الآن إلى موائدهم في المطبخ أو في الحديقة، ويتناولون العشاء، ويحكون عن المجنونة على السطح، ويعرضون على الجالسين معهم صورًا وأفلام فيديو، ويضحكون أو يقولون ملاحظات مستهزئة. بعيدًا قليلًا جلس على كرسي آخر قابل للطي مراسل لمحطة «RTL» التلفزيونية، وانهمك في لعب «سوليتير» على هاتفه، وبجانبه التهمت شرطية حمراء الرأس قطعة من

حلوى الموزلي. بالأعلى رأى مانو تجلس بجوار المدخنة، بساعدها ظللت على عينيها في مواجهة ضوء كشاف الجيب الذي سلطه الشرطي في شباك السقف على وجهها. منهكةً استندت على ذراعها الأخرى. وفجأة رأى شخصًا آخر في فتحة شباك السقف، يحاول إقناع مانو، بل إنها التفتت إليه. لم يستطع أن يعرف ما إذا كان رجلًا أم امرأة، كل ما استطاع أن يلاحظه هو أن الشخص يضع عمامة خضراء غريبة على رأسه. نهض فن. من هذا؟ لماذا سمحوا لهذا الشخص بالتحدث مع مانو، ولم يسمحوا له؟ طبيبة نفسية؟ ربما شخص من العائلة؟ الأم؟ لم تذكرها مانو بكلمة قَطُّ، ذكرت أختًا فقط. كانت تقول: «أختي الكبيرة البالغة. بجوارها أشعر دائمًا أنني مثل طفلة، حتى لو أصبحت يومًا في الثمانين». الآن، من الجانب، كان فِن متأكدًا من أنها امرأة. لكن بعد برهة قصيرة أعرضت عنها مانو. بعد دقائق اختفى رأس المرأة من جديد من فتحة الشباك. نهضت مانو واقتربت خطوة من حافة السطح، على الفور سرت رعدة بين أفراد الإنقاذ المسؤولين عن الوسادة الهوائية. صاحت وهي تشيح بيديها:

- لماذا لم تحضر لي شيئًا؟ أي صديق أنت! تجلس هناك ولا تُحضر لي شيئًا. أشعر بعطش فظيع! هل تريد أن أموت عطشًا؟ أتريد هذا؟

هب فن واقفًا، منذ ساعات كانت تلك المرة الأولى التي تتحدث فيها معه. صاح:

- لا يتركونني أصعد إليكِ. لقد اشتريت كل شيء، كل ما طلبته، لكنهم لا يدعونني!

قالت الشرطية وآخر قطعة من الموزلي ما زالت في فمها:

- توقف عن الصراخ على الفور!

زأر فِن:

- انزلي يا مانو. إنهم كلهم حمقى، وسيتضح كل شيء، سنذهب معًا في الغد للسباحة، أعدك بذلك.

رفعت الشرطية سبابتها مهددةً:

- إذا لم تسكت فورًا، فسأقبض عليك بتهمتَي إهانة موظفي الدولة والإزعاج. عليك أن تشعر بالرضا لأننا نتركك تقف هنا.

نظر فِن إلى الأرض. لا بد أن يبقى هنا، بأي ثمن. بسن حذائه ضرب الطماطم تحت الكرسي، ثم فتح عبوة ورق السجائر، وأخذ ينزع ورقة وراء الأخرى، ثم ضغط عليها بيده مكوِّنًا كريات صغيرة تركها تتدحرج إلى الأمام وإلى الخلف في راحة يده، ثم رماها في النهاية على الأسفلت.

- أنت تحبها جدًّا، أليس كذلك؟

استدار فِن فجأة. كان سيلاس يقف خلفه، بابتسامته المميزة العريضة، وتحت ذراعه صندوق ورقي به ست زجاجات من البيرة. قال:

- فكرت أنك ربما تحتاج إلى دعم. وشيء مهدئ للأعصاب.

مد يده إليه بزجاجة بيرة. تناول فِن الزجاجة ووضعها لحظة على جبينه، أراحته البرودة. حمل سيلاس أحد الكراسي القابلة للطي الشاغرة وجلس بجانبه.

حاول فِن محاولات طائشة لفتح زجاجة البيرة بمسند الكرسي. قال:

- بسبب ما حدث عصر اليوم...

غير أن سيلاس أشاح بيده وتناول الزجاجة منه قائلًا:

- دعك من ذلك. لقد فهمت.

في ثوانٍ فتح زجاجة فِن بالولاعة، ثم مد يده بها إليه، وفتح زجاجته. قال وهو يرفع زجاجته عاليًا:

- في صحة الحب!

قرع فِن نخبه من دون أن يقول شيئًا.

بعد برهة قال سيلاس:

- على فكرة، حالة الصبي جيدة إلى حدٍّ ما.

كان فِن يدير الزجاجة وبها آخر جرعة:

- أي صبي؟
وضع سيلاس زجاجته الفارغة بجانب الكرسي:
- الصبي صاحب الورم. الذي كان عليك أن تسلم عينة النسيج الخاصة به. على الأرجح الورم حميد.
شرب فِن آخر جرعة، وسأله:
- وكيف عرفت ذلك؟
- ماذا أقول؟ أنا محبوب لدى الممرضات.
أومأ فِن، وظهرت بوادر ابتسامة على شفتيه، لم يكن قادرًا على أكثر من ذلك.
قال سيلاس:
- ماذا؟ ألا تريد أن تحكي لي أخيرًا مَن هي وما تفعله هناك بالأعلى؟
أشار سيلاس برأسه ناحية السطح. تنهد فِن ودلك وجهه. ثم حكى لسيلاس عن مانو، وعن تعرفه بها، وأنها تعمل «بستانية بالقطعة»، وأنه وجد العبارة جميلة، وحكى لسيلاس عن زهور الزيزفون والطماطم البلحية، وعن الحديقة الخفية، وحكى له حتى عن الشعيرات الرقيقة التي لا تكاد تُرى على صدغي مانو، وعن النزاع الذي نشب بينهما في الصباح، وعن أنه يشعر بالذنب بسبب ذلك.
عندما انتهى فِن من حديثه، فتح سيلاس زجاجتين أخريين من البيرة.
- ولا تعرف لماذا تقف هناك على السطح؟ وكيف صعدت؟
- لا أعرف ماذا كانت تفعل في المنزل. ربما كُلفت بعمل. قبل قليل سمعت شيئًا غريبًا عندما كانت الشرطية هناك تتحدث مع زميل لها. على ما يبدو ادعت مانو أنها كانت محبوسة، في الشرفة، هذا ما قالته في الصباح على كل حال للمدعو بلازر. لكنهم لم يجدوا ساكنًا يؤكد ذلك.
نظر سيلاس إلى أعلى.

- غريبة. لكن ذلك سيتضح فيما بعد. قريبًا. وسينتهي كل شيء، ويصبح على ما يرام.

هز فِن كتفيه.

قال سيلاس:

- بجد، سيصبح كل شيء على ما يرام. «النهاية ستكون جيدة، وإذا لم يكن الوضع الآن جيدًا، فهي ليست النهاية بعد». جملة قالها كاتب مسرحي ذكي.

كان فِن يود أن يصدقه، لكن الخوف من أن ينتهي الأمر على نحو مغاير كان يقبع في بطنه مثل قطران لزج، ويجثم على صدره وتحت لسانه.

كان الليل قد هبط أخيرًا، وانطلق آخر الفضوليين إلى بيوتهم وهم يتثاءبون. كل عشرين دقيقة تطلق الشرطة صفارة إنذار حتى لا تغفو مانو وتسقط من السطح. كانت تجلس منكفئة على نفسها مستندة إلى المدخنة، وتضع جبهتها على ساعديها. ساد السكون بين صفارات الإنذار، باستثناء بضعة أصوات تسللت من شرفة روزفيتا، وحفيف زي أفراد الشرطة والإطفاء عندما يتحركون. أخرج مراسل «RTL» وسادة منفوخة ووضعها حول رقبته، ولم يمر وقت طويل حتى كان قد استغرق في النوم على كرسيه، وفمه مفتوح قليلًا، وقد ضغط الهاتف على صدره. الشرطية الشابة أيضًا تجلس الآن على أحد الكراسي وتحاول أن تفرك عينيها من دون أن تلفت الانتباه. الساعات التي قضاها فِن في هذا الميدان بدت له مثل رحلة بلا نهاية في طريق مقفر يعاني الجفاف. لم يحدث شيء طوال ساعات، أو الأشياء نفسها تكررت، فلا فرق في الحقيقة بين الحالتين، والجميع ينتظر أن ينتهي الأمر أخيرًا. الجميع، ما عدا فِن. وسط السكون الذي كاد يكون مسالمًا والذي ساد بين صفارتي إنذار، اتضح له مدى خوفه من اللحظة التي ينتهي فيها كل شيء، التي تنزل فيها مانو من على السطح، وتصبح كل هذه الخفة بينهما مجرد ذكرى. ذكرى لما كان. قبل أن... سأل نفسه عما سيقوله لها عندما يقف

أمامها مرة أخرى. «جميل أنك عدتِ»، هكذا فكر، نعم، ربما يقول لها ذلك. مع أنها جملة يقولها المرء لشخص كان غائبًا فترة طويلة. لكنها جملة صائبة على نحو من الأنحاء أيضًا. إلى أين سينقلونها؟ وهل ستتحدث معه ثانية في يوم من الأيام؟ أو تصغي إليه؟

قال لسيلاس الذي فتح الزجاجة الثالثة:

- هل تعرف أن طيور «الفلامنجو» تتبول على سيقانها حتى تُبرد نفسها في الأيام الحارة؟

هز سيلاس رأسه، ومد يده إليه بالزجاجة، فتناولها فِن وقال:

- كنت أعرف أن مانو مختلفة. كنت أعرف من البداية. لكنني لم أكن أعرف أنها... أنها مختلفة إلى هذا الحد.

قال سيلاس:

- ولهذا لا أشترك في كل هذا. أعني العلاقات وهذه الأشياء. لا تناسبني. إنني أكره اللحظة التي تدرك فيها أن الصورة التي كوَّنتها عن أحد لا تتفق مطلقًا مع الشخص الذي يقف أمامك. لم أعد أسمح بالوصول إلى هذه النقطة. وهكذا أستطيع أن أحب كل امرأة أقابلها. وهذا يجلب متعة أكبر بكثير.

أخذ فِن يدير الزجاجة بين كفيه إلى أن بدأت البيرة بداخلها تفور، ثم قال:

- ربما، وربما أيضًا لا يبدأ الحب إلا في هذه النقطة التي تدرك فيها أنت ذلك تمامًا. التي تدرك فيها أن الشخص الواقف أمامك، لا علاقة له بالصورة التي كوَّنتها عنه. وأنك على الرغم من ذلك لا تريد أن تحيا بدونه.

قال سيلاس وهو يقرع نخبه:

- إذن، أتمنى لك حظًا طيبًا كي تجد شخصًا كهذا! بالمناسبة، ماذا عن خططك للسفر إلى أسطنبول ونابولي ونيويورك؟ لقد كنت تعمل ساعات إضافية خصيصًا من أجل ذلك.

قال فِن:

- لا أعرف. لم أحب هذا المكان يومًا. كنت دائمًا أريد مواصلة الرحيل. لكنه أصبح فجأة يعجبني منذ أن تعرفت إلى مانو، هذا جنون.

قال سيلاس:

- سيكون جنونًا لو أعطيت دراجاتك أسماء أنثوية وذهبت إلى السرير مع أجزائها. هكذا مثلما فعل أوتو، الذي كان يدير المكتب في الماضي. هل تعرفت إليه؟

هز فِن رأسه، ثم قال:

- بالإضافة إلى ذلك، الرحلة لن تطير.

نظر إليه سيلاس متفحصًا، وقال:

- أنت خائف.

رد فِن:

- كلام فارغ.

حتى إن لم يكن يعرف من أي شيء يخاف أكثر: من الرحيل أم من البقاء هنا. فزع عندما انطلقت صفارة إنذار. سرت رعشة في بدن سيلاس أيضًا، فدلق من زجاجته بعض البيرة. سطع شعر مانو بلون أزرق عندما مر الضوء عليه. قال فِن لنفسه: «نوكتيليوكا».

إدنا

شعرت إدنا بألم في ظهرها. رقدت في السرير طوال ساعات في الوضع نفسه الذي يصيب عضلات الكتفين بالتشنج. كان التلفزيون يعرض سباقًا للخيل. عبر جفنيها شبه المغلقين تابعت خبب الخيل مفتول العضلات، من دون أن تتابع السباق حقًّا، مثلما ينظر المرء إلى ساعته من دون أن يستطيع القول بعدها كم الساعة. لم تعرف إدنا كم الساعة. أظلمت الدنيا وبردت. لكن الأمر لم ينتهِ. ما زالت المرأة على السطح. إذ إن صفارة الإنذار تنطلق كل عشرين دقيقة، والضوء الأزرق الدوار يمر سريعًا بستائرها وبجدار الحديقة، إشارة ضوئية تحذيرية لا يمكن تجاهلها، تلوِّن حتى غطاء السرير الذي انزلقت إدنا تحته. غمغمت:

- غير معقول!

كلما طال الأمر، شعرت بتقلصات أكثر في بطنها. بدا لها النهار بأكمله بطيئًا وسخيفًا، ويشبه لبان النيكوتين. بدأت إدنا تسأل نفسها عما إذا كانت قد أخطأت بالاتصال التلفوني أما كانت المرأة قفزت من فترة لو كانت تنوي الانتحار حقًّا؟ كلَّا، ما زالت على رأيها، لقد حالت تحديدًا دون ذلك، وتدخلت في اللحظة الصحيحة تمامًا. نهضت وسارت إلى الحديقة. انعكس وميض سيارات الشرطة على الواجهة المقابلة، واخترق الشجيرات وأفكار إدنا، بحدة وسرعة. وقفت إدنا على أحد كراسي الحديقة واختلست نظرة من فوق السور الحجري. أمام المنزل الأخضر ما زال الناس يقفون، لكن أقل كثيرًا مما كان في العصر. السير

إلى المحل على الناصية كان أمرًا مرعبًا. مثل النسور انقض هؤلاء الملاعين ضيقو الأفق على ما جرى، متشوقين بنهم إلى أي حدث خارق للمألوف، كأنهم سيموتون ضجرًا إن لم يفعلوا ذلك. كانت في تلك اللحظات تلعن حياة المدن الصغيرة، هذا التنازل البائس، فقط لأن محطة السكك الحديدية بعيدة عن وسط المدينة وعن أنظارهم. القلائل الذين ظلوا في الميدان كانوا على الأرجح من الأقارب، ومعهم أفراد الشرطة والإطفاء، والقليل من الصحفيين في حالة ما إذا حدث شيء خطير. ما زالت المرأة فوق السطح، وكشافات الشرطة مسلطة عليها، تبدو حركاتها هوجاء ومنهكة. لقد نزعت قرميد كل الجزء الشرقي تقريبًا من السطح. تأمل في ألا يهطل المطر في الليل، هكذا فكرت إدنا، وخجلت في اللحظة التالية من تفكيرها. في أعماقها، فوق حجابها الحاجز تمامًا، كانت تفهم غضب المرأة، ورغبتها في أن تواصل عملها. هزت إدنا رأسها وهبطت من الكرسي. كفَّاها مبللان، وعندما تسد أذنيها، فإنها تسمع صوتين خافتين يصفران، أصواتًا محذرة ومزعجة، مؤشر لها على أن نظام التحكم في جسدها لم يعد يعمل. تعرف هذا. مر وقت طويل على ذلك، لكنها ما زالت تعرف هذا الشعور، وتعرف أن عليها أن تفعل شيئًا حتى تهدأ. بالكشاف راحت تبحث في الحديقة عن كوزيما، لكنها لم تعثر عليها في أي مكان. كانت تود الآن أن ترفعها وتأخذها على حجرها، وتدلك ذقنها المليء بالتجاعيد. لم تكن تفعل ذلك إلا نادرًا، لأن كوزيما لا تحب ذلك، فقط عندما لا يكون ثمة مفر، عندما لا تستطيع يداها التوقف عن الرعشة، أو إذا حلمت أحد تلك الأحلام، بالدم والركام، بالصبي ذي السترة الجلدية الذي كان يناديها من تحت القاطرة وقد شُق بطنه. أشعلت إدنا سيجارة، وتفرجت على الدخان وهو يتلون بالأزرق على إيقاع صفارة الإنذار. من المؤكد أن كل شيء كان سيسوء أكثر من هذا بكثير لو لم تبادر بفعل شيء. من المؤكد تمامًا.

في تمام العاشرة وثلاث وعشرين دقيقة مساءً فرغت علبة سجائرها للمرة

الثانية في هذا اليوم. بحثت إدنا في كل مكان، في الدرج في حجرة الغسيل، في رف الأحذية، في كل جيوب كل المعاطف، لا شيء، لم تعد لديها سيجارة في أي مكان. تحسست الورقة النقدية من فئة العشرة يورو التي ادخرتها في جيب التنورة. العلبة التي اشترتها في العصر دفعت ثمنها بالعملات الصغيرة التي كانت في درج مائدة المطبخ، كان بها عدد كبير من قطع الخمسة سنتات والعشرة سنتات. أحست بنخزة عندما فكرت في فقدانها السيطرة على نفسها أمام مراسل التلفزيون، كانت تريد أن تفكر في كل ذلك فقط، وربما حتى لم تكن تريد ذلك. على الرغم من ذلك عليها الخروج الآن، إلى مقهى روزفيتا، هذا هو المكان الوحيد على مدى البصر الذي يمكنها أن تحصل فيه على سجائر في هذه الساعة. منذ نحو ثلاث عشرة ساعة تقف المرأة بالأعلى، ماذا لو فعلتها في هذه اللحظة تحديدًا، الآن على وجه التحديد، عندما تمر بها إدنا؟ دهست السيجارة الأخيرة في المنفضة بجانب ركن تعليق المعاطف، ومرت بيدها على بطنها المتشنج. لم يبقَ أمامها خيار آخر. بدون نيكوتين لن تجتاز هذه الليلة.

ما زالت شرفة روزفيتا تحفل بالرواد، كل الأماكن تقريبًا مشغولة. عائلة من خمسة أفراد حشرت نفسها خلف إحدى الموائد، وقد وجهت الكراسي كلها ناحية الحدث المثير، ووضع كل فرد على ركبتيه طبقًا عليه قطعة دافئة من كعكة التفاح، التهموها بسرعة، وبعد كل قضمة كانوا يفتحون الفم حتى لا يحترق حلقهم بالتفاح الساخن. على البار طلبت إدنا علبتين من المارلبورو الأحمر. قالت لها روزفيتا:

– سأحضرها لك في الخارج. لحظة وأكون عندك. لا أخدم اليوم هنا في الداخل، فالشرفة مكتظة، آسفة.

جلست إدنا في الخارج إلى مائدة صغيرة جدًّا بجانب الباب كانت روزفيتا تستعملها لتغيير المنافض. نافدة الصبر أخذت تدق بأناملها

على الصفيح، ونظرتها مسددة إلى الولاعة التي كانت في وضع استعداد بجانب المنفضة.

قالت روزفيتا وهي تضع كأسًا من بيرة القمح أمام إدنا، وكذلك صحنًا صغيرًا عليه فول سوداني:

- هنا، تستحقين هذا. اليوم ليس بالتأكيد يومك، بعد كل ما سمعته. على حساب المقهى.

أومأت إدنا وأدارت الكأس بين يديها. روزفيتا لطيفة معها. على الرغم من ذلك: عليها الآن أن تظل هنا حتى تفرغ من البيرة. متعجلة فتحت علبة السجائر، ونظرت إلى الرواد. هناك أيضًا تيريز وفرنر، المفلسان. الدكان اليوم كان مكتظًا، ليس فقط في العصر عندما أحضرت السجائر، بل طوال اليوم كان الناس يشترون أشياء، لقد رأت الطابور من شباك المطبخ. كان الاثنان يشربان الكوكتيل. قالت إدنا لنفسها: لا يبخلان على نفسيهما بشيء اليوم. مع كل رشفة من البيرة كان الغضب يفور في بطنها من جديد، ويتصاعد حتى يصل إلى صدرها. غضب تجاه هؤلاء المحملقين البائسين الذين يجلسون هنا مسترخين، يأكلون الكعك ويشربون الكوكتيل، وغضب تجاه المرأة على السطح التي جعلت أطرافها ترتعش من جديد بعد مرور سنوات، وغضب تجاه نفسها وتجاه الصور التي طفت مرة أخرى على السطح بعد أن توارت طويلًا في ظلام مؤخر رأسها.

بعد السيجارة الثانية وجدت نفسها تقول:

- يا له من تبذير لأموال الضرائب!

انفلتت هذه الفكرة منها مثل سعلة، مثل رد فعل لا يستطيع المرء مقاومته. قالت:

- هذه فضيحة. مع شخص كهذا ينبغي التصرف بسرعة، في لمح البصر، يجب أن يُطاح به من السطح. نعم. إنها يائسة من الحياة على كل حال، فلماذا إذن كل هذه الضجة؟

أدارت تيريز رأسها في اتجاه إدنا، وهكذا فعل بعض الرواد أيضًا. بقوة وضعت إدنا الكأس على المائدة، وفارت البيرة على حافة الكأس، لم تشعر بالراحة، ولاحظت أن كلمات أخرى ما زالت محشورة في حلقها، كلمات لا تريد في الحقيقة النطق بها. قالت:

- هذه هي الحقيقة، يكفي العدد الهائل من أفراد الشرطة، إن ذلك يكلف ثروة. يكلفنا جميعًا ثروة، هذا هو الوضع. إذا لم تعد تريد مواصلة الحياة، فعليها أن تقفز في البانيو ومجفف الشعر في يدها، أو أن تبتلع عدة أقراص، عندئذ، على الأقل، لن تورط أحدًا معها.

خرجت روزفيتا إلى الشرفة، لا بد أنها تابعت كل هذا من الداخل، ومن دون كلمات وضعت أمامها كوبًا كبيرًا من الماء. أزاحته إدنا جانبًا، وأشعلت سيجارة جديدة، ثم قالت:

- إنكم تفكرون جميعًا مثلي. لكن ليست لديكم الجرأة لتقولوا شيئًا.

بحدة مالت تيريز بكرسيها وقالت:

- كفى يا إدنا! إننا نعرف جميعًا أنك أنتِ التي اتصلتِ بالشرطة. ربما لم يكن كل هذا ضروريًا. ربما لم يكن كل شيء سيتطور هكذا لو لم تبالغي في رد فعلك.

بكفها خبطت إدنا على المائدة، وصاحت:

- بالغتُ في رد الفعل! أنا بالغتُ في رد الفعل؟ كانت المرأة تقف على حافة السطح وتصيح بأنها تريد أن تقفز، كانت تقف في المقدمة تمامًا! لقد كنت الوحيدة التي بادرت بفعل شيء من الأساس! وأنتِ...

أشارت بإصبعها على تيريز، وواصلت:

- أنتِ بالتأكيد أكثر شخص لا يحق له الشكوى، لقد تزاحم المشترون عندكما، واكتظ دكانكما البائس بالزبائن، لم يدخل إليكما كل هذه النقود منذ بطولة أوروبا لكرة القدم.

قالت تيريز:

- أنتِ لا تعرفين شيئًا عنها مطلقًا. قد تكونين ظلمتها تمامًا. هناك شائعة تقول إنها حُبست في إحدى الشرفات.

نهضت إدنا، واستندت بقبضتي يديها على لوح المائدة، وصاحت:

- ظلم! سأحكي لكِ شيئًا عن الظلم.

تناولت جرعة كبيرة من كأس البيرة قبل أن تواصل:

- لقد تعرضتُ للظلم عندما كان معظمكم ما زال يفعلها في سرواله، أو يرضع من الحبل السري.

هزت تيريز رأسها قائلة:

- طبعًا، دائمًا الأكثر حصولًا على الامتيازات يعتقدون أن حالتهم هي الأسوأ. كفى يا إدنا، قد تصابين بشرقة.

ضحك أحدهم. ورفع بعض الرواد الحاجبين عاليًا، ثم تبادلوا نظرات مرحة.

وجدت إدنا نفسها تسعل. جمعت بعض حبات الفول السوداني من الصحن الصغير، ورجعت برأسها إلى الوراء، ثم أفرغت يدها في جوفها. شعرت بضيق في الحلق، لم يقلل منه لا الفول السوداني ولا رشفة البيرة التالية.

صفقت روزفيتا:

- أيها السادة، سنغلق. يكفي اليوم، أشعر بألم في ساقَي، هيا، غدًا يوم آخر.

روزفيتا الطيبة. الإنسان الوحيد العاقل في هذه البلدة السخيفة. واحدة من القليلات اللاتي لا يعانين من الخوف تجاه زيادة الأغراب، وهن يقفن في مطبخهن أمام رف التوابل. والوحيدة التي تعرف؛ أنها، إدنا، لم تكن دائمًا هكذا. قصيرة ونحيلة. لقد كانت إنسانًا بشوشًا يحب الناس. لم تكن تخرج من فمها كلمة شريرة إلا نادرًا. كانت تحيا حياة طيبة، عملت باجتهاد حتى تصل إليها. تعرف إدنا ما يظنه الآخرون، وترى ذلك على وجوههم، تراه واضحًا تمامًا على وجوههم. لكن لا

يهمها ذلك، منذ فترة طويلة لم يعد يهمها ذلك، إلى درجة أنها لم تعد تعرف متى بدأ عدم اهتمامها بذلك.

كل يوم كانت تجلس وهي شابة في ذلك الكشك في محطة فرايبورج للسكك الحديدية، وتؤدي عملها بإخلاص، تستقبل مكالمات تلفونية، وتكتب محاضر على الآلة الكاتبة، وتخطط للمستقبل. ولم تكن تريد آنذاك سوى شيء واحد: أن تعمل هي نفسها على القضبان، وأن تقف في كابينة القيادة وتقود القطار بسرعة في ربوع البلاد. ضحكوا عليها. قالوا: «هذا شيء ليس للنسوان. إلى أين سنصل إذا سُمح الآن للنسوان أيضًا بالوقوف أمام الماكينات؟ لا يصح إلا الصحيح». سلموا نساءَ السكك الحديدية كتيبات صغيرة مكتوبًا فيها كيف يجب عليهن أن يسلكن أمام أزواجهن. أن عليهن دائمًا أن يكون مظهرهن لطيفًا، هكذا كان مكتوبًا، وألا يزعجن الرجل بمشكلاتهن. لم تكن متزوجة. ليس معنى ذلك أنه لم يعجبها رجل قَطُّ، لكنهم جميعًا كانوا سيقفون في طريقها. كان لديها حلم. بعد ثلاث سنوات عملت فيها كسكرتيرة، كانت تعرف عن القاطرات أكثر من معظم أولئك السذج الذين يقودون كل يوم القطار في المنطقة. تمرنت في البيت أمام المرآة على الحركة مثل الرجال، تمرنت على التحدث بصوت أعمق. وذات يوم سُمح لها فعلًا بمرافقة سائق قطار. سُمح لها أن تقف خلف سائق القطار، وأن تحصي عدد الركاب وتسألهم عن خط سفرهم من أجل إحصائية تشمل البلاد كلها. المغامرة الكبيرة استمرت أربعة أيام. وبعدها الانتظار مجددًا خمس سنوات. لم يسمحوا للنساء بالتدريب المهني ليصبحن سائقات قطار إلا في نهاية الثمانينيات. كانت قد بلغت الثامنة والثلاثين. كانت أول من سجل اسمه، وأول من حصل على الشهادة. لم يكن هناك ما هو أجمل في العالم من تلك اللحظة، عندما وصلت القاطرة إلى سرعتها القصوى، عندما كانت تنطلق في طريقها وتمرق في قلب الصباح الباكر على القضبان،

فتفزع الأيائل وسط الضباب. كانت تستمتع بالهدوء. لم يكن هناك سواها، وسوى الكابينة والسرعة. طوال ثماني سنوات كانت تتطلع كل يوم بسرور إلى اللحظة التي ينغلق فيها باب كابينة السائق، فتستطيع الانطلاق. إلى أن جاء ذلك الثلاثاء، عندما وقف هذا الرجل ذو البيجاما المخططة على القضبان. تراه واضحًا تمامًا أمامها. ابتسم. كان شعره أشيب. وفي زاوية فمه سيجار، ابتسم وفرد ذراعيه مثلما يفعل المرء عندما يريد احتضان أحد لم يره منذ مدة طويلة جدًّا. فرد ذراعيه من أجلها. لن تنسى أبدًا هذا الصوت، هذا الارتطام الخافت عندما اصطدم جسده بالجزء السفلي من القاطرة، الصليل، الفرملة بعد فوات الأوان. كان للرجل ثلاثة أطفال، وزوجة، وجبل من الديون، اعتقد أنه يستطيع دفنه تحت قاطرتها. احتاجت إلى شهرين حتى تصعد مرة أخرى إلى الكابينة. وبعد أسبوعين فحسب وقف شخص آخر على القضبان ثانية، صبي هذه المرة، بسترة جلدية، وسماعتين على أذنيه، ويضغط على صدره جهاز «ديسكمان». لم يبتسم، بل بدا خائفًا، رفع ذراعيه أمام وجهه كأنه يريد أن يصد لكمات توجه إليه. عندما ركعت بجانب الصبي فوق الزلط سمعت من إحدى السماعتين الموسيقى المنبعثة من الجهاز، بصوت خافت تمامًا سمعت هدير النغمات العميقة. ظل على قيد الحياة طوال أغنيتين أخريين. كان ذلك آخر أيامها بصفتها سائقة قطار. لم تنجح قَطُّ في الرجوع إلى كابينة القيادة.

سرت همهمة بين رواد المقهى، ثم أخرج واحد وراء الآخر عند كل مائدة محفظته. بدأت روزفيتا في وضع الكراسي الفارغة بعضها فوق بعض. عندما انصرف الجميع، جلست بجانب إدنا، ووضعت سيجارتها الإلكترونية على المائدة.

قالت إدنا وهي تشير بإبهامها إلى الخلف، إلى المنزل ذي اللون الأخضر الفاتح:

- ماذا تظنين؟ هل تظنين أنها تريد فعلًا... تعرفين ما أقصد.

هزت روزفيتا كتفيها ونهضت قائلة:

- إذا أردتِ رأيي، فغضبها أكبر من أن تفعل ذلك. من يتملكه الغضب، ما زال لديه ما يفقده.

عندما عادت وضعت على المائدة زجاجة من ليكور الأعشاب «يجرمايستر»، وكأسين صغيرتين من كؤوس «الشنابس»، ثم ملأتهما حتى الحافة، وقرعت نخبها.

بللت إدنا شفتيها فحسب، ثم سألتها:

- أتظنين أنها مجنونة؟

وضعت روزفيتا الكأس الفارغة على المائدة وقالت:

- ومَن منا ليس مجنونًا؟ أرى أننا نجلس هنا في كوكب يقدر عمره بملايين السنين، متطور إلى أقصى حد، ونشرب كابوتشينو و«يجرمايستر»، ثمة سيارات يتم التحكم فيها عن بعد ولا يستطيع المرء أن يجلس فيها، ثمة أظافر يمكن لصقها، ومضخات لقضيب الرجل، وثلوج، وكراسي متأرجحة، ثمة طيور كناري، ومعارك بطائرات بدون طيار، ونكهة اصطناعية للتفاح، وعلى الرغم من ذلك فلا حول لنا ولا قوة أمام الحب، وأمام رغبتنا في أن نكون مصدر سعادة عظيمة لشخص ما، لا حول ولا قوة لنا أمام التعب وأمام البشر الذين ينجبوننا، ودائمًا علينا أن نقاوم ميلنا إلى الكسل، إذن، إذا أردتِ رأيي، فإنني أقول لكِ على وجه الإجمال: إن الشذوذ في الحقيقة هو ألا نكون مجانين.

أفرغت إدنا كأسها في جرعتين صغيرتين. شعرت بدفء «الشنابس» عندما وصل إلى معدتها المتوترة. بعد برهة قالت:

- أفتقد السرعة. الطريق الفارغ، الشعور بالحرية، هذا ما أفتقده.

أومأت روزفيتا وملأت كأسها ثانية. قالت:

- إذا أردتِ، يمكنك أن تأتي معي على دراجتي النارية، «موتو جوتسي»،

في العربة الجانبية. في الرابعة فجرًا يكون المرء وحده تقريبًا في الطريق السريع. وهو ما ينطبق بالأولى على الطرق الجبلية. روعة.

ربتت إدنا على ظهر يد روزفيتا. قالت لنفسها: نحن سلحفتان. نحب العزلة، ونفضل الحياة بمفردنا، بلا صحبة. لا نتقابل إلا على نحو عابر، بين الحين والآخر، عندئذٍ تومئ كل منا للأخرى، ونحن نعلم أن هذا كافٍ.

قالت إدنا:

- سنرى.

ونظرت إلى ساعتها. بعد بضع دقائق سيحل يوم الأربعاء.

هنري

النوم مستحيل. جلس هنري على دكة بالقرب من مدخل المتنزه، وفرك عينيه. صحيح أنه نجح، هو ولوكاس النحيل، في البقاء أثناء إغلاق المتنزه من دون أن يلاحظهما أحد، لكن ذلك لم يساعدهما كثيرًا. كل عشرين دقيقة تطلق الشرطة صفارتها التحذيرية حتى لا تغفو المرأة المسكينة على السطح. الآن، بعد أن صمتت أخيرًا طيور السمامة، وبعد أن أصبحت الدنيا ساكنة ومسالمة. في الشجيرات كانت صراصير الليل تصدر صريرًا، ومن راديو سيارة بعيدة ترامت إليه أنغام أغنية مارفين جاي «Sexual Healing»، فاحت رائحة العشب المقصوص حديثًا، وكذلك رائحة عطر ما بعد الحلاقة الذي وضع منه لوكاس النحيل أكثر بكثير من اللازم. منذ نصف ساعة يمرق الأخير بمرح مفرط بين الأشجار بدراجة وجدها في الظهيرة عند منطقة جمع الزجاجات الفارغة. صاح:

- يوم سعد!

ثم راح يرفع ذراعيه بالتناوب عاليًا في الهواء:

- يوم سعد هذا!

على الرغم من ذلك، لم يكن هنري يريد الذهاب إلى مأوى المشردين، فهو يكره القاعات المعدة للنوم هناك، حيث يعي على نحو واضح للغاية أنه فقد بيته. حتى في السابق لم يكن يحب، خلال رحلات العمل، أن ينزل في فندق؛ هذا التقليد السخيف للبيت، واللون البيج والرمادي، وتلك الصور

والأثاث الذي يريد أن يعجب كل شخص إلى درجة أنه لا يعجب في النهاية أي شخص. في جيب الجاكيت الأيسر سمع خشخشة العملات الصغيرة، حصيلة بيع الأسئلة، كان يومًا طيبًا، بفضل الفضوليين الكثيرين الذين قضوا ساعات في الميدان. تطلع هنري إلى المرأة التي جلست منكفئة على ذاتها بجانب المدخنة.

- ما أسرع ما يصبح المرء منبوذًا.

قال الجملة بالأحرى لنفسه، لا للوكاس النحيل الذي هبط من دراجته وجلس بجواره على الدكة في وضع القرفصاء، وبيد راح يداعب مقود الدراجة كأنه رأس كلب.

- يا لها من جملة، يا معلم. بأمانة، إذا اعترضت سبيل أحد، فيمكن أن يحدث ذلك بسرعة، بسرعة بالغة. على الإنسان ألا يعترض سبيل أحد، هذا هو رأيي.

قال هنري:

- هذا سخف. كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ بمجرد مجيئك إلى العالم، فإنك تعترض سبيل شخص ما، هذا شيء لا يمكنك تجنبه.

بيده اليمنى طبَّق لوكاس النحيل أذنه اليمنى على نحو صغير جدًّا، فعلها بمهارة تامة حتى إنها بقيت ثواني مثنية في الداخل، وبانت مثل فم مزموم، إلى أن عادت إلى شكلها الأصلي. أخذ هنري يتلاعب بشريط الزينة الذي يربط علبة النوجة التي اشتراها عصر اليوم من محل الحلويات في ميدان السوق. بلغ ابنه اليوم التاسعة عشرة. بالتأكيد يجلس في مكان ما ويحتسي البيرة مع أصدقائه، أو يُقبل فتاة في مدخل أحد البيوت. وبالتأكيد صنعت إستر كعكة الجزر، فهي تصنع دائمًا كعكة الجزر عندما يحتفل أحد بعيد ميلاده، وهي تصنع أفضل كعكة جزر في كل أنحاء البلاد. هل يتحدثان عنه؟ هل يفتقدانه سرًّا بعض الشيء وهما يتناولان طعام عيد الميلاد؟ هل ما زالت الدجاجة لدى إستر؟

قال لوكاس النحيل:

- بأمانة، يا معلم، المرأة صغيرة السن جدًّا. لماذا تريد أن تنتحر؟ هذا فظيع، ألا ترى ذلك؟

هز هنري رأسه:

- هل رأيت العناد في وجهها، الغضب في كل جسدها؟ من يصرخ ويكسر لا يتمنى أن تنتهي حياته. إنه يتمنى أن تكون مختلفة.

فصل لوكاس النحيل شعره إلى ثلاث خصلات، وشرع يجدلها في ضفيرة.

- على المرء ألا يتخلى عن التمني يا معلم، وإلا مات.

مد هنري يده بعلبة النوجة إليه قائلًا:

- خذ، من أجلك.

توقف لوكاس النحيل عما يفعله، وترك ضفيرته التي كاد ينتهي منها تتأرجح على كتفه، ومسح كفيه في ساقَي سرواله، ثم قال:

- لا يا معلم، لا، بأمانة.

ثبت بصره على سن حذائه، وهرش ذراعه، ثم نظر نظرة جانبية إلى العلبة بالنوجة.

قال له هنري وهو يقرِّب العلبة منه:

- كنت أعتقد أنك تحب هذه الأشياء.

بكفيه استند لوكاس على الدكة، وبسن حذائه رسم خطوطًا في الحصى. تطلع إلى العلبة، ثم إلى هنري، وارتعشت زاوية فمه:

- يا إلهي، بأمانة يا معلم، لقد أنهكتَ أعصابي. لا أعرف متى أهداني أحد آخر مرة... ولا أفهم لماذا...

- طيب، طيب. كانت لديَّ رغبة. لم أعد أستطيع أن أُدخل الفرحة إلى قلب أحد. خذها ببساطة. سأذهب الآن لأتمشى قليلًا. لن نستطيع النوم هنا هذه الليلة على أي حال.

نهض هنري وسار إلى مدخل المتنزه. من زاوية عينه لمح لوكاس وهو يضع العلبة على ركبتيه، ثم يمر بيده على الغطاء. وقف هنري أمام البوابة الحديدية، وشبك ذراعيه. كان يحب هذه النظرة إلى الخارج. كأن هناك مكانًا يمتلكه، ولا يستطيع أي شخص أن يدخله. حديقته، أشجاره، صراصيره. نظر إلى الرواد في شرفة روزفيتا. لم يعد أحد تقريبًا يتطلع إلى المرأة. جلسوا جميعًا كأنهم في محطة باصات، ينتظرون، ومشغولون بأشياء أخرى، لكنهم متأهبون على الرغم من ذلك حتى لا يفوتهم شيء في حال اتخذت الأحداث منعطفًا آخر. يعرف هنري ذلك. هذه القوة التي قد تمتص بها الأحداث المشؤومة الإنسان. يتذكر جيدًا شعوره عندما كان صبيًّا صغيرًا، يجلس في السيارة مع أبيه، ثم مرا في الطريق السريع بحادث مرور. هذا الشعور بأنك محظوظ. هذا الشعور الطاغي بأنك على قيد الحياة، وحالتك جيدة. في بعض الأحيان تصادفه هذه النظرة الآن. هذا الرعب المريح الذي ينتاب العابرين. عندما يرقد على دكة في متنزه ويتظاهر بالنوم. أو عندما يغسل ملابسه في إحدى النوافير العامة. لهذا يجلس بين حين وآخر في شرفة روزفيتا ويطلب قهوة، لا لشيء إلا ليشارك في هذه الأجواء المُدعاة، ولكي ينشر الفوضى فيها. تحسس دفتر ملاحظاته في جيبه، لكنه تذكر أنه بين أشيائه على الدكة. لم يجد سوى القلم الرصاص في جيب الصدر، وتذكرة باص لمسافة قصيرة. بسرعة كتب عليها:

ما المكان الجميل الذي لا تستطيع دخوله؟ وهل تريد تغيير ذلك؟

عندما أعاد القلم الرصاص إلى مكانه، لفتت انتباهه قبعة رمادية من الجوخ، كانت معلقة على لافتة «ممنوع قيادة السيارات» أمام المتنزه. لا بد أن أحدًا فقدها. لأن البوابة كانت موصدة، أخذ هنري يبحث عن غصن طويل. تحت شجرة الكستناء وجد ضالته. احتاج إلى عدة محاولات إلى أن نجح في اصطياد القبعة ناحيته.

غمغم قائلًا:

- قبعة جميلة.

أخذ يديرها بين يديه:

- لا شيء فيها زائد عن الحاجة.

على الدكة خلفه سمع خشخشة ورق النوجة. استدار ورأى لوكاس النحيل يمضغ بعينين مغمضتين، وقريبًا جدًّا من أذنه كان يحرك الورق بين أصابعه إلى الأمام وإلى الخلف. ابتسم هنري. عندما استدار ثانية، لاحظ في الميدان رجلين لم يرهما من قبل في المدينة. أحدهما متقدم في العمر، بشعر رمادي مصفف إلى الوراء، والآخر شاب بشعر مجعد داكن. كانا يرتديان ملابس أنيقة على نحو لافت، كأنهما ضلَّا طريقهما في استراحة الأوبرا، ولم يستطيعا العودة إليها ثانية. كان الأكبر سنًّا يدور والهاتف في يده، ثم يسير بضع خطوات، ويستدير مرة أخرى، ويسير بضع خطوات في الناحية الأخرى، ثم يظل واقفًا ويشد في شعره. سمعه هنري يصيح:

- «Porca miseria, Tommaso. Non ha senso. Non lo troveremo mai. Mai!»(*).

وضع هنري القبعة على رأسه، واقترب من البوابة حتى يُبقي كليهما على نحو أفضل في مجال بصره. فجأة توقف الأصغر سنًّا - الذي كان من الواضح أنه يُدعى «توماسو»، والذي كان يدور في مكانه ببطء بالغ، كأنه يأمل أن يرى في النوافذ المحيطة به وجهًا مألوفًا - وصاح:

- «Guardi, maestro, guardi! Vede quel che vedo io?»(**).

لم يكن هناك مجال للشك، أشار الشاب مباشرة إلى هنري، ثم أخذ يسير

(*) يا للبؤس، يا توماسو. لا فائدة. لن نجدها أبدًا. أبدًا! (المترجم).

(**) انظر يا معلم، انظر! هل ترى ما أرى؟ (المترجم).

بخطى سريعة في اتجاهه. بوغت هنري، فلم يتحرك من مكانه. كلا الرجلين الآن يركضان. وابتسم كلاهما، وكلما اقتربا منه، زادت بهجة التوقع لديهما. نظر هنري خلفه، لكنه لم يرَ سوى لوكاس النحيل الذي كان قد وقف على أطراف أصابعه فوق الدكة. لا يمكن أن يكون كلاهما يريد أن يقابله، سيدان أنيقان هكذا، لا بد أنه خطأ، لا بد أنه التباس.

مارين

ثمة خطأ ما. أنزلت مارين شباك السيارة، وحاولت أن تسترق نظرة على بهو الفندق، لكن الزجاج كان عاكسًا إلى درجة كبيرة جدًا. حتى الآن قضى ياريس بالداخل طيلة ثلاث أغانٍ شعبية فظيعة، تاركًا إياها تنتظر. أدارت مارين المفتاح وأوقفت المحرك تمامًا قبل أن تهبط. الهواء أبرد مما توقعت. تأخر الوقت، توقفا في المرور المزدحم ما يزيد على ساعتين قبل باريس، كان ذلك انتقامًا من الاستراحة الطويلة التي أخذاها في مطعم على الطريق. جلست مارين على غطاء المحرك، وأشعلت سيجارة. في قناة سان مارتان انعكست سلسلة من أضواء المقاهي والمطاعم المجاورة، على كلتا الضفتين كانت شرفات المقاهي مكتظة بالناس. ألقت مارين نظرة باحثة في الأفق، لكنها لم ترَ برج إيفل في أي مكان. لقد مضت فترة طويلة كالأبد منذ أن كانت آخر مرة في باريس. كانت في مطلع العشرينيات، وفي وسط الدراسة، سافرت مع إيلي، وسكنت معها في غرفة تحت السقف الهرمي، بلا مرحاض أو حوض، في الدائرة الثامنة عشرة. إيلي المجنونة - التي أنجبت في تلك الأثناء ثلاثة أطفال - المندفعة المتحمسة حماسًا أهوج، إحدى أولئك الفتيات البدينات القصيرات اللائي كانت كلتاهما تسخران منهن. قضتا هناك ليلتين، إحداهما من دون نوم، في نادٍ تحت الأرض للمثليين، في مكان ما بالقرب من الباستيل؛ قاعة ضخمة يرقص فيها رجال في أقفاص بسراويل «سترينج تانجا» الداخلية المثيرة، وكانت الموسيقى صاخبة إلى

حد أن المرء لم يكن يسمع الكلمات بل يقرأها على الشفاه فحسب. رقصتا واحتستا فودكا بعصير التوت البري، عانقت إيلي أحد الرجال وتبادلت معه القُبل، ثم ادعت بعدها أن ذلك لا يمكن تسميته «خيانة» إذا كان الرجل مثليًّا. في اليوم التالي رافقت إيلي في حفلة أقيمت في جاليري أحد المصورين الفنيين، فودكا مرة ثانية، ومرة ثانية موسيقى صاخبة، ومرة ثانية التفرج على إيلي وهي تتبادل القبلات. آنذاك قالت لها إيلي:

- عليكِ أنتِ أن تبادري. أن تختاري، بدلًا من أن يختارك أحد.

دهست مارين السيجارة. لم تعد لديها رغبة في انتظار باريس. كانت لديها رغبة في الجلوس معه في مقهى «Café aux Prunes» على الناصية، واحتساء مشروب معه، «باستيس» أو نبيذ أبيض، مع بعض الجبن أو المحار، بالضبط، محار، وسيجارة يلفها باريس بيده. وكانت لديها رغبة في تبادل القبل، وفي عض باريس في رقبته، وفي بطنه، وفي شفتيه، وفي...

- أخشى أننا لن نحصل على شيء.

وقف باريس بجانبها، وفي يده مفتاح غرفة. من الواضح أنهم هنا لم ينتقلوا إلى استخدام البطاقات البلاستيكية عديمة الشخصية. كان على المفتاح رقم ٣٢٤. قال باريس:

- آسف فعلًا، لكنهم لا يقبلون أي تبرير. كل الغرف محجوزة، والتعليمات تمنع أن ينام اثنان في غرفة مفردة، لقد حاولت كل شيء.

حاولت مارين إشعال سيجارة أخرى. انطفأ عود كبريت بعد الآخر قبل أن تشتعل السيجارة. من غضبها عضت الفلتر.

قال باريس:

- أنا أيضًا كنت أتشوق إلى ذلك.

مر بسبابته على طول عضدها، ثم أضاف:

- وليس معنى ذلك أننا لن نتسلى على الرغم من ذلك.

دست مارين السيجارة في العلبة مرة أخرى، ثم سألته:

- وأين سأنام بعدما نتسلى.

مد باريس يده بورقة قائلًا:

- كتبوا لي اسم نُزل ما زالت فيه غرف شاغرة، قريب من هنا جدًّا. الوضع صعب الآن على الأرجح، فالمدينة مكتظة. هيا، اركبي، سأوصلك إلى هناك.

وفتح لها باب المقعد المجاور للسائق.

- وماذا أفعل هناك؟ ليس معي حقائب. دعنا نبدأ بالتسلية الآن. دعنا نشرب شيئًا. هناك، في الأمام، مقهى يبدو لطيفًا. لديهم محار، لقد مرت سنوات منذ أن أكلت محارًا آخر مرة.

نزع باريس بعض شعيرات صدره التي برزت من فتحة القميص، وقال:

- أود أن أفعل ذلك، فعلًا، لكن أحد عازفي الفلوت العرضي قد مرض، وعلينا لذلك أن نتمرن على حفل الغد كله مرة أخرى مع العازف البديل. وأخشى أنني لن أنتهي قبل منتصف الليل.

صفقت مارين باب السيارة، وتناولت الورقة بالعنوان من يده، ثم قالت:

- إذن، حتى منتصف الليل.

وتركته واقفًا. «عازف الفلوت العرضي»، غير معقول، جبان بائس.

جلست في المقهى إلى المائدة الشاغرة الوحيدة، عاقدة العزم على أن تشعر بنفسها كفرنسية. لوح المائدة الصغيرة كان لزجًا من مشروبات السابقين، تنازعت ذبابتان حول الفريسة اللزجة. طلبت مارين ثماني قطع من المحار الكبير ونصف لتر من النبيذ الأبيض. رشت عصير الليمون فوق المحار، محارة تلو الأخرى، ارتعشت محارتان عندما لمسهما الحامض. من دون أن تعلم مارين السبب، انتابها شعور خفيف بالجرأة وهي تبتلع كائنًا حيًّا، كأنها حيوان مفترس. حسب معلوماتها فإن المحار هو الكائنات الحية الوحيدة التي يلتهمها الإنسان عمدًا حية. فكرت مارين في أفعى البيثون الضخمة. وسمكة القرش. العقاب. النمر. التمساح.

دهنت قطعة من خبز «الباجيت» بسخاء بالزبدة المملحة، ونثرت عصير الليمون على آخر محارة، ولاحظت أن اللحم الشفاف تقريبًا قد ارتعد، ثم شفطت الكتلة ذات طعم مياه البحر من القوقعة. نظرت إلى الطبق الفارغ نظرة راضية ولاحظت أن ضروسها تسحق بعض حبات الرمل. حركت ضروسها فوق حبات الرمل عدة مرات قبل أن تبتلعها مع جرعة من النبيذ الأبيض.

غرفة نُزل «المدينة» كانت صغيرة جدًّا، حتى إن الباب المكسو بقشرة الخشب اصطدم خلال فتحه بالخزانة المكسوة بقشرة الخشب. كان الموكيت الأصفر الباهت مليئًا بالبقع الغامقة، التهم العفن الأسود شريطَ السيلكون اللاصق في الدش، وفي رشاشة الدش المكسوة بقشرة الخشب حفر أحدهم:

we've fucked here

فاحت رائحة دخان السجائر البارد وعفونة الأحذية الرياضية. بكوعها غطت مارين أنفها، ثم أزاحت الستارة المصنوعة من البوليستر بجوار السرير، وحاولت فتح الشباك، لكنها لم تستطع. تحت وحدات التدفئة اكتشفت هوَّاية، لكنها لا تُدخل الهواء. لم يحدث شيء، أيًا كان الاتجاه الذي حركت فيه الذراع الصغيرة. في المصعد الضئيل المكسو بقشرة الخشب هبطت ثمانية طوابق مرة أخرى حتى الاستقبال. قال لها موظف الاستقبال – فتى شاحب لم يكد يبلغ العشرين، على شفته العليا زغب، يرتدي بلوفرًا أبيض برقبة – إن الهوَّاية لا تعمل للأسف، وإن الشبابيك لا يمكن فتحها. وأضاف بالفرنسية والإنجليزية:

– لأسباب أمنية.

ردت مارين بالإنجليزية:

– والأكسجين؟ عدم حصول الدماغ على الأكسجين بشكل كافٍ يمثل خطرًا عليه. هل تعرف ذلك؟

رفع الفتى كتفيه، عارضًا كفيه الفارغتين لمارين، ثم كرر أنه يشعر بالأسف، الأسف البالغ فعلًا، ولأن أسفه بدا غير مصطنع، أومأت مارين في النهاية وتركته في سلام. لقد أدركت أنه لا يستطيع مساعدتها.

سارت إلى الشارع، سارت بسرعة وبرأس منكس، إلى أن أبصرت القناة أخيرًا بعد أربع حارات، فشعرت بأنها تتنفس ثانية. أشعلت سيجارة وتأملت ثنائيًا يتبادل القُبل على الجسر أمامها. كانت أقصر بكثير منه، فوقفت على أطراف أصابعها، أما هو فلم يكد ينحني. أغلقت عينيها، في حين فتح هو عينيه على اتساعهما، وبلا اكتراث نظر إلى المياه. بحثت مارين في حقيبتها عن التلفون، وحاولت الاتصال بباريس. «الرجاء ترك رسالة» طبعًا، وماذا تتوقع غير ذلك؟ الساعة في شاشة الهاتف تشير إلى ما بعد الحادية عشرة بقليل. راجعت قائمة الاتصالات السابقة واتصلت برقم هانيس. «الرجاء ترك رسالة». نذل. فتحت متصفح الإنترنت وبحثت عن «المرأة على السطح». في أخبار صحيفة «تالباخر بوتن» قرأت:

> استراتيجية جديدة. على الجوع والعطش أن يحركا قاذفة القرميد عن السطح.

مر على الخبر سبع وعشرون دقيقة. لم ينتهِ الأمر بعدُ إذن، ولم تستسلم المرأة بعد. قالت مارين لنفسها: إذا رقد هانيس الآن في السرير بالبيت، فسيسمع خطوات المرأة على السطح، وربما يسمع تهشم القرميد وصفارات الإنذار. وسيتصل بمارين ليخبرها بما حدث. إذن، بالتأكيد لا يرقد هانيس في السرير بالبيت. وبدرجة كبيرة مماثلة من التأكيد لم يكن باريس في البروفات. حركت مارين قائمة الأخبار إلى أسفل. قرأت عنوانًا لدى محطة «RTL»:

> المجنونة على السطح

> وكتبت صحيفة «بيلد»:

> قاذفة القرميد المجنونة تُدخل الخوف والرعب في قلوب الجيران

أعادت مارين الهاتف ثانية إلى حقيبتها. لو كانت مكانها، لما سمحت لهم بكل ذلك. فكرت في ثعبان البيثون. البير. النسر. التمساح.

لم يمر وقت طويل حتى وجدت فندق ياريس ثانية. فاحت رائحة طيبة في بهو الفندق، رائحة القهوة والنعناع. أومأت موظفة الاستقبال لها بلطف. مرت مارين بها في طريقها إلى المصاعد. «٣٢٤» كان الرقم المكتوب على مفتاح الغرفة ذهبي اللون، لا بد أنه إذن في الطابق الثالث. عندما ضغطت على زر المصعد، سمعت أزيزًا من حقيبتها، وظهرت لها رسالة من ياريس على الشاشة:

لا بد أن أذهب إلى الفراش، آسف، غدًا الإفطار عندي في الفندق؟

أزاحت مارين الرسالة. فردت شعرها أمام مرآة المصعد، ووضعت مسحوقًا أحمر على خديها، وعدلت من وضع بلوزتها. في الجيب الداخلي في حقيبة يدها وجدت لبانًا كانت قد وضعته فترة قصيرة في فمها ثم أخرجته ولفته في إيصال قديم عندما تعطل المصعد. في الممر شعرت بالراحة عندما اكتشفت أن أبواب الغرف من الطراز القديم، مزودة بمقابض بسيطة. إذا حالفها الحظ، فبإمكانها أن تدخل الغرفة ببساطة. مع أن أرضية الممر كانت مكسوة ببساط أحمر، فقد سارت على أطراف أصابعها، وشعرت بخفقات قلبها تصل حتى صدغيها، وشعرت كذلك بمزيج حاد من الخوف والغضب في بطنها. بحذر وضعت الأذن اليسرى على الباب الذي يحمل الرقم ٣٢٤. لم تسمع شيئًا. بلى، هناك، خطوات، سائل يملأ كأسًا، ثم صليل حلقات الستارة، وخشخشة غطاء السرير، أصوات الذهاب إلى الفراش. ارتعشت يد مارين عندما مدت أصابعها إلى المقبض. هنيهةً رأت المرأة على السطح أمامها، بعضلاتها المتوترة، وكيف وقفت في بديهية على الجمالون بساقين متباعدتين، معبرةً عن سخطها. ما تستطيعه هذه المرأة، تستطيعه هي أيضًا. بضغطة واحدة فتحت مارين الباب ودخلت

الغرفة المظلمة على نحو غير متوقع، لم يكن مضاء سوى المصباح على منضدة السرير. لحظةً لم تتعرف مارين على شيء تقريبًا، ثم رأت ياريس في سرواله الجينز يجلس على حافة السرير، لكن نصفه الأعلى عارٍ، وفي يده كأس نبيذ. قالت:

- كنت متأكدة من أني سأجدك هنا.

اقتربت ببطء من السرير، وفي الطريق إليه وضعت حقيبتها على الكرسي المبطن بجانب باب الحمَّام. أمسكت بنهاية بلوزتها وسحبتها إلى أعلى فوق الرأس، ثم تركتها تهوي على الأرض. كوبرا، هكذا قالت لنفسها. بير. على مبعدة ذراع توقفت أمام ياريس، وقالت:

- كنت تريد أن تعد النمش على بشرتي. لقد أحضرته كله معي.

لم يتحرك ياريس قيد أنملة. قال:

- ألم تستلمي رسالتي؟

- «الذهاب مبكرًا إلى الفراش شيء لا يفعله إلا الذين يفتقدون الظرف وخفة الدم». كلماتك.

انزلق ياريس على حافة الفراش متجهًا إلى الخلف. كان يشعر حقًّا بالخوف منها. اختفت الجرأة المتفوقة من نظرته، وتشنجت بعصبية يداه الجميلتان اللتان طافتا العالم، الأولى تشبثت بحافة المرتبة، والثانية بالكأس. تناولت مارين النبيذ من يده، وأفرغت الكأس بجرعة واحدة، ثم وضعتها بحرص على المنضدة.

همس ياريس:

- يجب أن تذهبي، من فضلك.

أدركت مارين منذ فترة ما يحدث، منذ أن سمعت خرير مياه الدش في الحمَّام، وصوت اصطدام أحد بجدران كابينة الدش، وسيفون المرحاض، المسألة مسألة ثوانٍ فحسب. قالت:

- ألم تعد تعرف؟ كنت تريد أن تدس أنفك بين ثديَي، وتستنشق الأريج

في أنفك، وتحديدًا في المكان الذي يتلامس فيه الثديان، تستنشق بنهم، مثل الكوكايين من سطح زجاجي، هل ما زلت تتذكر همسك بهذا في أذني؟

انحنت مارين فوقه قائلة:

- اليوم هو يوم سعدك.

ثم أمسكت بشعر قفاه، وضغطت وجهه بكل قوتها تجاه صدرها.

أمسك باريس ببطنها بكلتا يديه، وقال لاهثًا:

- كفي عن ذلك! ماذا تفعلين؟ دعيني.

حاول التملص منها، والنهوض، ولكن دون جدوى.

بصوت خافت قالت في أذنه:

- إلى أي حد تعتبرني غبية؟ إلى أي حد؟

وضغطت عليه أكثر، لم تعد كلمات باريس مفهومة، شعرت بأنفاسه بين ثدييها. وسمعا مَن ينادي بالفرنسية:

- عزيزي!

أخيرًا. أدارت مارين رأسها من دون أن تخفف قبضتها على باريس. في باب الحمَّام المفتوح وقفت امرأة في ريعان الشباب، لم تبلغ الخامسة والعشرين بعد، تلتف بمنشفة صغيرة جدًّا تغطي بالكاد ثدييها وعورتها. بعينين متسعتين على آخرهما وقفت هناك، ضامةً ساقيها النحيلتين، من دون أن تتقدم خطوة واحدة، كأن نقمتها قد سقطت مثل حطام أمام قدميها.

- «شيري» سيكون جاهزًا حالًا.

قالت مارين الجملة، ثم شدت شعر قفا باريس، وبكلتا يديها سحبت وجهه الأحمر تجاهها، وطبعت قبلة على فمه، قبلة مُرة، قاسية. عندما حررته، لهث باريس بحثًا عن الهواء.

قالت:

- إياك أن تجيء مرة أخرى إليَّ. إياك!

ثم عدلت من وضع مشد الصدر.

لم ينطق باريس أو المرأة الشابة بكلمة، عندما رفعت مارين بلوزتها من الأرض، وتناولت حقيبة يدها من الكرسي بجانب الحمَّام. لم يسمع أحد شيئًا سوى صوت قطرات المياه التي تساقطت من شعر الشابة على الأرضية الخشبية. وخطوات مارين المتئدة تجاه الباب، وصرير سحَّاب حقيبة يدها.

*

يصبح جسدها أثناء السقوط صغيرًا، أصغر فأصغر، يضغطه الهواء، يضغطه حتى لا يكون سوى خفقان في الصدر، تسقط بعد أن تصبح في حجم القلب، في حجم القبضة، مارةً بالنوافذ السفلية، من دون أن تُصدر أي صوت، أي صوت.

*

اليوم الثاني

فيلكس

انتشر الضياء في السماء فوق أسطح المنازل. واكتسبت الأشجار والواجهات لونًا من جديد، وأسرعت أوائل طيور السمامة تطير إلى النهار. كانت عينا فيلكس جافتين، ورياح قوية تهب في وجهه. كان يجلس على آخر درجة من السلم، ساندًا ذراعيه على حافة السطح. لفت مانويلا كونه ذراعها اليمنى حول المدخنة. شرفة روزفيتا خالية، والتندة مطوية، والستائر تغطي معظم النوافذ. يحب في الحقيقة هذا الوقت من اليوم، عندما ينقشع الليل رويدًا رويدًا. كان ذلك الوقت الذي لا تحدث فيه في المعتاد إلا أقل المشكلات، أقل عدد من الجرائم يحدث قرابة الخامسة فجرًا، معظم الناس ما زالوا نائمين، ويتصرفون بلا هدف محدد خلال تغير الضوء قبل أن يولد يوم جديد. أكسب الهدوء فيلكس راحة. آخر صفارة إنذار انطلقت قبل دقيقتين، ولن تتبعها صفارة أخرى إلا بعد نحو عشرين دقيقة. اندفعت في رأسه صور ما حدث عصر الأمس واختلطت؛ غطاء سرير روزفيتا المزين بالزهور، الغبار في العُلِّية، سلسلة إيجي المعلق فيها ديناصور، جسده الميت على الأحجار المغطاة بالطحالب أمام بيت التوت البري، ونظرة بلازر المحتقرة. مرت ما يزيد على خمس عشرة ساعة على ذلك كله، وعلى الرغم من ذلك فقد بدا له كأن يومًا جديدًا لم يبدأ قَطُّ. نام إلى ما بعد العاشرة بقليل، بعمق وبلا أحلام، وبعدها استيقظ فزِعًا، ولم يعلم أين هو. وضع رأسه المتألم تحت الماء البارد، وشرب عند روزفيتا «دَبل إسبريسو» على البار، وعاد نحو الحادية عشرة لكي

يحل محل إستر وبلازر اللذين أخذا مكانه. سلوكه ستكون له عواقب، هكذا قال بلازر، عليه أن يستعد لذلك. لو كان الرأي رأيه، فسيعمل لشهرين في المرور، في قسم ورش العمل، على الأقل. أو الأفضل: العمل في الأرشيف. شعر فيلكس بالامتنان تجاه المرأة على السطح لأنها منذ ساعات لم تفعل ما يجعله يقوم بشيء. وحتى إذا شعر بالخجل من ذلك، فإنه كان يأمل سرًّا في أن تبدي بعض الجَلَد ولا تغادر السطح بعد. إذ سيتحتم عليه، عندما تنتهي العملية، أن يذهب إلى البيت ويحكي لمونيك كل شيء. ما دام واقفًا هنا في الطابق العلوي، وما دامت مونيك لا تعلم شيئًا عن إيجي والغبار وبيت التوت البري، فسيظل كل شيء على ما هو عليه. كانت كارولا، الجالسة بجانب باب العُلِّية على صندوق خشبي مقلوب، مستغرقة في النوم، ساندة رأسها على إطار الباب. وافقه الأمر، هكذا لم يكن عليه أن ينادي مانويلا، ولا أن يتظاهر بأنه يريد أن يورطها في حديث، فالجميع يعلم أن لا فائدة تُرجى من ذلك. قال فيلكس لنفسه إن حالتها تشبه حالته على الأرجح. إنها تخشى ما سيحدث بعد ذلك، وتأمل في أن تصمد فترة. حاول فيلكس أن يرخي عضلاته، وحرك فكه يمينًا ويسارًا، وهز يديه. كان يزفر الهواء ضعف المدة التي يستغرقها شهيقه. لكن ذلك لم يجدِ نفعًا. كان يشعر بضيق حول بطنه، كأن أحدًا يحاول سحبه إلى الوراء بحبل، وهو يقاوم ذلك بكل جهده. قال فيلكس لنفسه: كل من إيجي ومونيك يسحب الحبل، وأنا لا أريد الالتفات ناحيتهما، لا أريد. تأمل سحابة بدت أولًا مثل رأس بطة، ثم تشكلت ببطء لتتحول إلى ما يشبه السفينة، ثم تعود فوق المدخنة – التي تشبثت المرأة بها – إلى كونها سحابة لا غير. فكر فيلكس في أن المرأة ابنة أم وأب، فلماذا لا يقفان هنا بالأعلى كي يحميا ابنتهما؟ بلع فيلكس ريقه، فمه جاف، فشرب قليلًا من عصير البرتقال من الزجاجة في جيب سترته. ألم يجب على المرأة أن تتبول قَطُّ؟ تذكر الحوض بالأمس، وشعر بخديه يحمران خجلًا. ربما، قال لنفسه، لم يكن والدا المرأة في البلاد. ربما يعيشان في أمريكا أو آسيا

أو على إحدى الجزر اليونانية. حاول فيلكس أن يستدعي إلى ذاكرته شاطئ جزيرة سانتوريني التي زارها طفلًا مع والديه، مرة واحدة: الرمل ذو اللون البني الفاتح، القطع الضئيلة من المحارات المكسورة، الشعاب الصخرية، بعيدًا عن الشاطئ، في نهاية الخليج. في تلك اللحظة نهضت مانويلا كونه والتفتت إليه. اقتربت منه عدة خطوات وقد شبكت ذراعيها أمام صدرها. اختفى الشاطئ. لم يجرؤ فيلكس على الحركة، ليس بعد. إذا واصلت السير عدة خطوات، فسيكون بمقدوره أن يمسك بقدميها أو ذراعها، وأن يأتي بها إلى مكان آمن، أخيرًا. غطت تورماتٌ دامية ركبتيها، والخدوش كوعيها، السروال الأخضر ذو الحمالات اكتسى لونًا بنيًا أحمر من غبار القرميد، حتى شعرها الأشقر تلون في بعض الأماكن بلون القرميد البني المحمر. توقفت مانويلا كونه. لم تنظر إلى فيلكس. أدارت رأسها قليلًا إلى الوراء فوق الكتفين، كأنها سمعت شيئًا، ثم استدارت ببطء وعادت تسير في اتجاه حافة السطح، متمهلة كانت تضع قدمًا أمام الأخرى كأنها تتمشى على طريق بين الحقول. واصلت السير ببساطة عند حافة السطح. لا تردد، لا تمهل، لا نظرة إلى أسفل. لا وقت لفيلكس حتى يقول لها شيئًا، أو أن يدرك جدية الموقف. ببساطة سارت إلى الهاوية. مثلما وضعت قدمها قبل قليل على القرميد، وضعتها الآن في الفراغ. لم يتحرك فيلكس بعد. يده المتأهبة ما زالت على القرميد، وقد تكورت إلى قبضة، لم تصدر كلمة من فمه، ولا صوت.

فيما بعد لم يستطع أن يقول ما المدة التي استغرقها حتى أدار رأسه ناحية كارولا التي كانت لا تزال نائمة بجانب الباب، وحتى فتح قبضته ولاحظ أنه حبس أنفاسه.

تيريز

في مطلع اليوم اكتست السماء بالحُمرة والغيوم. استيقظت تيريز مبكرًا عن المعتاد، شيء ما أيقظها، قلق ما، دغدغة خلف القفص الصدري، وتنميل في عضلة الساق. فترة طويلة قبل أن تنطفئ أعمدة الإنارة في الشارع كانت تجلس على الدكة الخشبية أمام الدكان، وفي يدها فنجان من القهوة، وعلى حجرها علبة من بيض المفاجآت وسكين قطع. كانت قد رفعت الغطاء عن الخضراوات في الظلام، وكتبت الأسعار على البضائع، وانتقت الفاكهة العفنة لترميها. مرت تيريز بإصبعها على الجزء اللاصق في العلبة الكرتونية. لقد باعا بالأمس كل بيض المفاجآت تقريبًا. وجدت نفسها تفكر في الأطفال الكثيرين الذين منعتهم عبر السنين من الحصول على الأشكال البلاستيكية الصغيرة، وشعرت بقليل من الخجل. مدت يدها إلى جيب المئزرة حيث كانت العروض المطبوعة للفنادق في نيويورك. سيكون فرنر في حاجة إلى تسرية عن النفس عصر اليوم، فبالتأكيد سيغيب الزبائن اليوم مجددًا. لقد تناولت الصحف والتلفزيون موضوع نونو بإسهاب وتفصيل، ربما مر هذا الشخص أو ذاك لكي يلقي نظرة عليها، وحتى يستطيع القول: «كنتُ هناك». لكنها لا تكاد تتوقع هجومًا كاسحًا مثل الأمس. حملت تيريز الدكة بعيدًا عن الناصية قليلًا حتى تستطيع رؤية المنزل ومانو على السطح. تستند المسكينة على المدخنة وهي في غاية الإنهاك، وكل عدة ثوانٍ يمر الضوء الأزرق بوجهها وبواجهة المنزل. لا يمكن أن يستغرق الأمر طويلًا إلى أن

تستسلم. عندما تدوي الصفارات، تدفن رأسها بين ركبتيها إلى أن يتلاشى الضجيج. حول المدخنة كان السطح عاريًا في بعض المواضع، ثغرات منبعجة تكونت، وسمحت برؤية مادة العازل الصفراء والغطاء البلاستيكي. بالأسفل، في الميدان، نام شابان، وقد استند كل منهما على الآخر على كرسيه القابل للطي. تساءلت تيريز: قريبان، صديقان؟ مَن سيقضي ليلته هناك إذا كانت هي على السطح؟ فرنر، بالتأكيد. ربما روزفيتا. ومَن غيرهما؟ هزت تيريز رأسها وأبعدت الفكرة. بدأت تقص الشريط اللاصق في العلبة الكرتونية. أخرجت البيض من الكرتونة واحدة بعد أخرى، ووضعتها على الميزان الصغير الذي تستخدمه في المطبخ، ثم هزتها، وأنصتت، وحسمت رأيها في النهاية على خمس بيضات، ثم أعادت البقية إلى العلبة. تناولت جرعة كبيرة من القهوة. لديها وقت. باعتناء فكت غلاف البيضة الأولى، ووجدت بداخلها فعلًا شكلًا من أشكال «هابو»، القرصان الثاني. عندما تناولت البيضة الثانية في يدها، تحرك شيء في زاوية عينها. لقد نهضت نونو. رفعت تيريز رأسها. سارت نونو في اتجاه شباك السقف، حيث كان يمكن رؤية رأس أحد رجال الشرطة. بعد عدة خطوات توقفت واستدارت ثانية. بخطوات بطيئة وركبتين مقوستين سارت على السطح المائل، مقتربة من الحافة، ونظرها إلى الأمام، ثم وضعت قدمًا على حافة السطح، والأخرى في الهواء، فسقطت، وقدماها في الأمام، وقد لصقت ذراعيها بجسدها، وخلال السقوط انقلبت على ظهرها، لم تُصدر أي صوت خلال ذلك، في سكون وصمت هبطت من السطح، من دون أن يلاحظ أحد في الميدان سقوطها. انكسرت بيضة المفاجآت في يد تيريز عندما هوت نونو، ألقت تيريز نظرة على البيضة المنبعجة في قبضتها، ثم نظرت مجددًا إلى الميدان حيث اهتزت أطراف الوسادة الهوائية، لم تعد نونو تُرى الآن. انتفض الشابان الجالسان على الكرسيين، واحتاجا إلى لحظة حتى أدركا ما حدث. صاح أحدهما:

- مانو، مانو، مانو!

ركض إلى الوسادة الهوائية، لكن رجال الإطفاء منعوه من التقدم. تعرفت تيريز عليه من زي سائقي الدراجات الذي يرتديه، إنه الشاب الذي هاج وماج بالأمس في الدكان. بالطبع، هكذا فكرت تيريز، اسمها «مانويلا»، «مانويلا كونه». رفعها ثلاثة من رجال الإطفاء من الوسادة وحملوها على محفة الإسعاف، ما زالت تحيا، بلا قوة قاومت بقدميها، وتركت آثارًا ذات لون بني أحمر على سترات الرجال الصفراء. غمغمت تيريز:

- لحسن الحظ، لحسن الحظ، لحسن الحظ.

ارتعشت يدها عندما أعادت بيضة المفاجآت المهروسة إلى العلبة الكرتونية.

لم تعد لديها رغبة في فتح بقية البيض. سحبت نصل سكين القطع إلى أسفل ليعود إلى الجزء البلاستيكي، ثم شدت ذراع الأمان. رفعت عندئذٍ الدكة الخشبية وحملتها، وعليها البيض والميزان الصغير وفنجان القهوة، وأعادتها إلى الناصية أمام الدكان. بقيت جالسة هناك ما يزيد على الساعة، ترتشف القهوة، وتنهض بين الحين والآخر لتقلب تفاحة معروضة، أو تهش عصفورًا أو حمامة. حرف الـ«o» في «Grocery» كان يومض بشكل متقطع. «o-o»، هكذا، «o-o-o».

نحو الثامنة سمعت خطوات فرنر في الطابق العلوي. لقد نهض فعلًا، هكذا قالت لنفسها، وسيواصل عمله. أعدت إبريقًا آخر من القهوة وهي تصفر، ثم شرعت في ملء الثلاجة بالشاي المثلج والكولا وشراب اللبن الزبادي. أخذت تطوي الكراتين، وعدلت من وضع المعلبات على الأرفف بحيث يكون اسم الماركة في الأمام، ومسحت بمنشفة مبللة طاولة البيع والأرضية، وبقلب ثقيل وضعت بيض المفاجآت غير المفتوح في رف العرض. قرابة التاسعة تذكرت أن فرنر لم ينزل بعد. هل يحلق ذقنه، أم عاد إلى فراشه؟ قفلت تيريز الخزنة بالمفتاح الصغير وصعدت إلى الطابق العلوي. كان فرنر

يجلس على الكرسي المبطن، المخطط بالأزرق، عند شباك غرفة المعيشة، معطيًا ظهره لها. قالت تيريز:

- أيها الكسول! أحتاج إلى مساعدة في ترتيب الأشياء في المحل.

لم يُصدر فرنر أي رد فعل. لقد غفا على الأرجح ثانية، إنه يحب أن يغفو على هذا الكرسي. اقتربت تيريز منه، ورأت قدميه أولًا، ولاحظت أنه ارتدى فردة حذاء، وعقد الرباط عقدة صحيحة، أما الفردة الأخرى فما زالت على الأرض، وبداخلها القالب. قالت وهي تسير حول الكرسي:

- انتظر، سأساعدك.

تراجعت مرعوبة. كان فرنر ينظر بعينين مفتوحتين على اتساعهما من النافذة، يداه على مسندي الكرسي، وقد ربط مئزرة الدكان حول خصره، وعلى شفتيه ابتسامة، كأن خاطرة خطرت على باله للتو. لم ترمش عيناه، ولم يتحرك من مكانه. فهمت تيريز على الفور. تناولت طرف مئزرتها وضغطت القماش على فمها، وأمام عينيها، ومسحت به وجهها. قالت كأنها تتحدث مع المئزرة:

- فرنر، فرنر.

انحنت فوقه، وأغلقت جفنيه، وقبلته على صدغيه وعلى أنفه الذي لوحته الشمس، وعلى زاوية فمه، هناك حيث كانت شفتاه تبتسمان كثيرًا.

«فرنر»، قالت مكررة مرة بعد أخرى، «فرنر». لم تكن ثمة كلمة أخرى، لا على فمها، ولا في هذه الغرفة، ولا في العالم.



فيلكس

عندما وصل مع كارولا إلى الميدان، كان رجال الإسعاف على وشك دفع المرأة على المحفة إلى عربة الإسعاف. هل قفزت بالمصادفة أم عمدًا على الوسادة؟ أكانت لا تزال تعرف أين تقع الوسادة؟ قال فيلكس لنفسه: الأمل ألا تكون قد حاولت حقًّا أن تسقط في الشارع. تراخى الحبل حول بطنه قليلًا. انطلقت طيور السمامة تطير بمحاذاة جدار المنزل وهي تصيح، كأنها تحاول تقليد قفزة المرأة. خلا الميدان من الناس تقريبًا. بجانب أفراد الإنقاذ كان يقف الشاب في زي سائقي الدراجات مع صديق ناعس يفرك عينيه، أحد مراسلي «RTL» كان أيضًا هناك، وحول عنقه وسادة مثل حدوة الحصان، سار مضطربًا في الميدان وحاول أن يجد أفضل مكان للبث الحي. كان المصور يهم بتشغيل أدواته، أي أن من المستحيل أن يكون قد صوَّر القفزة. شعر بموجة صغيرة من الشماتة تجتاح باطنه، على الأقل هذا، على الأقل قفزت في غفلة من الجميع. وحدها الكراسي المطوية والنفايات المتناثرة كانت تذكِّر بالحشد الذي تجمع في الميدان خلال العشرين ساعة الماضية. ساقت الرياح أمامها دوامة من النفايات البلاستيكية عبر أحجار الشارع، وكومتها في مستوى الركبة، ثم فرقتها من جديد. في نهاية الحارة رأى فيلكس سيارة بلازر تقترب بالضوء الأزرق. سرت رعدة في بدنه، وتشنج بطنه ثانية.

- ماذا سيحدث لها الآن؟

وجد الشابَّ في زي سائقي الدراجات يقف فجأة بجانبه، شاحبًا، بعينين محمرتين. عرَّف بنفسه قائلًا:

- فِن هولتسر. لقد كنتَ بالأمس هناك عندما صعدتُ إلى السطح، أعني عندما حاولنا، مانو...

بحركة من يده مسح الكلمات المزعجة له، وقال بدلًا من ذلك:

- هل أستطيع مرافقتها؟ هل أستطيع أن أركب معها؟

وأشار إلى السيارة حيث كانوا يسعفون مانويلا كونه. ما زال الباب مفتوحًا. لمع باطن قدميها بلون بني محمر فوق الملاءة الكتانية البيضاء.

هز فيلكس رأسه قائلًا:

- يؤسفني أن أقول لك إن عليك الصبر. حسب معلوماتي فإنها ستذهب في البداية إلى مؤسسة للعلاج النفسي. وقبل أن يتضح كيف حدث ما حدث، لن يُسمح لأحد بزيارتها.

لمعت عينا الشاب، وقال:

- لقد حبسها أحدهم في الشرفة، ليس هذا ذنب مانو.

قطب فيلكس جبينه. كان يسمع ذلك للمرة الأولى.

أشار الشاب على بلازر الذي هبط من سيارته، وسار في اتجاه كاميرا التلفزيون ليكون أول شخص هناك، وأضاف:

- هناك، لقد قالت ذلك لهذا الرجل. وحسبما يزعمون فلم يستطيعوا الوصول إلى كلا المستأجرين، صاحبي الشرفتين.

عض فيلكس على أسنانه. هذا يتفق مع سلوك بلازر. قال للرجل:

- سأهتم بالأمر، أعدك بذلك. إذا كان هذا ما حدث، فسنعرف.

أومأ الشاب شاعرًا بالراحة، كان فيلكس يود لو استطاع أن يحتضنه. قال فيلكس، موجهًا الكلام ربما إلى نفسه أكثر منه إلى فِن هولتسر:

- اذهب إلى البيت ونم قليلًا. هذا هو كل ما تستطيع فعله.

كان الشاب يقف حائرًا، يضغط حقيبة الظهر إلى صدره، ويتلفت حوله، كأنه لم يعد يعرف من أين جاء.

كانت النجيلة أمام البيت مشبعة بالندى، فتلوَّن سن حذاء فيلكس بلون داكن عندما عبر الحديقة. قطف عودًا من شجيرات زهرة الفاوانيا، عودًا ذا براعم لم تتفتح بعد. بجانب باب الشرفة مسح حذاءه. زحفت نملة من الزهرة على ظهر يده، فلم يبعدها. دخل المطبخ على أطراف أصابعه. سار إلى الثلاجة، وفتح ثلاجة التجميد وأخرج من كيس الثلج بيده مكعبًا، ووضعه في فمه وكسره بأسنانه. أراحه ذلك.

- غبت طويلًا.

ارتجف فيلكس. كانت مونيك تجلس على الأرض بجانب باب الحمَّام، وترتدي قميص نومها المطبوع عليه ثمار أناناس، وفي حِجرها علبة مفتوحة من بسكويت الشوكولاتة. بدت متعبة.

- إنك تجلسين على الأرض.

قالها فيلكس كأنها لا تعرف ذلك.

تناولت مونيك علبة بسكويت الشوكولاتة، واستندت على إطار الباب ونهضت. قالت وهي تشير إلى الراديو بجانب الحوض:

- لقد سمعت كل شيء في النشرة الإخبارية.

وضع فيلكس زهرة الفاوانيا على مائدة المطبخ. أخذ مزهرية من الخزانة وملأها بالماء، ووضع الزهرة داخلها. كانت النملة تزحف فوق ساعده. ارتعشت يدا فيلكس، فوضعهما حول المزهرية.

قالت مونيك:

- أفتقدك. يبدو لي كأنك لا تعود أبدًا عودة حقيقية إلى البيت.

أدار فيلكس ساعده. اختفت النملة. سار إلى مونيك ووضع يده اليمنى على بطنها، في الموضع الذي ضاق فيه قماش قميص نومها، وقال لها:

- ما حدث في الفترة الأخيرة كان كثيرًا بعض الشيء، هذا كل ما في الأمر.

وضعت مونيك يدها على يده قائلة:

- إنه نائم.

وقفا فترة هكذا إلى أن تخلصت مونيك من حضنه، وقالت:

- أنا متعبة.

سمع خطوات قدميها العاريتين تصعدان السلم، ثم ساد السكون.

انحنى فيلكس في اتجاه صندوق العدة تحت الحوض. بصوت خافت نزل إلى القبو حيث ما زال مجفف الشعر المفتوح على المائدة الصفيحية.

أستريد

استيقظت أستريد مبكرًا، قبل أن يرن المنبه. ألقت خصاص الشيش أمام نافذة الفندق ظلًّا مخططًا على الحائط. فكرت أستريد في الشريط الذي لفت به الشرطة المكان، وفي مانو، نونو، أختها الحبيبة. دفنت أنفها تحت غطاء السرير الذي كانت تفوح منه رائحة الكلور بشدة، رائحة لا تصدر سوى من أسِرَّة الفنادق، وهي رائحة تهدئها. جلست، وتناولت قائمة الطعام من منضدة السرير، وتمعنت في عروض الإفطار حتى تشتت ذهنها، وحتى تطيل اللحظة قبل أن تشغِّل التلفون وتبحث عن «مانو» في جوجل. ما زال هانيس نائمًا، مشبكًا يديه على صدره. فكرت أستريد أنه يرقد كأنه في تابوت، وأن عليها أن توقظه، بعد برهة، لأنه نسي شاحن هاتفه. يا له من فوضوي. انهمكت مرة أخرى في دراسة قائمة الطعام. بيضة مقلية دسمة ربما، بالجبن، أو فطير بالتفاح والقرفة. استدار هانيس الآن ناحيتها، ومد ذراعه إليها وقد غلبه النعاس، وداعب ثدييها، كان ذلك دائمًا أول ما يفعله عندما يستيقظ، مداعبة ثدييها، كأنه يخشى أن يكونا قد ضاعا أثناء الليل. فتح عينًا وابتسم لها، بدا مثل تلميذ فقير. أزاحت أستريد يده ونهضت. لم تكن تحب الصباحات مع هانيس، عندما يسود الضياء ويبدو كل شيء على حقيقته، وبعد أن يختفي من لمساتها شعورها الليلي باللامبالاة.

قالت وهي ترتدي الروب الصباحي:

- بعد ساعة ونصف لديَّ اجتماع مع مفتش المدارس، وقبلها لا بد أن أمر على البيت. لا بد أن أسرع.

كانت قد اتصلت بالأمس في الطريق إلى فرايبورج بشتيفان، وأوضحت له أنه عليها أن تبقى في تالباخ بسبب مانو، وأن هذا هو الأفضل. فتحت باب الشرفة وخرجت إلى الشمس التي سطعت فترة قصيرة من بين سحابتين، ثم اختفت مجددًا. تائهة في أفكارها راحت تنتزع بعض الأوراق اليابسة من زهور البيتونيا البنفسجية التي تكاثرت فوق درابزين الشرفة. أخذت تفكر في الكلمة الألمانية لـ«صدر»، التي اشتقت منها الكلمة الألمانية لـ«درابزين»، ولم تجد علاقة بين الكلمتين. قالت لنفسها: عليَّ أن أبحث عن الكلمتين في جوجل. جوجل، قالت لنفسها. مانو، السطح، اللعنة. ألقت بالأوراق اليابسة على أرضية الشارع، واستدارت. عبر اللوح الزجاجي نظرت إلى هانيس وهو يجلس على الفراش. ابتسمت له، فهو ليس مسؤولًا عما حدث.

عندما عادت إلى الغرفة، سألته:

- هل نطلب شيئًا للإفطار؟

لم ينغلق باب الشرفة بسهولة، وتحتم عليها أن تخبطه بقدمها من أسفل حتى يعود إلى مجراه. مصعوقًا نظر إليها هانيس، كأنها شتمته، فقالت أستريد:

- لم ينغلق من تلقاء نفسه، كان لا بد أن أخبطه، وعمومًا لم يحدث شيء.

قال هانيس:

- باب الشرفة، باب الشرفة الملعون!

نهض وأخذ يجمع ملابسه. لبس السروال والجوارب بسرعة، وزرر القميص على نحو خاطئ، وأخذ يلف ويدور، كأنه يبحث عن شيء، ثم أزاح ملف المعلومات التابع للفندق على المائدة، ورفع غطاء السرير، ثم

مر بيديه على وجهه، وجلس على المرتبة في نهاية الفراش. اكتشفت أستريد حزامه على حامل الأمتعة عند الباب، فوضعته بجانبه على الغطاء؛ تناوله ولفه حول يده اليسرى، ثم فرده ثانية، وأعاده على السرير.

سألته أستريد، وبدأت هي الأخرى ترتدي ملابسها:

- هل تشرح لي ما حدث؟

وضع هانيس يديه على فمه، لكن الكلمات كانت هناك، خلف كفيه مباشرة، لمحت ذلك في عينيه، غير أنه لم يرد النطق بها.

قال هانيس:

- البستانية، هذه البستانية التي استدعيتها من أجل الأعشاب الصينية في الشرفة. لقد أوصدت باب الشرفة بالمفتاح، صباح الأمس، لقد نسيتها، نسيتها تمامًا.

انحشر جزء من جلد أستريد في السحَّاب الجانبي في تنورتها. سألته:

- أنت ماذا؟

- البستانية. لقد أغلقت باب الشرفة عندما كنت أتحدث معك بالهاتف، لم أكن أريد أن يعرف أي شخص شيئًا ما عنا!

صاحت أستريد وهي تكرمش البلوزة فستقية اللون، قبل أن تلقي بها في حقيبة يدها:

- آه، والآن أنا المذنبة.

كان وجهها ساخنًا جدًّا، وكفاها مبللتين بالعرق. مثل حمم بركانية رأت سخرية الموقف تسرع في اتجاهها، وانتزعت أول ما انتزعت تحكمها في أعصابها. صرخت:

- أيها الغبي، أيها الغبي، الأناني، معدوم المسؤولية! هل فكرت مرة ربما في عواقب ذلك؟ ربما هلكت المرأة عطشًا، أو حدث لها أي شيء آخر! ربما تكون ماتت!

قال هانيس وهو يُدخِل الحزام في أعلى السروال:

- لماذا تصرخين فيَّ؟ هي بخير بالتأكيد، بالتأكيد استغاثت وأنزلها أحدهم. بالتأكيد هي بخير.

رمت أستريد روب الحمَّام بقوة على الفراش، وقالت:

- وماذا إذا لم تكن؟ ماذا إذا لم تكن؟!

أشاح هانيس بيده بعصبية قائلًا:

- أعطيني هاتفك. هيا، تحركي. أعطيني هاتفك الملعون، سنبحث في جوجل.

شغَّلت أستريد التلفون، وأعطته إياه. فتحت باب الشرفة مرة أخرى وخرجت إليها، واقتربت من الدرابزين قدر الإمكان. تمنت لو تجلس في أي من السيارات المارة، وأن تمارس أي مهنة أخرى، أن يكون لها اسم آخر، وأن تُعد فطيرة، أو تتمشى مع كلب، أو تذهب لصيد السمك بالصنارة وتقف حتى ركبتيها في الماء ولا تصدر أي صوت.

سمعت هانيس يقول وهو يستدير في اتجاهها:

- اللعنة! اللعنة! اللعنة! اللعنة!

رمى الهاتف على السرير كأنه حرق يده. ضغطت أستريد بعظم قفصها الصدري على الدرابزين الحديدي. أزَّ دبور وهو يمر بها في طريقه إلى الشرفة التالية. قالت أستريد في سرها: خذني معك!

قال هانيس وهو يشير إلى الهاتف:

- لقد صعدت إلى السطح. لقد صعدت إلى السطح وظلت هناك بالأعلى اليوم كله، والليلة الملعونة كلها. راح يقطع الغرفة ذهابًا وجيئة، هازًّا ذراعيه، وواضعًا يديه في جيبيه.

- لقد نزعت القرميد عن نصف سطحنا، وألقته على الناس، وأخذت تصرخ، تصرفت مثل حيوان، على سطح شقتي!

ضغطت أستريد على ضروسها. ضغطت أكثر إلى أن آلمها فكها.

- تجمع عدد هائل من الناس؛ صحافة، وشرطة، وجيران، وإطفاء...

ونحن راقدان هنا، و... هذاهو الرقم المجهول الذي اتصل بي مرتين عصر البارحة. قلت لنفسي: سأتصل في المساء، لكننا تبادلنا آلاف الرسائل، ثم فرغت البطارية، فقلت: هذا شيء يمكنه الانتظار، لم أكن أعتقد أنه بهذه الأهمية.

خففت أستريد الضغط على فكيها، وقوست أطراف أصابعها في الحذاء، ثم سألته بصوت خفيض:

- وأين المرأة الآن؟

جلس هانيس على السرير ووضع يديه أمام وجهه:

- لقد قفزت إلى أسفل. صباح اليوم، مبكرًا جدًّا، بعد الخامسة بقليل.

بدا كأن الدرابزين في ظهر أستريد يلين، وبالتحديد في الموضع حيث ضغطت بعظام صدرها، لانت ركبتاها أيضًا، تشبثت أستريد بكلتا يديها بزهور البيتونيا، جزيرة أوزيدوم، الثغرة بين أسنان مانو، أطلس النباتات الخاص بها الذي ثنت عديدًا من أطراف صفحاته، والكاسيتات التي تعقدت شرائطها.

قال هانيس:

- لقد قفزت على الوسادة الهوائية، لحسن الحظ. نقلوها الآن إلى المصحة النفسية، هذا هو أيضًا بالتأكيد مكانها.

أخذت أستريد تشد شجرة البيتونيا، وبمساعدتها استقام قوامها، اهتزت قليلًا، ثم وقفت.

عادت إلى الغرفة وقالت له:

- كان عليك أن تخبر مارين بما بيننا. عندئذٍ كنت ستترك الباب مفتوحًا، وما كان سيحدث للمرأة شيء.

فتح هانيس «الميني بار»، وتناول زجاجة «جاك دانيلز»، وفتح الغطاء، وشرب الويسكي حتى منتصف الزجاجة، ثم قال لها:

- كأنك كنت تريدين ذلك. لا شيء بالنسبة إليك أكثر أهمية من معركتك الانتخابية. لقد أطلقتِ على ذلك «عنصر مخاطرة»، أما زلت تتذكرين؟

- من الواضح بالنسبة إليك أن عليك أن تبلغ بالأمر، وبأنك مسؤول عنه.

مسح هانيس فمه، وقال:

- ليس عليَّ أي شيء. إذا حالفني الحظ، فلن يصدقوها، على الأقل لا يبدو الأمر في الصحافة كأنهم يصدقونها. إذا حالفني الحظ، فلن يسأل أي أحد عن ذلك بعد اليوم.

اصطدم بأستريد وهو يمر بها في طريقه إلى الشرفة، ثم وضع الزجاجة على الدرابزين، واستند عليه بكلتا يديه. بزازة الأطفال الصغيرة المضحكة هذه التي يرضع منها كي يهدئ نفسه. بسرعة البرق أغلقت أستريد باب الشرفة، وخبطت أسفل الباب خبطة قوية، ثم أدارت المقبض.

هاج هانيس وماج، وراح يشيح بيديه، ثم قال:

- ها ها.

احتسى الثلث الأخير المتبقي من الويسكي، ثم اقترب من اللوح الزجاجي قائلًا:

- دعكِ من هذه السخافة يا أستريد، هذه تصرفات أطفال!

سارت أستريد إلى الحمّام. لم تلحظ إلا هناك أنها تمسك بيدها اليسرى مجموعة من زهور البيتونيا بجذورها. وضعت النبات بجانب الحوض، ثم غسلت يديها باعتناء. نظفت أسنانها، ووضعت أحمر شفاه، ومشطت شعرها. سمعت هانيس يصيح بالخارج ويخبط اللوح الزجاجي. مرت على شفتيها بقطعة من ورق التواليت، ثم وضعت طبقة ثانية من أحمر الشفاه. تناولت حقيبتها، ولافتة «ممنوع الإزعاج» من المشجب بجانب الباب، ثم استدارت مرة أخرى إلى هانيس، وابتسمت له. راضية لاحظت

أنه خرس لحظة. في الخارج وضعت اللافتة على الباب، بوجهها الأحمر في الأمام.

في قاعة الإفطار بالأسفل طلبت في البداية بيضًا مقليًّا، ثم فطيرًا بالتفاح والقرفة. لم تستطع أن تتذكر متى شعرت آخر مرة بالجوع هكذا.

إيجون

تكاثفت الغيوم، وبرد الهواء، وفاحت من المتنزه رائحة الطحالب، ثم سمع إيجون أولى قطرات المطر تتساقط على التندة. بدأ يوم الإجازة بطبقين من شرائح الخبز بالثوم المعمر على شرفة روزفيتا. فكر برهة في أن يذهب إلى مقهى آخر، بسبب المرأة المسكينة على السطح، لكنه سمع في الراديو بالبيت أنها قفزت على الوسادة الهوائية، في الصباح، في الصباح الباكر جدًّا. صب إيجون قليلًا من الحليب على الشاي، وضبط منظاره بتحريك التروس بين العدسات، اشتعل الضوء لتوه في دكانه القديم. سار ثلاثة من رجال النظافة التابعين للمدينة بستراتهم البرتقالية عبر الميدان، وجمعوا بكماشات ذات أذرع طويلة النفايات المتناثرة في أكياس بلاستيكية زرقاء، غطى واحد بعد الآخر رأسه عندما اشتد المطر. زحزح إيجون كرسيه قليلًا إلى الخلف حتى لا يبتل. على السطح رأى رجلين يضعان قوالب القرميد على الهيكل من جديد، تلك القوالب التي كومتها المرأة بجانب المدخنة، وقوالب جديدة أيضًا كان لونها أفتح قليلًا. تعجب إيجون من السرعة التي ينجزون بها ذلك. عدة ساعات فحسب ولن يعود أحد يرى شيئًا غير بقع السطح، وحتى القوالب الجديدة سيغمق لونها في غضون أسابيع قليلة. على طرف الميدان سارت ماكينة تنظيف محدثة ضجيجًا، وكانت تجمع القمامةَ بفرشاتين مستديرتين تتحركان دائريًّا؛ تلك القمامة التي كانت أصغر من أن تُلتقط

بالذراع المنتهية بكماشة. من فوق الفرشاتين كانت رشاشة ترش المياه بشكل دائم على الشارع. وجد إيجون نفسه يضحك. في بعض الأيام يشعر بنفسه على السير المتحرك في المصنع عديم الفائدة مثل رشاشات المياه هذه وسط المطر المنهمر. أمسك بالمنظار ووجهه على المرأة في ماكينة التنظيف. وضعت سماعات كبيرة على رأسها، وبدا أنها تدندن مع الأغنية، وبيد راحت تدق إيقاع الأغنية على عجلة القيادة. حوّل إيجون المنظار إلى الناحية الأخرى، إلى محل التلفونات المحمولة. الرجل ذو كعكة الشعر يقف خلف طاولة البيع وينظر إلى هاتفه وهو يقرض أظافر يده اليمنى. نسي أن يشعل اللافتة النيون بعبارة «قسم الطوارئ». وضع إيجون المنظار على المائدة، بالعدسات إلى أسفل، وأكل بضع قضمات. ربما يذهب فيما بعد مع أمه إلى المتنزه الذي تحيا فيه حيوانات برية، أو يتفرج في السينما على فيلم من أفلام الظهيرة، برجمان أو فليني، نعم، شيء قيِّم، لا ينال منه الزمن، ربما هذا هو أفضل ما يفعله اليوم.

سمع صوتًا بجانبه يقول:

- «Mi scusi, Signor Moosbach»(*)، أليس كذلك؟

أعاد إيجون إلى الطبق شريحة الخبز بالثوم المعمر التي كانت في الطريق إلى فمه. وقف أمامه رجل بدا لطيفًا، من الصعب التكهن بعمره، ربما في الثلاثين تقريبًا. أنيق، لوحته الشمس، عيناه الداكنتان تحيط بهما رموش طويلة، وشعره المجعد مصفف إلى الوراء. حذاء من جلد العجل، خيطت أطرافه، وقميص أزرق مُفصَّل عليه تفصيلًا، تختفي أزراره وراء شريط من القماش، حزام أيضًا من جلد العجل مصنوع صناعة يدوية، هذا ما لاحظه إيجون على الفور. رفع حاجبيه وأومأ، ليبين للغريب استعداده للإصغاء له.

(*) معذرة، السيد موزباخ. (المترجم).

قال الرجل وهو يرفع يده اليمنى أمام صدره، ومبديًا انحناءة تكاد لا تُلحظ:

- توماسو روسي، ويمكنك، «سِنيوره»، أن تناديني توماسو فقط.

لم يقل إيجون شيئًا في البداية. مد توماسو يده إلى الكيس القماشي ذي اللون الأزرق الداكن الذي كان يعلقه على كتفه، ووضع إحدى قبعات الجوخ التي صنعها إيجون أمامه على المائدة. أدرك إيجون فورًا أنها القبعة التي أهداها بالأمس لفِن. حتى يكسب وقتًا فحسب، رفع القبعة ونظر داخلها، ثم سأله:

- من أين حصلت عليها؟

قال توماسو وهو يشير إلى الكرسي الثاني بجانب المائدة:

- هل تسمح لي؟

قرب إيجون الطبق والمنظار إليه، وأزاح القبعة جانبًا قليلًا.

جلس توماسو وتناول القبعة بكلتا يديه قائلًا:

- لقد صنعتَها بنفسك، أليس كذلك يا «سِنيوره»؟

كان توماسو يتحدث بهدوء بلكنة إيطالية خفيفة.

أومأ إيجون وقال:

- فات على ذلك وقت طويل.

مسح توماسو بكفيه على حافة القبعة:

- إرنستو فالونه أرسلني. هل تعرف الاسم؟

ابتلع إيجون ريقه. إرنستو فالونه. المصمم النجم من ميلانو، بجانبه يظهر جوتييه وأرماني مثل تلميذين صغيرين. جف فم إيجون تمامًا. تناول شريحة من خبز الثوم المعمر من الطبق وقضم قطعة، ومضغ، احتاج إلى وقت طويل من أجل ذلك، ثم ابتلعها أخيرًا مع رشفة من الشاي. هل نسخ شيئًا عن غير علم؟ هل جاء الإيطالي الشاب ليقول له إنهم سيرفعون قضية ضده؟

قال بحذر:

- ومن لا يعرفه؟ عندما يرتدي المرء أحد معاطفه، ينتابه شعور مَن يدخل كنيسة.

قال توماسو وهو يبتسم بلطف:

- يسعدني أنك تقول ذلك. مثلما تظن بالتأكيد فقد جئنا من أجل القبعة.

- كما قلت، فات على ذلك وقت طويل. قطعة منفردة، مجرد نموذج مبدئي، لا يستحق الحديث عنه.

مسح توماسو بحنو تقريبًا على حواف القبعة قائلًا:

- مايسترو فالونه له رأي آخر. وأنا، إذا سمحت لي، أيضًا.

ارتعشت يدا إيجون حول فنجان الشاي، فوضعهما في حجره. تأمل التجاعيد الضئيلة حول عينَي توماسو، التي تظهر عندما يبتسم. لماذا يبتسم؟ سأل نفسه: لماذا يبتسم الناس عندما يأتون بأخبار سيئة؟

قال توماسو:

- «سِنيوره»، القبعة تحفة فنية. أنيقة أناقة قاهرة للزمن. «Senza fronzoli»، «بلا أي زينة زائفة».

تحرك قلب إيجون حركة قوية، قبل أن يُسرع في الخفقان، وشعر بالنبضات تسري في جسده حتى منبت أنفه.

- سيكون مايسترو فالونه سعيدًا إذا أكملْت قبعتَك مجموعتَه لخريف هذا العام. سيكون ذلك شرفًا له.

ضغط إيجون على يديه في حجره. ربما يحلم. ربما استغرق في النوم والآن يحلم. تفحص توماسو؛ كانت مظلته التي تقطر ماء تتأرجح بمقبضها المقوس على حافة المائدة. كلاهما بدا حقيقيًّا، توماسو والمظلة. تذكر إيجون أنه قرأ مرة أن الحياة الحقيقية تختلف عن الأحلام في أن المرء في الحياة الحقيقية يستطيع التذكر كيف وصل إلى المكان الذي وُجد فيه.

أمعن إيجون في التفكير. نعم، إنه يستطيع أن يتذكر، فتح صندوق البريد، والطريق عبر التقاطع ذي الضجيج خلف الميدان، ويتذكر أيضًا أنه طلب من روزفيتا الخبز والشاي.

في النهاية سأل:

- كيف وصلتَ إليَّ؟ ومن قال لك إنك ستجدني هنا؟

وجد إيجون صعوبة في الإصغاء بدقة، كان مضطربًا للغاية. لم يفهم إلا شذرات مما قاله الإيطالي: سمع أن إرنستو فالونه كان يائسًا لأن شيئًا ما ينقص المجموعة الجديدة، وأنه تفرج لأول مرة منذ سنوات على التلفزيون، ثم اكتشف القبعة في نشرة الأخبار؛ وأنه تقصى الأمر، وسافر إلى هنا خصيصًا، وأن رجلًا مشردًا في المتنزه كان يرتدي القبعة، وأنهم أعطوه ألفي يورو من أجلها، وأن الرجل قال لهم إنهم قد يجدونه، إيجون موزباخ، هنا، وإنه الرجل الذي يحمل منظارًا.

قال توماسو وهو يضع أمامه بطاقة صغيرة بالاسم:

- تناول معنا الطعام مساء اليوم، في فندق «البريستول» في فرايبورج، عندئذٍ سيستطيع «سِنيوره» فالونه أن يشرح لك كل شيء بالتفصيل. إذا كان الأمر يناسبك، فستُحضرك سيارة في السابعة، من العنوان الذي تريده. اتصل بي ببساطة.

أومأ إيجون وتناول البطاقة، وبأنامله مر على طول الحواف الحادة. بدت البطاقة حقيقية أيضًا.

مد توماسو يده إليه ونهض قائلًا:

- آمل أن أراك مساء اليوم.

وودعه شادًّا على يده بقوة.

راح إيجون يتفرج عليه وهو يفتح المظلة، وبخطى سريعة سار إلى سيارة سوداء كانت تقف عند مدخل المتنزه. عبر قماش البنطال تحسس البطاقة. ما زالت هناك. نظر إلى الخلف، عبر النافذة، وتأمل روزفيتا

التي كانت تقف خلف طاولة البار وتقطع الثوم المعمر بمخرطة كبيرة. رأى أنها لم تبدُ يومًا جميلة هكذا. تناول القبعة من المائدة، وأدارها في يده. غمغم:

- «Senza fronzoli»، بلا أي زينة زائفة.

ثم ابتسم. عندئذ لفتت انتباهه زاوية بيضاء صغيرة برزت من شريط القبعة الداخلي. شدها إيجون، فرأى تذكرة باص. على الظهر كان مكتوبًا بخط جميل:

ما المكان الجميل الذي لا تستطيع دخوله؟ وهل تريد تغيير ذلك؟

نظر إيجون مرة أخرى إلى روزفيتا التي كانت تهز ربطة من الثوم المعمر، فغمزت له عندما رأته. رفع يده، ثم استدار إلى طبقه، وانتهى من طعامه في هدوء، ثم شرب الشاي حتى آخر قطرة. تحسس مرة أخرى البطاقة، ثم مسح فمه بالمنديل الورقي، ونهض. ترك المنظار على المائدة. رفع الجزء الخلفي من ياقة المعطف ليغطي رأسه، ثم عبَر الميدان مارًا بحاويات القمامة والمرأة في ماكينة التنظيف، وسار سيرًا مستقيمًا إلى محل التلفونات المحمولة. نظر إليه الشاب ذو الكعكة على شعره، ووضع التلفون جانبًا عندما دخل إيجون المحل.

- لقد نسيت اللافتة الضوئية.

تطلع الشاب إليه من دون أن يفهم:

- ماذا؟

فقال إيجون:

- «قسم الطوارئ». اللافتة خلفك. لقد نسيت أن تُشعل الضوء.

استدار الشاب، وسأله:

- هل أنت أحد المديرين؟

- يمكنك أن تقول ذلك. لكن لا تقلق، لن أحكي لأحد. أنا هنا فقط لكي

أشتري تلفونًا، واحدًا يستطيع استقبال الصور. ورسائل الواتس آب، أو لا أعرف ماذا يسمونه. هل لديك واحد كهذا؟

قطب الشاب جبينه، ثم قال:

- بالتأكيد.

وشغَّل زر اللافتة التي بدأت تضيء بأزيز خافت.

مارين

بدا كل شيء تقريبًا مثلما كان في السابق. تقريبًا. وقفت مارين في الميدان، وتطلعت إلى شقتها، إلى الستارة المخططة بالأبيض والأزرق، والصبار على حافة النافذة الذي أزهر هذا العام للمرة الأولى. بيد تشبثت بمقبض حقيبة يدها، وباليد الأخرى قبضت على الجوارب التي كانت ترتديها اليوم السابق، وراحت بأصابعها توسع الثقب فيها. بلل المطر شعرها تمامًا، وشعرت ببرودته وهو يتغلغل في فروة رأسها. خلف اللوح الزجاجي استطاعت أن ترى هيكل هانيس، كان يقف وظهره إلى النافذة، على ما يبدو كان على وشك التحدث في التلفون. توسيع الثقب في جوربها جعل مارين أهدأ. الطقطقة التي تصدر عن النسيج خلال مقاومته إلى أن يستسلم النايلون. وجدت نفسها تفكر في انتقالها إلى هذه الشقة مع هانيس. وتفكر فيه وهو يُخرج تلك العبارات المؤطرة من الغلاف البلاستيكي المليء بالفقاعات الهوائية:

اختر أن تكون سعيدًا

«Carpe diem»(*)

إذا أعطتك الحياة ليمونة حامضة، فاصنع منها ليمونادة!

يا له من هراء! هذا ما فكرت فيه مارين آنذاك أيضًا، لكنها لم تقل شيئًا، لأن أشياء عديدة أخرى كانت تعجبها في هانيس. غمازتاه، هدوؤه واسترخاؤه،

(*) مقطع من قصيدة لاتينية لهوراس، وتُترجم بـ«اغتنم اليوم» أو «استمتع باللحظة». (المترجم).

مزاحه، يداه الطريتان، ماكينة الآيس كريم. رقدا في غرفة المعيشة غير المؤثثة بين صناديق الكرتون، وهما يأكلان رقائق البطاطس المدهونة بجبنة الكريمة، ويفرقعان الفقاعات الهوائية من البلاستيك، فقاعة بعد أخرى، وكان الصوت يشبه صوت توسيع الثقب في الجورب عمدًا. فكرت مارين أنه، ربما، لا يزال بين ثدييها بعض من لعاب ياريس. وأن الكيس البلاستيكي بالمشتريات من المحل الصغير ما زال تحت المقعد المجاور للسائق في سيارته. شاهدت مارين اثنين من العمال الذين يغطون السطح يجلسان على الجمالون ويأكلان ساندويتشًا، وقد غطى كل منهما رأسه بقلنسوة. لو كانت المرأة ترتدي صديري العمال برتقالي اللون، فكرت مارين، مَن يعلم، ربما ما استدعى أحد الشرطة. كان الميدان يبرق من النظافة، لا شيء يُذكر بالناس الذين وقفوا هنا أمس، أو بالمرأة التي هاجت وماجت أعلى السطح. كومة صغيرة من القرميد فحسب، بجانب المدخنة، لم يستخدمها العمال بعد، هي التي وشت بأن شيئًا حدث هنا، شيئًا شاذًّا. مزقت مارين بقوة الجورب، وأصغت إلى طقطقة النسيج. لا شيء يظل على حاله. لا شيء مطلقًا.

بصوت خافت قدر الإمكان فتحت مارين باب المنزل. كانت تريد أن تضبط هانيس على حين غرة، بحيث لا يكون لديه وقت لكي يُخرج حججًا سخيفة من ثلاجة لامبالاته. لم تمش بخطوات مسموعة إلا عندما وصلت في الممر إلى مدخل غرفة النوم، وكانت متأكدة من أنه رآها، عندئذٍ سارت بقوة على الأرضية الخشبية، ومرت بهانيس من دون أن تُنعم عليه بنظرة. في حجرة تبديل الملابس سحبت الحقيبة من الخزانة، وشدتها عمدًا بقوة أكثر من اللازم، فأطاحت بعلب الأحذية الخاصة بهانيس وأسقطتها على الأرض. نعم! الضجيج غير كافٍ، إنه رائع، هذا الصوت عندما تتناول البلوزات والملابس والبذلات من الشماعات المعدنية ثم تلقي بالشماعات وتكومها، وتلقي شماعة أخرى، وفي أعقابها حامل الأحزمة أيضًا.

أمسك هانيس بذراعها وسألها:

- «أرنوبتي»، ماذا تفعلين، هل جننت؟

قاومت مارين في البداية، ثم تركته يمسك بها. لحظةً قصيرة تركت هانيس يمسك بها، بهذه اليد الماراثونية القوية الغريبة، وظلت ساكنة، ولم تقل شيئًا، أتاحت لهانيس ثغرة، ثغرة صغيرة جدًّا حتى يقول لها أين كان في الليلة الماضية، وحتى يسألها من أين أتت، ثغرة صغيرة جدًّا لإعادة كل شيء إلى مكانه الصحيح. لكن هانيس لم يسأل، ولم يقل أيضًا أين كان، أمسك بها فحسب لأنه كان يعتقد أن هذا هو التدخل المناسب في لحظة كهذه، واجبه إذا أراد أن يواصل تمثيل دور شريك الحياة الوفي، المصدوم. ومن كل الجمل الممكنة لم يختر سوى هذه الجملة:

- ما هذا الذي تفعلينه؟ عليَّ أن أذهب بعد خمس دقائق. ليس لديَّ وقت لهذه الأشياء.

انتبهت مارين إلى شعره المنكوش، وإلى الخدوش في ساعده الأيسر، وأن باطن يده به كدمات داكنة. قالت له وهي تنحني لتغلق الحقيبة:

- منظرك بائس.

- مارين.

يا له من جبان. لم يقل شيئًا سوى «مارين». ولا كلمة عن المرأة على السطح، عن الشرطة، والمتفرجين، عن الضوء الأزرق والتقارير التلفزيونية. في النهاية لم يعرف شيئًا مما حدث، يلهث في مكان ما بعد أن أفرط في تناول «السوشي» وقوالب البروتين، على آلة التدريب في غرفة الرياضة بالبنك، أو بين ساقَي السكرتيرة النحيلتين اللتين تشبهان سيقان الدجاج. سألها:

- اللعنة، إلى أين تريدين الذهاب؟

شمر هانيس كمه إلى أعلى، ثم أنزله، ولم يخطر على باله شيء آخر يفعله.

حشت مارين الحقيبة بقطع الملابس، وأضافت إليها أحذية ولباس البحر ونظارة الغوص. الذهاب للغوص، لم لا؟ وضعت السترة المقاومة للرياح،

وطاقية أيضًا، ثم «الكورسيه»، المرء لا يعرف أبدًا ما ينتظره. أغلقت غطاء الحقيبة، وشدت السحَّاب، ووضعت الحقيبة على العجلات، ثم زاحمت هانيس لتمر به في طريقها إلى الممر. من غرفة النوم أحضرت الصبار من حافة النافذة، ولفته في وشاح، ثم وضعته في كيس بلاستيكي. بحركة من يدها كنست في الحمَّام كل مواد التجميل من أمام المرآة إلى حقيبة يدها مباشرة، هذا ما كانت تريد دائمًا أن تفعله ذات يوم. في الدش أيضًا راحت تفرز الأشياء، وتأخذ ما يخصها، وتلقي بما لا تحتاج إليه على أرضية الكابينة. بجانب الباب، في مكان تعليق السترات والمعاطف، تناولت معطف المطر ومعطف الفراء السميك. أشارت إلى سترة من الجينز لم يسبق أن رأتها من قبل، وسألته:

- ومَن تخص هذه السترة؟

- ليس الأمر كما تفكرين. أستطيع أن أشرح لك الأمر. أنت تعرفين البستانية... التي تزرع أعشابًا في الشرفة، الأعشاب الصينية...

مدت مارين يدها في جيب السترة الغريبة، وأخرجت تلفونًا محمولًا، وسلسلة مفاتيح يتأرجح فيها كشاف صغير، وفي أسفل الجيب تمامًا بضع زهور زيزفون جافة.

تأملت الأشياء في كفها، ثم تركتها تختفي ثانية في جيب السترة. قالت وهي تعلق مفتاحها على لوحة المفاتيح:

- أيًّا كان الأمر.

- مارين، يا قطعة «البرالين» الخاصة بي، اسمعيني!

ساخطة ردت مارين:

- لست قطعة «برالين» خاصة بك، يا فاقد الشهية اللعين. منذ فترة طويلة لم أعد كذلك!

- لا أفهم ذلك، ماذا حدث لك؟ نستطيع التحدث عن كل شيء. إلى أين تريدين الذهاب؟

حاول هانيس أن يهدئ من روعها، على ما يبدو فهم تدريجيًّا أنها جادة فيما تفعل.

ردت مارين:

- المهم أن أخرج من هنا. المهم أن أخرج من هنا.

رفعت الحقيبة فوق العتبة، وصفقت الباب أمام أنف هانيس، الذي فتحه مرة أخرى صائحًا:

- قولي لي على الفور ما معنى هذا!

تردد صدى كلماته في السلم.

ضغطت مارين زر المصعد قائلة:

- طيب، سأحاول أن أعَبِّر بكلمات تفهمها: سأعِد الآن ليمونادة من الليمون الخاص بي.

مذهولًا نظر إليها هانيس، وقد رفع حاجبيه. جاء المصعد، ودخلته مارين، ثم ضغطت على زر غلق الباب.

سمعت هانيس يصيح عندما أغلقت باب المصعد:

- هل تقصدين أنني ليمونة؟ هل هذا هو ما تريدين قوله؟ هل تريدين أن تقولي إنني ليمونة؟

في الميدان سحبت مارين معطف المطر ليغطي رأسها. أسرعت إلى الدكان الصغير، كانت تريد أن تشتري مرة أخرى مثلما فعلت بالأمس: موزًا وماء وواقيًا ذكريًّا. كان مكتوبًا على ورقة صغيرة ملصقة على الزجاج:

مغلق

ألقت مارين نظرة في الداخل، لكن الظلام كان سائدًا فلم تستطع أن تلمح شيئًا تقريبًا.

- أنا أيضًا طرقت الباب من دون جدوى.

استدارت مارين. كان إيجون يقف بجوارها، صانع القبعات المجنون

الذي كانت تعيره بين الحين والآخر فستانًا من أجل عرضه في واجهة المحل، قبل أن تؤجر البلدية محله إلى مُقدم أعلى إيجار.

قال:

- منذ فترة طويلة لم يعد البيع يسير على ما يرام.

أومأت مارين. لاحظت أن إيجون يرتدي ثيابًا أنيقة، أنه يرتدي صديريًا، وجوارب سميكة فوق الحذاء، بل وضع على رأسه قبعة، قبعة رمادية من الجوخ، لم تستطع أن تتذكر أنها رأته يومًا بقبعة.

أشار إيجون إلى حقيبتها وسألها:

- إلى أين تسافرين؟

قالت وهي تشير إلى سيارة أجرة في الشارع الرئيسي كي تقترب:

- لا أعرف.

أمال إيجون رأسه وسألها:

- وهل ستعودين؟

هزت مارين كتفيها:

- لا أعرف.

- فهمت.

عندما اقترب التاكسي، رفع إيجون قبعته قليلًا وقال:

- سافري إلى مكان يبعث الراحة في نفسك.

ثم واصل سيره.

وضعت مارين متاعها في حقيبة السيارة. ثم ركبت، وأغلقت الباب، وببصرها تتبعت إيجون الذي وقف أمام مقهى روزفيتا، وتناول القبعة من فوق رأسه، ثم راح يديرها بين يديه. فكرت في أنها لم تعد تعرف مطلقًا ماذا يبعث الراحة في نفسها، أنها بمرور السنوات نسيت ما هو التمني. وأنها لم تعد تريد ذلك: أن تسافر مع أحد. أن تجلس على المقعد المجاور للسائق أو على المقعد الخلفي في حياة إنسان آخر. كانت تريد أن تتولى هي القيادة.

سألها سائق التاكسي وهو ينقر بأصابعه على عجلة القيادة:

- إلى أين إذن؟

حدقت مارين في إيجون في الناحية الأخرى؛ كان يزفر الهواء بقوة كأنه يقف أمام مهمة صعبة، ثم وضع القبعة على رأسه ثانية، ودخلَ المقهى عبر الباب الدوار.

قالت مارين للسائق وهي تفتح الشباك:

- خذني إلى أقرب مكتب لتأجير السيارات.

كانت الخطوط البيضاء على الأسفلت تلمع في الشمس وتبهر الأبصار.

فِن

أصبح المفتاح دافئًا في يده بعد أن طالت وقفته أمام الباب الخشبي الأزرق. قال له الشرطي على الهاتف إن عليه أن يجمع عدة أشياء لمانو، ملابس، فرشاة أسنان، كتبًا، أشياء قد تحتاج إليها. نظر فِن إلى كومة الصحف والرسائل التي دسها في يده مع المفتاح الرجل بالأسفل في ورشة الزجاج الاصطناعي. قال الرجل إنه على الآنسة كونه أن تشتري أخيرًا صندوق بريد خاصًا بها، فلم يعد مستعدًا لحفظ بريدها لديه. على الصفحة الأولى من «تالباخر بوتن» رأى صورة مانو، ملامحها الخارجية، كانت تتوازن فوق الجمالون وفي يدها قالب من القرميد لا يكاد المرء يتعرف عليه. بحروف سوداء كتبوا فوق رأسها:

بعد عشرين ساعة قفزت من السطح

في الصحيفة المجانية أيضًا أسفل الكومة رأى مانو. كان العنوان هناك:

هل يجب على قاذفة القرميد الذهاب إلى مصحة نفسية مغلقة؟

في الصورة المرافقة يرى المرء وجه مانو من قريب جدًا، فمها ممتعض غضبًا، والخدان يعلوهما غبار القرميد. قال فِن لنفسه: تشبه الهنود الحمر الذين يلونون وجوههم قبل المعارك. مر بأنامله على منبت شعر مانو المُكبَّر في الصورة. هل حبسوها؟ في إحدى تلك الزنازين المضاءة بضوء النيون مثلما يراها المرء في الأفلام؟ لف فِن الصحف، ووضع المفتاح في القفل. لم يسبق له أن أتى إلى هنا. في «حجرة الطوارئ» الخاصة بمانو، مثلما كانت تطلق عليها. كانت

الغرفة المكسوة بالخشب صغيرة والهواء فيها خانقًا، وبسبب ميل السقف لم يكن بمقدور المرء أن يقف مستقيم القامة إلا بجوار الباب مباشرة. عبر شباكين مربعين صغيرين جدًّا أعلى السرير كان بالإمكان رؤية السماء. فتح فِن أحدهما. حول السرير، نباتات في أصص فخارية؛ نخيل صغير، صبَّار وشتلات، تسلقت الجدران نبتة بوثوس كثيفة الأوراق، وعلى الباب في الداخل ثُبتت أكياس ورقية صغيرة بالدبابيس. تلمسها فِن، كانت بداخلها بذور. كان مكتوبًا على كل الأكياس بالقلم الرصاص، قرأ على الكيس العلوي يمينًا:

أفصليس المكسيك

وعلى الكيس المجاور:

أخدرية محولة

على كومود صغير بجانب الباب رأى موقدًا كهربائيًّا وسخَّان مياه، وطبقًا وحيدًا عليه شوكة اعوجت سنتها الوسطى. هل كانت مانو تتناول طعامها هنا كثيرًا؟ ثمة مرشة مياه من المعدن حمراء اللون عند نهاية السرير، بدلًا من المنضدة، لم يكن هناك صنبور مياه، على الأرجح كان على مانو أن تذهب إلى القبو لملئها. على الجدار المستقيم الوحيد بجانب الكومود تكومت مراجع، كتب كبيرة سوداء ذات كعوب حمراء، ثلاثة عشر كتابًا. انحنى فِن حتى يقرأ المكتوب على كعوب الكتب:

جرتسيميك، حياة الحيوان، الجزء السابع: الطيور ١: التناميات، النعاميات، الغطاسيات، الغواصيات، البطاريق، النوئيات

تغير شكل شفتَي فِن وهما تقرآن اسمًا بعد الآخر.

محدافيات الأرجل، اللقلقيات، النحاميات، الإوزيات، البازيات، الدجاجيات ١

وبالأعلى كان هناك الجزء الحادي عشر:

الثدييات ٢: الشمبانزي، الإنسان وأصله، آدميات الأجنحة، الخفاشيات، عريبات المفاصل، الحرشفيات، القوارض، الحوتيات

لم يكن فِن يعرف ما آدميات الأجنحة أو الغطاسيات، لكن الكلمات أعجبته. شعر لحظة بإغراء أن ينتزع الجزء الخاص بالنحاميات من الكومة، لكنه لم يفعل. ماذا يُحضر لمانو؟ لم ير ملابس متناثرة، ولا صورًا، ولا أدوات تجميل. سيلاس على حق ربما. ربما لا يعرفها مطلقًا. ومن الممكن ألا تبالي به مطلقًا. كان على الشرطية أن تخبره باسم مانو العائلي، لكنها لم تسمح له قَطُّ بدخول حجرتها. لكنه كان يعرف أشياء أخرى، مثلًا أنها دائمًا تقول «حلومن» بدلًا من «حلوم»، وأن رائحة القطط تفوح من خلف أذنيها، وأنها تنام في الصباح على بطنها، وأنها تكره أن تدخل فمها فرشاة أسنان جافة. لكن متى يعرف المرء إنسانًا؟

هطل المطر على الألواح الزجاجية الصغيرة، وفاحت رائحة الطين اليابس والكلوروفيل. جلس فِن على السرير. رفع الوسادة الزرقاء إلى أنفه، لم تكن بها رائحة مانو، بل رائحة ضعيفة لمسحوق الغسيل. شكل الغرفة، وصوت قطرات المطر على زجاج النافذة، وخضرة النباتات الواهية، ذكَّرته بالخيمة التي كان ينصبها في بعض الأحيان في حديقة والديه الأمامية، عندما كان صغيرًا. عندما كان ليو حيًّا. وضع الوسادة جانبًا ثم سار إلى الكومود. كان الدرج السفلي فارغًا. في الدرج العلوي الثاني وجد زجاجة بلاستيكية فارغة وكنزة صوفية صفراء. في الدرج الثالث قطعة مغلفة لم تُفتح من شوكولاتة الحليب. أخرج فِن الكنزة الصوفية، ثم الشوكولاتة أيضًا. بدا الدرج العلوي للوهلة الأولى فارغًا. غير أنه اكتشف في الخلف تمامًا عودين من الخشب، فأخرجهما. كانا عودين من الأعواد التي تُستخدم في المصاصات المثلجة. أمعن فِن النظر فيهما. أحد العودين كان سليمًا، وبدا غير مستخدَم، في حين كان الآخر معضعضًا في قمته، ومشروخا في منتصفه. جلس فِن. كان العودان من المصاصة المثلجة على شكل صاروخ التي اشترتها مانو لهما. في اليوم الذي تعرف إليها.

قالت له وهي تأخذ العود:

- أنت إذن من فصيلة ماضغي الأعواد النباتية، من الجيد أنني أعرف هذا الآن.

كانت قد عبرت الشارع حيث سلة القمامة. ثم التفتت وصاحت:

- سمعت أن سباقًا للحلازين سيقام اليوم في مصنع البيرة القديم. لا بد أن نذهب إلى هناك، بإمكاننا أن نربح نقودًا كثيرة. في المرة السابقة ربحتُ ما يكفي لكأسين من «الجن تونيك».

عندما رجعت وضعت تحت أنفه حلزونًا صغيرًا من الفصيلة التي تعيش في الكروم:

- انظر، ما رأيك، هل أجعله يشترك في السباق؟

قال فِن:

- لا أعرف. إنه يبدو متغضنًا، قد يكون عجوزًا. علينا أن نجد حلزونًا يبدو أكثر لياقة بدنية.

ضحكت مانو ووضعت الحلزون في الشريط الأخضر بجانب طريق السيارات الخارج من المدينة. لم يجدا حلزونًا آخر. في مصنع البيرة راهنا على حلزون كان بإمكانهما أن يستأجراه من أجل السباق. ولم يكسبا أي شيء، لأن الحلزون راح يزحف في دائرة. لكنَّ عودَي الآيس كريم لم تتخلص منهما مانو قَطُّ. لا بد أنها أحبت شيئًا ما فيه في ذلك اليوم؛ شيئًا ما لا علاقة له باسم عائلته، أو بماضيه، أو بأثاث غرفته. تناول فِن الشوكولاتة والكنزة، والعودين الخشبيين، والكيس الصغير بالبذور المثبت أعلى الباب إلى اليمين، والذي كان مكتوبًا عليه «أقصليس المكسيك»، ثم وضع كل شيء في حقيبة الظهر الخاصة بتوصيل الطرود. أخذ معه الصحف أيضًا. ربما، قال لنفسه، تود قراءتها.

كانت المصحة تقع في متنزه على أطراف المدينة، وكانت موزعة على عدة

مبانٍ يتصل بعضها ببعض عبر درب نحيل مفروش بالحصى. وقف فِن عند بركة البط بجانب مدخل المبنى الرئيسي. سال المطر عليه من الخلف ودخل من ياقته وانسال على ظهره، وتشبع سنًا الحذاء بالماء؛ عندما كان يحرك أصابع قدميه كانت المياه في الجورب تصدر صوتًا. كان علجوم وحيد يسبح في البركة، ساحبًا رأسه ومغمضًا عينيه، لم يشعر ذكر البط بوجوده. في جيب السترة أدار فِن بين أصابعه مفتاح غرفة مانو العلوية. تفحص نافذة بعد الأخرى بحثًا عن شعرها الأشقر، لكنه لم يرَ سوى خيالات، هياكل مصابيح، وستائر مشدودة، أو ألواح زجاجية عاكسة ليس خلفها سوى الظلام. لم يرَ بوضوح إلا الرجل الجالس في الاستقبال بالأسفل بما يشبه الصلعة التي تبرق من خلف شاشة الكمبيوتر الكبيرة، وفنجان القهوة الأصفر الذي كان يمد يده نحوه بين حين وآخر. في الكافيتريا بالطابق الأرضي جلس أحد الممرضين وأكل ثلاث قطع من الكرواسان، واحدة بعد أخرى، بعد أن غمسها في كأس من عصير التفاح. في النافذة لفتت انتباهه امرأة أنيقة الملبس كانت تدير على الدوام الخاتم في إصبعها، ثم وضعته أمامها على المائدة، وبطرف إصبعها دفعته حتى وصل إلى الحافة، ثم وضعته ثانية في إصبعها، لتديره من جديد. بدا لفن أنه يعرف هذا الوجه من مكان ما، وإنْ لم يستطع القول متى رأى المرأة. لم يدخل أحد المبنى أو يغادره، لم يلحظه أحد عندما وقف في الجانب المحمي من الريح عند محوِّل الكهرباء بالقرب من بركة البط، منذ ساعة، أو ربما ساعتين، وربما أيضًا منذ عشر دقائق فحسب، ولم يلحظ أحد أنه يشعر بالبرد وأنه لم يكد يتحرك. ولن يحاسبه أحد إذا خطا خطوة إلى الخلف، إذا سار عائدًا إلى البوابة الحديدية، وإلى دراجته «البيناريلو»، وإذا حزم في البيت حقيبة الدراجة وانطلق في اتجاه صقلية أو إسطنبول أو نيويورك.

كان فِن يعلم أن الخطوة التالية مصيرية. خفض بصره إلى حذائه. من تحت ورقة نبات لسان الحمل السهمي برز حلزون الكرمة، بجانب قدمه

تمامًا، وحرك مجساته، ثم مدها إلى اليسار، في اتجاه بوابة الدخول، ثم إلى اليمين، في اتجاه الشارع. قال فِن لنفسه: سأذهب حيثما يذهب الحلزون. سأترك الحلزون يقرر. لكن الحلزون أدخل مجساته ثانية، وزحف إلى قوقعته، ولم يتحرك بعد ذلك. ما زالت عينا ذكر البط مغلقتين. مد الرجل في الاستقبال يده إلى فنجان القهوة. اختفى الممرض، وأدارت المرأة عند النافذة خاتمها.

انتظر فِن إشارة، صوتًا، تغيرًا في الضوء، سيارة عابرة، أي شيء. الشعور الفطري الصحيح. شعر بنفسه وحيدًا. لم يستطع تذكر متى شعر بنفسه وحيدًا هكذا من قبل. رفع رأسه مرة أخرى ونظر إلى النوافذ. قد تكون مانو نائمة. قد لا يسمحون له بالدخول إليها اليوم على الإطلاق. قد لا تكون مطلقًا في وضع يسمح لها باستقبال زوار. نعم، قد يكون من الأفضل أن يعود غدًا. لمصلحة مانو. أومأ فِن. رجع خطوة إلى الوراء. ثم خطوة أخرى، واستدار، وسار بخطوات سريعة إلى البوابة الحديدية من دون أن يلتفت إلى الوراء.

*

كان جسدها يفور. كأنه كله ممتلئ بحمض الكربونيك. لا شيء يؤلمها. لا تشعر إلا بتلك الفقاعات الضئيلة في كل أطرافها، في كل مكان فقاعات، من أظافر أصابع قدميها إلى ما تحت منبت شعرها، فقاعات تحملها، وتنفجر في شرايينها، دافئة، من أجلها وحدها، فقاعة بعد أخرى ترتعش ثم تنفجر، ترتعش ثم تنفجر، تسري الرعشة حتى في لسانها، لا بد أن تضحك. أول شيء تشم رائحته هو البلاستيك حول رأسها، إنه يحك أذنيها، يحك تاركًا لونًا أبيض ساطعًا في زاوية عينها، تجد نفسها تفكر في كتَّافات السباحة، تقول لنفسها: لا مكان لها هنا، لكن الرائحة هي السبب، تجد نفسها تقهقه بصوت أعلى. تبهر السماء البصر عبر رموشها، حتى مقلة العين ترتعش، لا تستطيع أن تبقيها ساكنة، أو أن تجعلها تنظر بوضوح، الضوء باهر للغاية، باهر إلى درجة الارتعاش، تتجنب الحدقتان الضوء، وتختفيان خلف جفنيها، إنها تشعر الآن بالبلاستيك تحت كفيها، تشعر بهزة تحت الأنامل، تحت ظهرها يتحرك شيء ضخم، وهي تتحرك معه. ثم تشعر بعظامها بين الفقاقيع المنفثئة، تشعر بعصعصها، بكاحليها، بمعصمَي يديها، تشعر كأن كل الفقاقيع تنفثئ مرة واحدة في أذنيها، وترشح مكانها الأصوات مثل الماء، باردًا وعذبًا، تسمع أصواتًا، صفارة إنذار، تسمع اصطفاقًا، خبطًا، خطوات، تشعر بالمطر في وجهها، شعرها المبلول في القفا، ترى واجهة المنزل والأضواء المبهرة والسماء التي يهطل منها المطر، ترى الوسادة البيضاء إلى يمينها ويسارها، ترى رجلين وامرأة في سترات برتقالية، ينحنون فوقها، يدلقون عليها أسئلة، ما زالت تضحك، لكنها لا تستطيع أن تجيب، تحت لسانها مرارة، لا تريد

أن تحركه. ترمش، وتنظر حدقتاها بحدة، تبتلع، وتصيخ السمع، تسمع: «محاولة انتحار»، تسمع: «أمان»، تضحك وتكور قبضتيها، يتوتر جسدها، إنها الآن بالأسفل، تصل الآن، تشعر بالأذرع تمتد ناحيتها، أغبياء، هكذا تقول لنفسها، لا يفقهون شيئًا، لا شيء مطلقًا. ففي كل مرة، عندما تقف على أحد السطوح، أو على أحد الجسور، أو في إحدى الشرفات، عندما تنظر إلى أسفل، عندما تضغط بطنها على درابزين بارد أو حاجز الشرفة الخرساني، في كل مرة تشعر فيها بألم من أعلى المعدة يسحبها، هناك حيث يضغط الحاجز أو حيث يغيب، هذه الكتلة الرصاصية المرتعشة التي ترشح ببطء من منطقة البطن إلى عضلات الساقين، هذا الشيء الذي يسحبها إلى أسفل، عندئذٍ كانت تعرف أنها في الحقيقة لا تريد القفز إلى الموت. لم ترد قَطُّ القفز إلى الموت. دائمًا إلى الحياة فحسب.

•



المؤلفة

ولدت سيمونه لابرت في عام ١٩٨٥ في أراو بسويسرا، ودرست الأدب بالمعهد السويسري للأدب في بيل. ظهرت باكورة رواياتها عام ٢٠١٤ بعنوان «ظلال»، ووصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة «أسبيكته»، وتُوجت بجائزة «فارتهولتس» بوصفها أفضل كاتبة جديدة.

«القفزة» (٢٠١٩) هي روايتها الثانية، وقد رُشحت لجائزة الكتاب السويسري، واختيرت عام ٢٠٢٠ أفضل عمل أحبه القراء السويسريون. والعنوان الألماني للرواية يحمل عدة معانٍ، منها «القفز»، و«الشرخ الذي يصيب الزجاج أو الجدران». ولعل العنوان يحيل هنا إلى «قفزة» الشخصية الرئيسية وما أحدثته من شروخ وتصدعات في حياة الشخصيات الأخرى في الرواية.

تترأس لابرت مهرجان الشعر الدولي في بازل، وهي تحيا وتعمل متنقلة بين بازل وزيوريخ.

المترجم

درس سمير جريس الألمانية وآدابها في القاهرة، ومايتس بألمانيا، وترجم عن الألمانية نحو أربعين عملًا من الأعمال الأدبية المعاصرة، منها: «عازفة البيانو» لإلفريده يلينك (نوبل ٢٠٠٤)، و«صداقة» لتوماس برنهارد، و«العاصمة» لروبرت ميناسه، و«دون جوان» لبيتر هاندكه (نوبل ٢٠١٩)، و«شتيلر» لماكس فريش. وألَّف كتابًا عن الكاتب الألماني جونتر جراس (نوبل ١٩٩٩) بعنوان «جونتر جراس ومواجهة ماضٍ لا يمضي».

صدرت له عن «الكرمة للنشر» رواية «الوعد» للكاتب السويسري فريدريش دورنمات، والقصة الطويلة «تقرير موضوعي عن سعادة مدمن المورفين» لهانس فالادا، ونوفيلا «حلم» لأرتور شنيتسلر، ورواية «ملحمة أنيت» لأنّه فيبر، ورواية «سدهارتا» لهرمان هسه.

حصل جريس على «جائزة الملك عبد الله بن عبد العزيز العالمية للترجمة» (فئة جهود الأفراد) عام ٢٠٢٢، و«جائزة الشيخ حمد للترجمة والتفاهم الدولي» عام ٢٠١٨، و«جائزة معهد جوته للترجمة الأدبية» (فئة المترجمين المتمرسين) عام ٢٠١٤، والجائزة الأولى في ترجمة القصة من المجلس الأعلى للثقافة في مصر عام ١٩٩٦.



«تتميز «القفزة» بكتابتها الغنية بالخيال، وبأسلوبها الرقيق والحساس، وقصتها الجذابة بشكل غير عادي» — نيو بوكس إن جرمان

«سيمونه لابرت روائية موهوبة، لا شك في ذلك» — نويه تسوريشر تسايتونج

«حبكة مبنية بعناية، تُروى بحيوية» — دي تسايت

صباح يوم ثلاثاء عادي في بلدة صغيرة. مانو، امرأة شابة، تقف على سطح مبنى سكني. لا يُعرف كيف وصلت إلى هناك وما تنوي الإقدام عليه. تصرخ، وهي غاضبة للغاية، وتقذف بأشياء على المتفرجين الذين تجمعوا في الشارع ليصوروا المشهد بهواتفهم المحمولة، والصحفيين الذين يبحثون عن أخبار، ورجال الإطفاء الذين يحاولون مساعدتها.

تشتبه الشرطة في أن مانو تنوي الانتحار. تحبس المدينة أنفاسها طوال يوم وليلة. بعد ذلك لن يعود شيء كما كان بالنسبة إلى كل من تتقاطع حياته مع حياة مانو.

رواية تنبض بالحياة عن امرأة مميزة، وعن الأقدار التي نمر بها متحيزين أو غافلين. بكثير من الإحساس والفكاهة، تحكي الكاتبة السويسرية سيمونه لابرت عن التوازن الهش في حياتنا اليوم.




ISBN 978-977-86783-9-0
9 789778 678390